مذكرات
عن الحرب الثورية

ترجمة

الدكتور فؤاد أيوب

الأستاذ علي الطود

مقدمة

مضى علينا وقت طويل ونحن نفكر في كتابة تاريخ لثورتنا، يستوعب جميع مظاهرها المتعددة وجوانبها المختلفة. وقد عبّر قادة الثورة عن آمالهم في وضع هذا التاريخ في شتى المحافل والمناسبات، العامة منها والخاصة. غير أن ضخامة الأعباء الملقاة على كواهلنا شغلتنا عن هذا الواجب، فمرت الأعوام، وأخذت ذكرى النضال الثوري تستقر في أحشاء الماضي، دون أن يتم التحديد الواضح لمنجزات ذلك النضال، هذه المنجزات التي أصبحت منذ الآن ملكاً لتاريخ القارة الأميركية جمعاء.

ولذلك كله، فإني أستهل بهذا الكتاب سلسلة من المذكرات الشخصية عن المواقع والمعارك والاشتباكات والمناوشات التي اشتركت فيها. وليس هدفنا أن ندون تاريخاً مجزأً مصنوعاً من الذكريات ومن بعض الهوامش، وإنما نتطلع إلى أن يتناول كل من عاش الثورة هذا الموضوع ويطوره.

إن بقائي طوال فترة الحرب في مكان معين ومحدد تماماً من الخارطة الكوبية قد عاقني عن الإسهام في معارك كانت تدور في الوقت ذاته في أماكن أخرى من البلاد. ولكي يتسنى لجميع مناضلي الحرب الثورية أن يرووا فصولها، ولكي يتم تدوين ذلك وفقاً للتسلسل الزمني في الوقت ذاته، فإني سأبدأ بالمعركة الأولى، يعني المعركة الوحيدة التي كانت نتائجها منافسة لنا على الرغم من وجود فيديل في صفوفنا، وأقصد مفاجأة اليغريبا دي بيو «Alegria de pio».

لقد نجا من هذه المعركة عدد من المناضلين، وإني لأهيب بكل منهم أن يسترجع ذكرى النضال المسلح، لكي نضم ذكرياتنا إلى بعضها،

فنصوغ بذلك تاريخ الحرب المجيدة بصورة أفضل. وكل ما نطلبه من الراوي هو أن يحترم الحقيقة بكل صرامة وحزم، فلا يجانب الصدق مطلقاً حتى يوضح موقفاً شخصياً أو يجمله، أو كي يوحي بوجوده في هذا المكان أو ذاك.

وبعد أن يحرر الراوي على رسله ووفقاً لإمكاناته ودرجة تحصيله بضع وريقات من روايته، نطلب منه بإلحاح أن يراجع ما كتب، فيمحِّصه وينتقده بصرامة وجدية، ثم يستبعد منه كل كلمة تتعلق بعمل لم يقع، وكل عبارة تقع صحتها موقع الشك لديه. وبعد، فلابدا باسترجاع ذكرياتي بهذه الروح، روح الدقة والصدق.

ارنستو تشي غيفارا

ـ ١ ـ

حملة «غرانما»

في العاشر من شهر آذار ١٩٥٢ وقع الانقلاب العسكري الذي قاده فولبجنشيو باتيستا دون سفك للدماء. ومن الطبيعي أن قصة هذا العدوان لا تبدأ يوم «الانقلاب» بالضبط، بل لا بد من البحث عن سوابقه بعيداً جداً في التاريخ الكوبي: قبل وقت طويل من تدخل سفير الولايات المتحدة سامر ويليس عام ١٩٣٣، بل حتى قبل تعديل بلات عام ١٩٠١، وقبل نزول البطل نرشيسو لوبيز، المبعوث المباشر للطامحين الأميركيين، حتى نصل أخيراً إلى أصول المسألة، إلى عصر جون كينسي آدمز الذي صوّر لنا في مطلع القرن التاسع عشر، بلوحة باهرة، أسلوب بلاده في النظر إلى كوبا، هذه التفاحة التي إذا ما انفصلت عن إسبانيا وقعت بصورة لا مندوحة عنا بين يدي العم سام. تلك حلقات متتالية في سلسلة من العدوانات التي لن تكون كوبا ضحيتها الوحيدة.

إن هذه اللجّة العاتية، هذا المد والجزر الذي يتعاقب على أمواج الامبريالية، يتميز بسقوط الحكومات الديمقراطية أو بظهور حكومات جديدة تحت ضغط الجماهير الذي لا يقاوم. ذلك هو تاريخ اميركا اللاتينية بأسرها. إن الدكتاتوريات لا تشكل سوى أقلية زهيدة وهي تقوم نتيجة انقلابات عسكرية. أما الحكومات الديمقراطية التي تتمتع بالتأييد الشعبي الواسع فتصعد بكل جد وكد، وكثيراً ما تسمها، حتى قبل أن تتسلم السلطة، سائر تلك التنازلات المسبقة التي لم يكن لها بد من الرضوخ لها كيما تتمكن من الاستمرار في البقاء. وعلى الرغم من أن

الثورة الكوبية تشكل استثناءً في اميركا باسرها، فانه كان من الضروري بمكان تبيان سوابقها، ذلك ان كاتب هذه الاسطر، الذي رفعته وجرفته امواج الحركات الاجتماعية التي تختلج في احشاء قارتنا اميركا، قد سنحت له الفرصة بهذه الطريقة كي يتعرف إلى منفيّ اميركي آخر هو فيديل كاسترو.

***

تعرفت إليه في إحدى الليالي المكسيكية الباردة، واذكر أن مناقشتنا الاولى دارت حول السياسة الدولية، ولم يشرق الفجر حتى كنت واحداً من افراد الحملة التحريرية المقبلة. وبودي ان اشرح هنا لماذا وكيف التقيت في المكسيك بالرئيس المقبل للحكومة الكوبية.

تلك كانت مرحلة من تراجع الانظمة الديمقراطية، عام ١٩٥٤، حين كانت الديمقراطية الثورية الاميركية الاخيرة الناهضة على قدميها بعد نصف الكرة - ديمقراطية جاكوب اربنز غوزمان - تتهاوى تحت ضربات العدوان المهيأ بكل برودة أعصاب، والمنفّذ من قبل الولايات المتحدة خلف ستار الدخان الذي اثارته دعاياتها القارية. وكان مدبر هذا العدوان جون فوستر دالاس وزير الخارجية الاميركية، هذا الذي شاءت المصادفات العجيبة أن يكون في الوقت نفسه محامياً لشركة الثمار المتحدة ومساهماً فيها، وهي اكبر مشروع امبريالي قائم في غواتيمالا.

وغادرت البلاد يملأني الشعور الرهيب بالإخفاق، يربطني الامل بجميع الغواتيماليين، ويغمرني الامل، باحثاً عن طريقة اعيد بها صنع مستقبل لهذا الوطن الغارق في لجة الاحزان والآلام

ولقد جاء فيديل إلى المكسيك يبحث عن أرض حيادية من أجل تهيئة رجاله للعمل الحاسم. وكان الانتقاد قد تم في وقت سابق، وهو أمر طبيعي، بعد الهجوم على ثكنة مونكادا، في سانتياغو دي كوبا. كان المترددون قد غادروا الصفوف، بينما انضم آخرون لاسباب مختلفة إلى احزاب سياسية او جماعات ثورية تتطلب منهم قدراً اقل من التضحيات؛ وكان المجندون الجدد يدخلون صفوف «حركة السادس والعشرين من تموز» الجديدة تماماً، وكانت مهمة قاسية جداً تواجه المشرفين على

تنظيم الحركة، الا وهي تدريب هؤلاء القادمين حديثاً في ظروف من السرية التامة: لم يكن بدٌّ من النضال ضد الحكومة المكسيكية، وضد عملاء المخابرات الاميركية، وضد عملاء باتيستا، وجميع المنظمات التي تقدم المعونة، حيث المال والمعاملات الشخصية تلعب الدور المتفوق. ولم يكن بدٌّ، فضلاً عن ذلك، من النضال ضد جواسيس تروجيلو، والشبان المتشككين الذين يرسَلون إلينا من ميامي بصورة رئيسية. ولم يكن التغلب على سائر هذه العقبات كل شيء، بل كان لا بد من النجاح في مغادرة المكسيك. ومن بعد في الوصول، وأخيراً تنفيذ المهمات الباقية جميعاً كما ينبغي، وهو أمر كان يتراءى لنا سهلاً يسيراً. وإننا لنعرف اليوم كم كلفت هذه الفترة من جهود، ومن تضحيات، ومن شهداء.

وكرّس فيديل كاسترو نفسه، تساعده زمرة صغيرة، لمهمة تنظيم الجيش الذي سيتوجه نحو كوبا، وقد وضع في هذه المهمة كل حميته وكل قوته الخارقة على العمل. ولم يُلق قط على وجه التقريب دروساً في التكتيك العسكري، إذ لم يكن له متسع من الوقت من اجل ذلك، بل إن الجنرال البرتوبايو[1] هو الذي قام بهذا الدور. وخالجني شبه يقين بالنصر منذ الدروس الاولى (واعترف ان النصر بدا لي أمراً مشكوكاً فيه جداً ساعة انخرطت في صفوف القائد الثائر الذي ارتبطت به، منذ اللحظة الاولى، برابطة رومانسية من التعاطف والمغامرة وبالفكرة التي تقول إن الموت جدير بالإنسان في بلد اجنبي من اجل مثل على هذا القدر من السمو).

ومرت الاشهر، وجعلنا نبرهن على بعض المهارة في الرماية، بل أصبح في صفوفنا رماة ممتازون. ووجدنا مزرعة في مكسيكو حيث عمدنا، تحت قيادة الجنرال بايو، إلى الاستعدادات الاخيرة من اجل الانطلاق المحدد في شهر آذار ١٩٥٦. لكن منظمتين بوليسيتين، وكلتاهما ماجورتان لباتيستا، كانتا تتعقبان فيديل كاسترو. ولقد أسعف الحظ إحدى هاتين المنظمتين - من وجهة النظر المالية - فاعتقلته. لكنها ارتكبت الخطيئة السخيفة - وهي خطيئة من وجهة النظر المالية

(١) كان الجنرال ألبرتو بايو إسبانياً مقيماً في كوبا، وقد كتب عن دوره في هذه المرحلة التحضيرية كتاباً صغيراً بعنوان: مساهمتي في الثورة الكوبية.

أيضاً ـ فلم تجهز عليه بعدما أسرته[1]. ووقع عدد من الانصار في شباك رجال البوليس، كما اكتشفت الشرطة مزرعتنا الواقعة في ضاحية المدينة فاصبحنا جميعاً نزلاء السجون.

أخّرت هذه الأحداث بداية تجربتنا الأخيرة العامة، فقد امضى بعضنا سبعة وخمسين يوماً كاملاً في السجن دونما نقصان، وخطر تسليمهم كمجرمين معلق أبداً فوق رؤوسهم (إن كاليكستو غارسيا وأنا نعرف شيئاً ما عن هذا الخطر)، ومع ذلك، فإن ثقتنا بفيديل كاسترو لم تتغير أبداً. ويجب أن نقول إن فيديل قد قام بدافع الصداقة بحركات كانت تعرّض على وجه التقريب موقفه الثوري لخطر جسيم ومثال ذلك أني عرضت عليه حالتي الشخصية؛ فأنا أجنبي، أقيم سراً في المكسيك، وثمة مجموعة من التهم تثقل عليّ. وأخبرته أن الأمر الهام هو ألاّ نلجم مجرى الثورة من أجلي. وأن في مقدوره أن يخلفني وراءه، وأني أفهم الوضع جيداً، وأني سأحاول أن أذهب لأقاتل حيثما أرسل، وأن كل ما أطلبه هو إرسالي إلى بلد مجاور وليس إلى الأرجنتين. وإني لأذكر جواب فيديل الحازم: «لن أتخلى عنك». وهذا ما حدث بالفعل. وبُذل كثير من المال والوقت، وكلاهما ثمين، من أجل إخراجنا من السجن المكسيكي . وفي اعتقادي أن هذا السلوك الذي ينتهجه فيديل تجاه الأشخاص الذين يحترمهم يفسر التعلق غير المشروط الذي يحوط به، هذا التعلق الذي يمتزج فيه التمسك بالمبادىء والإخلاص للرجل. وهذا هو السبب في أن هذا الجيش الثائر يشكل كتلة متراصة وحيدة.

عملنا أياماً وأياماً في السر، نختبىء حيث نستطيع، ونتجنب قدر الإمكان أن نظهر في الأماكن العامة. كنا لا نخرج إلى الطرقات في المدينة مطلقاً على وجه التقريب. وبعد أشهر من مثل هذه الحياة تبين لنا أن في صفوفنا خائناً (نجهل هويته): لقد باع حمولة من السلاح. وكنا نعلم كذلك أنه ساوم على يختنا وعلى محطة للإرسال، على الرغم من أن «عقد البيع» لم يدوّن بعد. وكانت هذه الخيانة الأولى تثبت جيداً للسلطات الكوبية أن الرجل هو حقاً في المكان المخصص له وأنه مطّلع على

---

(1) إن العميل السري الذي يشي بفيديل كاسترو إلى السلطات المكسيكية يقبض مكافأة في حالة الاعتقال.

اسرارنا. ولم يكن لنا بدٌ منذ هذه اللحظة من بذل نشاط محموم. وهيء اليخت غرانما بسرعة مجنونة، وكدست فيه جميع المؤن التي تحت تصرفنا - ولم تكن بالحمل الثقيل في واقع الأمر - والالبسة العسكرية، والبنادق، والتجهيزات، وبندقيتان مضادتان للدروع تفتقران للطلقات على وجه التقريب. واخيراً، في الخامس والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٦، في الساعة الثانية صباحاً، جعلت كلمات فيديل، التي كانت اضحوكة للصحافة الرسمية، تتجسد فعلاً: «عام ١٩٥٦، سنكون احراراً او شهداء».

وغادرنا مرفأ توكسبان وانوارنا مطفأة جميعاً، في ملء فوضى خيالية من الرجال والمعدات. كان الطقس عاصفاً، وكانت الملاحة محظورة على اية حال. ومهما يكن من امر، فقد كان مجرى النهر هادئاً. ولم نكد نجتاز مخرج المرفأ حتى أُشعِلت الانوار. وضاعت منا حبوب الدرامامين المضادة للدوار، ومع ذلك فقد كان دوار البحر يعيث فساداً فينا: وانشدنا النشيد الوطني الكوبي ونشيد «السادس والعشرين من تموز»، ربما طوال خمس دقائق دون انقطاع. وكان للمركب منظر فاجع ومضحك في وقت واحد: كان بعض الرجال، ولقد لوى الالم وجوههم، يمسكون بطونهم بكلتا يديهم، وكان آخرون قد غطسوا رؤوسهم في سطل ماء، بينما تدحرج سواهم على الارض، وتجمدوا في اكثر الاوضاع غرابة، والقيء يلوث ثيابهم. وفيما عدا بحارين او ثلاثة بحارة واربعة او خمسة اشخاص آخرين، فإن الركاب الثلاثة والثمانين قد أُصيبوا جميعاً بدوار بحر لا مثيل له. وبدأت الامور تتحسن قليلاً في اليوم الرابع او الخامس. واكتشفنا ان ما حسبناه سيلاً مائياً في المركب لم يكن سوى حنفية للخدمات الصحية تركت مفتوحة. وكنّا قد القينا في البحر كل الاشياء الزائدة، وذلك كي نخفف الحمل عن المركب.

وكان خط السير الذي اخترناه يشتمل على التفاف عريض إلى الجنوب من كوبا، على طول شاطىء جامايكا، وجزر كايمان الكبيرة، كي ننزل اخيراً على شاطىء المقاطعة الشرقية، في مكان ما في جوار نيكويرو. وكان تنفيذ الخطط اقرب إلى البطء... وفي الثلاثين من الشهر علمنا بواسطة الراديو اخبار الاضطرابات في سانتياغو دي كوبا، هذه الاضطرابات التي شنها رفيقنا العظيم فرانك بايس الذي كان يحسب أن

تتفق مع وصول حملتنا. وفي الغداة، الأول من كانون الاول (ديسمبر)، عند هبوط الليل والطقس عاصف، لم يكن الوضع ليبعث على الاطمئنان. وكان الحراس يذهبون ويأتون، يبحثون عن تلك العلامة المضيئة التي ما كانت تظهر في الأفق. وصعد روك، ملازم البحرية القديم، مرة أخرى إلى الجسر العلوي الصغير، تواقاً إلى رؤية نور الشاطىء أخيراً، واخطأ الخطى فسقط في الماء. وبعدما استأنفنا مسيرنا بوقت قليل ظهر النور أخيراً، ولكن تقدم مركبنا اللاهث جعل ساعات الرحلة الاخيرة تبدو وكان لا نهاية لها. وكان النهار قد طلع حين وصلنا إلى الشاطىء الكوبي أخيراً في المكان المسمى بوليك، عند بلايا دي لاس كولوراداس.

وشاهدنا أحد العملاء، فارسل برقيته إلى الجيش الباتيستي. نزلنا إلى البر باقصى ما يمكن من السرعة، ولم ناخذ معنا إلا ما هو ضروري بصورة لا غنى عنها. ولم نكد نتغلغل في المستنقعات حتى راح طيران العدو يطاردنا. ولمّا كنا نتقدم في تلك المستنقعات المغطاة بالاشجار الصمغية، فمن المفروغ منه انه لم يكن في مستطاع الطيران أن يحدد موقعنا، أو يهاجمنا. لكن جيش الديكتاتورية كان في هذه الاثناء قد باشر مطاردته لنا.

وقضينا ساعات عديدة حتى غادرنا المستنقع حيث ألقت بنا جهالة وعدم مسؤولية أحد الرفاق الذي زعم انه يعرف المكان جيداً. وها نحن على اليابسة، نتزلق ونتعثر، ضائعين، جيشاً من الأخيلة والأشباح، نتقدم وكان آلية نفسانية غامضة تحركنا. لقد عانينا طوال سبعة أيام من الجوع ومن دوار البحر، وهذه ثلاثة أيام رهيبة على اليابسة تضاف إلى تلك الايام السبعة. ووصل فريقنا، بعد عشرة أيام بالضبط من مغادرتنا المكسيك، في الخامس من كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٥٤ عند الفجر، بعد مسيرة ليلة كانت الإغماءات والغثيانات وفترات الراحة تقطعها، إلى نقطة معروفة – ويا للتناقض – باسم اليغريا دي بيو.

* * *

ـ ٢ ـ

اليغريا دي بييو

تقع اليغريا دي بييو ضمن بلدية نكيرو Niquero في الإقليم الشرقي، على مقربة من راس كابو كروز Cabo Cruz، وفيها فاجأتنا قوات الدكتاتور باتيستا، في الخامس من كانون الاول ١٩٥٦.

وصلنا مجهدين بعد مسيرة لم تكن بعيدة بقدر ما كانت مؤلمة، فقد نزلنا إلى شاطىء ـ بلايا دي لاس كولوراداس Playa de las Coloradas في ٢ كانون الاول، وسرنا من هناك الساعات الطوال بأحذية جديدة عبر مستنقعات تملأها مياه البحر المالحة، فتقرحت أقدام معظم الرجال، واضطررنا للتخلي عن اكثر تجهيزاتنا. ولم تكن الاحذية الجديدة والأقدام المقرحة عدونا الوحيد؛ فقد غادرنا ميناء توكسبان Tuxpan المكسيكي في الخامس والعشرين من تشرين الثاني وهو يوم يحظر فيه الإبحار، ووصلنا إلى كوبا بعد ستة ايام، اخترقنا فيها خليج المكسيك والبحر الكاريبي. وكانت رحلة متعبة، إذ كنا نفتقر إلى المؤونة الكافية والمركب الجيد، كما أن عدم تعوُّد الكثيرين منا على ركوب البحر ادى إلى إصابتهم بالدوار. وقد تركت كل هذه المزعجات آثارها العميقة في نفوس رجالنا، سيما وأن اغلبهم مبتدئون، لم يسبق لهم أن خاضوا القتال مطلقاً.

لم يبق من اعتدتنا سوى البنادق وأحزمة الطلقات، وبعض الرصاصات المبتلة، اما المستودع الطبي فقد اختفى، وكذلك الأمر بالنسبة إلى اكياسنا الحربية التي بقي جلها في المستنقعات.

وسرنا في الليلة السابقة للمعركة عبر حقول للقصب كان يمتلكها آنذاك خوليو لوبو Julio Lobo. ولما كانت خبرتنا بحياة الحرب ضيقة الحدود، فقد استجبنا لداعي الجوع والعطش واخذنا نمتص القصب ونلفظ التفلة على قارعة الطريق غافلين عن الاخطار التي قد تنجم عن ذلك. ولكن الحرس القروي لم يكن بحاجة إلى آثارنا حتى يهتدي إلينا، فقد علمنا - بعد أعوام من هذا اليوم - أن دليلنا نفسه كان المدبر الاول للخيانة. وقد انتبهنا - بعد فوات الأوان - إلى خطأ جسيم ارتكبناه في الليلة السابقة، ووقعنا فيه مرات عديدة خلال الحرب: ذلك اننا تركنا الدليل طليقاً بدون مراقبة، يذهب ويأتي على هواه، ولم نقلع عن اقتراف هذه الخطيئة حتى تعلمنا أن نفرض الرقابة الشديدة على المدنيين ذوي الماضي المجهول ما دمنا ضمن مناطق الخطر. ولذا كان لزاماً علينا الاّ نسمح للدليل - هذا الخائن - بالابتعاد عنا مطلقاً تلك الليلة.

وفي سَحَر اليوم الخامس من كانون الأول (ديسمبر) استأنفنا المسير. ولم يكن الكثيرون منا قادرين على المشي، فقد كنا خائري القوى لا نلبث أن نخطو قليلاً حتى يلح الرفاق في طلب استراحة طويلة. ولذلك توقفنا عند غابة صغيرة متعزلة عن الغابة الاصلية على مقربة من حقل قصب، وقضينا ذلك الصباح كله نياماً.

وما أن انتصف النهار حتى جعلت بعض الدلائل غير المألوفة تقلقنا، فقد اخذت بعض طائرات - البيبر - وطائرات صغيرة أخرى بعضها عسكري وبعضها خصوصي، التحليق على مقربة منا. لم يهتم بعض الرجال بهذه الطائرات، فاستمروا في قطع القصب بكل هدوء، بينما طائرات العدو تحلق فوق رؤوسهم، دون أن يمر في خلدهم انهم مكشوفون تماماً من قبل هذه الطائرات، نظراً لانخفاضها وسرعتها الضئيلة. كان واجبي - حتى تلك اللحظة - كطبيب للفرقة مقصوراً على مداواة قروح الأقدام، ولا زلت اذكر آخر من عالجت في ذلك اليوم، إنه الرفيق امبرتو لاموتي Humberto Lamotte الذي كان يعيش آخر أيام حياته. وإن نسيت فلن انسى وجهه الشاحب المتألم، وهو يغادر صيدلية الميدان الصغيرة كي يلتحق بمركزه، شبحاً متعباً بائساً، يحمل حذاءه الذي ما عاد يستطيع انتعاله.

اتكات مع الرفيق مونتاني Montane على جذع شجرة، ودار بيننا حديث طويل، ثم تناولنا وجبتنا الهزيلة، وكانت ارغفة صغيرة من الخبز مع نصف شريحة من لحم الخنزير. وفجأة دوى طلق ناري، ولم تمض هنيهة حتى انصبت عاصفة من الطلقات (أو ما بدا عاصفة لاذهاننا التي اذهلتها هذه المعمودية بالنار)، على الفرقة المكونة من ٨٢ رجلاً. ووجدت نفسي افتقد بندقيتي. ولم تكن هذه البندقية على اي جانب من الجودة، إذ أن صحتي التي انهكتها نوبة ربو شديدة اثناء الإبحار لم تشجعني على حمل سلاح جيد قد يفقد بين يدي.

لست اذكر كيف ومتى توالت الحوادث بعد ذلك، فقد جعلت الذكريات في راسي تمحي في الوقت الحاضر. وكل ما اذكره في وطيس المعركة ان النقيب (الكابتن) الميدا Almeida اقبل نحوي يسال عن الاوامر. ولكن لم يكن هناك إنسان كي يصدر الاوامر. فقد علمت بعد حين أن فيديل كان وقتها يحاول عبثاً تجميع الرجال في حقل القصب المجاور، وكان يكفي من أجل الوصول إليه اجتياز العراء الفاصل بيننا وبينه. لكن المفاجأة كانت شديدة جداً، كما أن النيران كانت حامية الوطيس. ورجع الميدا إلى جماعته ليهتم بامرها، وفي هذه اللحظة ترك احد الرفاق (وقد اغتيل فيما بعد بيد أحد عملاء باتيستا) صندوقاً للرصاص عند قدمي، وعندما نبهته إلى ذلك اجابني بوجه اتذكره جيداً، بسبب الالم الذي ارتسم عليه، بكلام من هذا القبيل: «ليس هذا وقت صناديق الرصاص».

هل ساكرس نفسي للطب أم لواجبي كجندي ثوري؟ ربما كانت هذه أول مرة يواجهني فيها اللغز بعبارات عملية، فقد انتصبت امامي حقيبة المعدات الطبية وصندوق الرصاص الذي تخلى عنه الرفيق، وكان ثقلهما يمنعني من حملهما معاً، فعليّ إذاً أن اختار ايهما احمل. وحملت صندوق الرصاص ثم توجهت إلى العراء الذي يفصلني عن القصب. ولا زلت اذكر بوضوح فاوستينو بيريز Faustino Pérez راكعاً على ركبتيه يطلق النار من مسدسه الرشاش. وسرت نحو القصب يرافقني المناضل البنتوسا Albentosa، ولكن زوبعة من الرصاص ادركتنا فاحسست بضربة قوية في صدري، وبجرح في عنقي، واعتبرت نفسي مائتاً لا محالة. والتفت إلى البنتوسا فإذا به يلفظ الدم من فمه وانفه ويصيح: «قتلوني». وكانت الدماء تتفجر بغزارة من جرح غائر في جسمه سببته

رصاصة من عيار ٤٥، وتحامل البنتوسا[1] على نفسه واخذ يطلق النار جزافاً وبجنون، غير أن إنساناً لم يكن بادياً لابصارنا. وخاطبت فاوستينو وانا لا زلت ملقى على الارض: «إنهم مقرفون». (لقد استخدمت في الحقيقة كلمة اشد فظاظة من ذلك). والقى عليّ فاوستينو، دون أن يتوقف عن إطلاق النار، نظرة خاطفة، وهوّن عليّ امر الجرح، ولكنني قرات في عينيه ما يتضمنه جرحي من حكم قاطع.

ولبثت مضطجعاً، ثم اطلقت رصاصة نحو الغابة مدفوعاً بالشعور الغامض الذي يخامر زميلي الجريح، وبدات فوراً افكر بافضل طريقة للموت في تلك اللحظة، شعوراً مني بان كل شيء قد انتهى. وعادت إلى ذاكرتي حكاية لجاك لندن يصور فيها البطل مستنداً إلى جذع شجرة، بعد أن وجد نفسه معرضاً للموت البطيء تجمداً في فلوات الاسكا المتجمدة. إنها الصورة الوحيدة التي اتذكر.

وصاح احد الرجال وهو راكع على ركبتيه انه يجب أن نستسلم، ولكن صوتاً جاء من الخلف - علمت فيما بعد انه صوت كاميلو تشيانفويغوس Camilo Cienfuegos - يزمجر: «هنا لا يستسلم احد...» - وقذف شتيمة بذيئة - ورايت بونشي Poncé يقترب مني مضطرباً بشدة، لاهث الانفاس، ويشير إلى جرح في صدره اخترق رئته على ما بدا لي، وقال إنه جريح، فانهمته بلا مبالاة مطلقة انني جريح انا الآخر، ثم زحف نحو القصب حيث انضم إلى بقية الرفاق.

واقبل الميدا يستثير همتي كي اتابع السير إلى القصب، فتحاملت على آلامي إلى ان وصلت. وهناك في حقل القصب رايت الرفيق العزيز راوول

---

(١) انقذ بعض الفلاحين اميليو البنتوسا، بطل مونكادا، بعد إصابته بهذا الجرح الخطير، وذهبوا به إلى طبيب في نيكيرو رفض أن يعالجه. عندها اخفاه فلاح آخر في كوخه. ولم يكن له بد، كي يستطيع الكلام أو الطعام، من أن يضع راحة يده على فوهة جرحه. وصنع لنفسه سدادة بقطعة من الشمع، ووضعها على الفوهة، وشد منديله فوقها، لكنه كان مضطراً مع ذلك إلى المحافظة على السدادة في مكانها بيده كلما أراد الحديث، لأن ضغط الهواء كان يهدد بقذفها دائماً. واقرضه الفلاحون بعض المال رغماً عن فقرهم المدقع، فقصد سانتياغو في سيارة للركاب. ولقد فتش الجنود المسافرين مرات عديدة، لكنهم لم يجسروا على الاقتراب منه، ذلك أنه خطرت له الفكرة، وهو يصعد إلى سيارة الركاب، فاخبر السائق بانه يشكو من سرطان في الحنجرة. وفي سانتياغو عالجه وشفاه الدكتور مارتوريلي في العيادة الإسبانية.

سواريز Rauol Suarez مكسور الإبهام، وقد استسلم لفاوستينو بيريز الذي انهمك في تضميد إصبعه. وبعد ذلك اختلط كل شيء. كانت الطائرات تحلق فوقنا على ارتفاع منخفض وتمطرنا بوابل من رصاص رشاشاتها زارعة الفوضى في صفوفنا، هذه الفوضى التي تجلت في مشاهد كثيرة بعضها مبك وبعضها مضحك، كمشهد الرفيق البدين الذي أراد الاختباء وراء قصبة السكر، والرفيق الآخر الذي طلب منا أن نسكت في غمرة ضجيج الطائرات وازيز الرصاص دون أن يدرك هو نفسه معنى طلبه.

تشكلت مجموعة بقيادة الميدا، تضمني فضلاً عن الملازم الاول - الليوتنان - راميرو فلديس[1] Ramiro Valdés والرفيقين تشاو Chao وبنيتز Benitez. وقطعنا آخر فضاء من حقل القصب خلف الميدا حتى وصلنا إلى الغابة الامينة وما ان وصلنا حتى تناهت إلى مسامعنا الاوامر الاولى بإطلاق النار، ثم تصاعدت اعمدة الدخان من قلب حقل القصب. غير انني لا استطيع تاكيد صحة المشهد الاخير، فقد شغلت تفكيري الهزيمة المريرة وفكرة إشرافي على الموت، اكثر مما شغلته الفصول النهائية من المعركة.

وسرنا، حتى جاءت لحظة اخيرة اعاقنا الليل فيها عن التقدم. فاستقرينا حيث وصلنا، ونمنا الليل متكوّمين على بعضنا، عرضة لهجمات ضارية من جحافل الناموس، ولنهش الجوع والعطش.

وهكذا عمَّدنا الرصاص في الخامس من كانون الاول ١٩٥٦ عند مشارف نيكيرو.

وبدأ يتكون الجيش الذي سوف يصبح في يوم من الايام الجيش الثائر.

* * *

(١) اصبح الآن رائداً (كومندان) في الجيش الثائر.

ـ ٣ ـ

الجنوح

رحنا غداة مفاجأة «اليغريا دي بيو» نتقدم في قلب الغابات، في منطقة تتناوب فيها الأرض الحمراء و«أسنان الكلب»[1]. كانت طلقات نارية منعزلة تلعلع في كل مكان على وجه التقريب، وما كنا ننجح في العثور على درب صحيحة. ولاحظ تشاو، بطل الحرب الإسبانية، أننا إذا ما ثابرنا على التقدم بصورة عمياء على هذا المنوال، فلا بد أن ننتهي بصورة محتومة إلى الوقوع في كمين نصبه العدو لنا، واقترح أن نبحث عن مكان لنا يمكننا أن ننتظر الليل فيه، فإذا حل استأنفنا المسير.

كنا نفتقر عملياً إلى المياه تماماً، وقد وقعت كارثة لعلبة الحليب الوحيدة التي في حوزتنا: ذلك أن بنيتز Benitez الذي عهدنا بها إليه قد دفعها ورأسها إلى الأسفل في جيب بزته، فإذا الثقوب الصغيرة التي فتحناها فيها كي نشرب منها تنقلب رأساً على عقب، وحين هممنا أن نتناول وجبتنا الغذائية ـ وهي أنبوب فيتامينات فارغ كنا نملأه بالحليب المكثف ونأخذ معه جرعة من المياه ـ تبين لنا، والذهول يصعقنا، أن كل شيء قد انسكب في جيب صاحبنا بنيتز وعلى بزته...

ونجحنا في الاستقرار في مكان أشبه بالمغارة، وكان مدى البصر عريضاً أمامنا من جهة واحدة، لكنه كان من المحال علينا، لسوء الحظ، أن نشعر بتقدم العدو من الجانب الآخر. ومهما يكن من شيء، فلما كان

(١) صخور على مستوى الأرض تغطيها رؤوس مدببة.

اهتمامنا منصرفاً إلى الاختفاء عن الانظار بالأحرى إلى الدفاع عن انفسنا، نحن الخمسة، بان نقاتل حتى الموت إذا اضطررنا إلى ذلك. وهذه هي أسماء أولئك الذين قطعوا العهد على انفسهم: راميرو فالديس، وخوان الميدا، وتشاو، وبنيتز، وكاتب هذه الرواية. وقد بقينا نحن الخمسة على قيد الحياة بعدما اجتزنا تجربة الهزيمة الرهيبة، وجميع النضالات اللاحقة.

وحين هبط الليل استانفنا المسير. وجمعت ذكرياتي في علم الفلك، وحددت مكان نجم القطب، فكان هذا النجم مرشداً لنا طوال يومين كاملين في تقدمنا في اتجاه الشرق من أجل بلوغ سييرا ماسترا. وعلمت بعد أشهر عديدة أن النجم الذي أرشدنا نحو الشرق لم يكن نجم القطب! فنحن إذاً قد اتخذنا الاتجاه السليم بمحض الصدفة وحدها، كي نبلغ عند الفجر مرتفعات صخرية قريبة جداً من الشاطىء...

كانت تفصلنا عن البحر صخرة مدببة تعلو حوالي خمسين متراً. وكانت تلمع في عيوننا، من الجانب الآخر، الصورة المغرية جداً لسطح من المياه التي كان خيالنا يتوهمها عذبة رائقة. كان العطش أقسى ما نعاني من آلام؛ وفي تلك الليلة حامت حولنا جماعات من السرطانات الأرضية. فاعملنا القتل فيها بدافع من الجوع. ولما كان إشعال النار أمراً محظوراً علينا، فقد التهمنا القسم الجلاتيني من جسدها نيئاً، الأمر الذي أشعل فينا عطشاً قاتلاً.

وقضينا وقتاً طويلاً قبل أن نكتشف ممراً يمكننا أن نسلكه كي نستقي الماء، لكن السطح المائي الذي تبيناه من علٍ قد غاب عن أبصارنا في فوضى الذهاب والإياب المتكررين. ولم يكن لنا بدٌ من اللجوء إلى برك صغيرة من المياه من مخلفات الأمطار السابقة، وقد ظلت باقية في أجواف «أسنان الكلب».

واستخدمنا مضخة صغيرة خاصة بجهاز رذاذ مضاد للربو كي نستخرج الماء من تلك الأجواف، ومع ذلك لم يحصل كل واحد منا على أكثر من قطرات قليلة.

وسرنا، دون اتجاه معين، ومعنوياتنا منهارة. كانت طائرة تحلق فوق البحر من وقت لآخر. وكان التقدم بين الصخور أمراً مجهداً جداً، فاقترح واحد منا أن نتقدم ونحن ملتصقون بصخور الشاطىء العالية،

الأمر الذي يتضمن سيئة خطيرة، إذ يستطيع العدو أن يشاهدنا. وأخيراً، بقينا مضطجعين في ظل باقة من الشجيرات، ننتظر مغيب الشمس. وحين هبط الليل، اكتشفنا ساحلاً صغيراً فاستحممنا فيه.

وحاولت أن أطبق عملياً حيلة قرأت عنها في نشرة شبه علمية أو ربما في رواية، يوضحون فيها أن الماء العذب الممزوج بمقدار ثلثه من ماء البحر يعطي ماءً شرباً جيداً جداً مع زيادة كمية السائل المتوافرة. وقمت بالتجربة في قعر قارورة، فجاءت النتيجة مريعة محزنة: شراب أجاج اكسبني الانتقاد من جانب رفاقي جميعاً. واستأنفنا المسير بعدما انعشنا الحمام قليلاً، وكان الوقت ليلاً، واعتقد انني اتذكر أن القمر كان يقارب البدر. ولاحظنا على حين غرة، أنا والميدا، وكنا نمشي في الطليعة، ظل رجال يرقدون في أحد تلك الأكواخ الصغيرة التي يصنعها الصيادون على شاطىء البحر كي يتقوا تقلبات الطقس. وكنا على يقين أن هؤلاء الرجال جنود بالتأكيد، لكننا كنا قد اقتربنا كثيراً بحيث يستحيل علينا الرجوع على أعقابنا. فتقدمنا بخطوات كبيرة، واصدر الميدا أمره إلى النيام بالاستسلام، ولشد ما كانت دهشتنا سعيدة حين تبينا أنهم ثلاثة رفاق من غراما: كاميلو تشيانفويغوس وبانشو غونزاليث وبابلو هورتادو. وفي الحال تبادلنا الآراء، والانطباعات والأخبار، عن الشيء القليل القليل الذي يعرفه كل منا عن رفاقنا الآخرين أو عن المعركة. وقدم إلينا أفراد مجموعة كاميلو قطعاً من قصب السكر انتزعوها قبل فرارهم، فكانت هذه المادة السكرية والعصيرية نِعْمَ المسكت لجوعنا بصورة مؤقتة. وفي هذه الأثناء، كانوا يمضغون السرطانات بكل شراهة. لقد وجدوا طريقة لإطفاء ظمأهم، وذلك بضخ الماء من الأجواف الصغيرة مباشرة بواسطة أنبوب أو قطعة من الخشب المفرغ.

وواصلنا طريقنا معاً. كان المقاتلون الناجون من جيش غراما يعدون ثمانية رجال إذاً، ولم تكن لدينا أية معلومات عن وجود ناجين آخرين! وكنا نفكر أنه لا بد منطقياً أن تكون هناك زمرة أخرى شبيهة بزمرتنا، لكننا لم نكن نملك أدنى فكرة عن المكان الذي نوجد فيه، كان كل ما نعرفه هو أننا إذا سرنا والبحر عن يميننا فإننا نتقدم إذاً صوب الشرق، يعني صوب السييرا، هذا المكان الذي ينبغي علينا الالتجاء إليه. وما كنا نسعى إلى التخفي، لأننا إذا ما أخذنا بين الصخور المدببة والبحر

فليست لدينا أية إمكانات للفرار مطلقاً فيما إذا التقينا بدورية معادية.

ولست أذكر في الوقت الحاضر ما إذا كنا قد سرنا طوال يوم واحد أو يومين على طول الشاطىء، لكنني أذكر فحسب أننا أكلنا بعض التين البري النامي على أطراف الصخور. ولقد حصل كل فرد منا على تينة أو تينتين، وهو ما يكفي من أجل خداع الجوع وكان الظمأ يمزق أحشاءنا، وذلك أنه لم يكن بدٌّ من تقنين قطرات الماء القليلة حتى أقصى درجة ممكنة.

وذات صباح وصلنا عند الفجر، في حالة من الإعياء البالغ، إلى شاطىء البحر، وبقينا هناك، نأخذ قسطاً من النوم، في انتظار أن تبين لنا الرؤية بوضوح كي نجد لنا ممراً قبل أن نقع على صخور شديدة الوعورة.

وعند بزوغ الفجر، قمنا نستكشف المكان، فإذا بنا نصادف بغتة بيتاً كبيراً مصنوعاً من الواح النخيل يبدو أن صاحبه فلاح ميسور. وكان رد فعلي المباشر أنه لا يجوز الاقتراب من منزل من هذا الطراز، لأنه من المرجح أن سكانه أعداء لنا؛ بل لعل الجيش يحتل هذا المنزل في الوقت الحاضر. ولم يقاسمني بنيتز وجهة نظري مطلقاً، وانتهينا بأن توجهنا نحن الاثنان صوب المنزل.

بقيت خارجاً، بينما تخطى هو سوراً من الأسلاك الحديدية الشائكة (وكان معنا شخص ثالث لم أعد أذكر هويته) وفجأة، ميزت بكل وضوح في الظل الخفيف شبح رجل يرتدي البزة العسكرية، وفي يده بندقية سريعة الطلقات، وحسبت أن الدقائق الأخيرة في حياتنا قد حانت، على الأقل بالنسبة إلى بنيتز الذي كان من المحال تحذيره بعد الآن لأنه كان أقرب إلى الرجل منه إلي. وما أن وصل بنيتز على بعد خطوتين من الرجل حتى قفل راجعاً من الطريق نفسه، وخاطبني بكل سذاجة قائلاً إنه يعود أدراجه لأنه رأى «سيداً يحمل بندقية» وأن ليس من الحذر في شيء، في اعتقاده، أن نسأله أي أمر كان...

في الحقيقة إن الشعور بالحياة قد دب فينا من جديد، وفي بنيتز قبل الجميع! بَيْدَ أن ملحمتنا لم تتوقف هنا. فبعدما تفقدنا الجوار بكل حيطة، قمنا نتسلق الصخور التي كانت أوطأ كثيراً في هذا المكان. وبالفعل، كنا نقترب من منطقة «أولو دي بايي» (عين الثور)، وقد سميت

هكذا لان مجرى صغيراً من الماء ينصب في البحر يثقب المرتفع الصخري من جانب إلى جانب.

فاجانا النهار قبل أن ننهي تسلقنا، فلم نجد متسعاً من الوقت سوى من اجل الوصول إلى مغارة كانت تشكّل مرقباً رائعاً للمشهد باسره، وكان سكون مطلق يسود المنطقة. وشاهدنا مركباً تابعاً لسلاح البحرية يُنْزِل رجالاً على الشاطىء استطعنا ان نعد ثلاثين رجلاً منهم، بينما كان آخرون يصعدون إلى ظهر المركب، فيما يشبه عملية تبديل للحرس. وعلمنا فيما بعد انهم كانوا رجال لورنت Laurant؛ كان المجرم الرهيب لسلاح البحرية، الذي كان قد انهى مهمته الإجرامية في تنفيذ حكم الموت في عدد من رفاقنا، معنياً إذاً بتبديل رجاله من اجل الاستمرار في عمل المطاردة.

إن «السادة اصحاب البنادق» قد ظهروا بكل حقيقتهم الفاجعة أمام عيني بنيتز المذعورتين. ولم يكن الوضع على خير ما يرام، ولم يكن امامنا اية إمكانية للخلاص إذا ما أُكتُشف امرنا: لم يبق امامنا إلا أن نقاتل في مكاننا حتى النهاية.

ولم يدخل فمنا شيء على الإطلاق طوال النهار. لقد أُخضع الماء للتقنين، وبابة صرامة! كنا نوزعه في العين الخاصة بمنظار مكبر، ولم يكن هناك مساواة تضاهي مثل هذه المساواة. وعندما هبط الليل استانفنا المسير كيما نبتعد عن هذه المنطقة حيث قضينا لتونا بضعة ايام من اشد ايام الحرب عذاباً وإيلاماً، فرائس للجوع والظما، يتنابنا الشعور بهزيمتنا، وبقرب خطر ملموس لا مفر منه يبعث فينا الشعور باننا جرذان وقعنا في مصيدة.

وبعد عناء وتلمس كبيرين انتهينا إلى العثور على السيل الشهير الذي ينصب في البحر، او على احد الفروع التي تنصب فيه. اضطجعنا على الارض وشربنا بشراهة الجياد، طوال فترة مديدة، وكنا واصلنا الشرب لولا أن معدتنا الفارغة من أي غذاء قد رفضت ان تتسع لقطرة واحدة اخرى. وملأنا اوعيتنا وتابعنا الرحلة. وعند الفجر بلغنا اعلى هضبة تكللها باقة من الاشجار. وانفصلنا في نقاط مختلفة وهمّنا ان نقاوم وأن نختبىء على افضل صورة ممكنة، وامضينا النهار بطوله نتطلع إلى الطائرات الصغيرة المجهزة بالمكبرات وهي تروح وتغدو على انخفاض

كبير فوق رؤوسنا وترسل اصواتاً غير مفهومة. وفهم الميدا وبنيتز، بطلا مونكادا، ان هذه الاصوات هي اوامر بالاستسلام. وكانت اصوات اخرى لا يمكن تحديد طبيعتها تأتينا من الغابة من وقت لآخر.

في تلك الليلة قادتنا تنقلاتنا التائهة قرب منزل تصدر منه الحان جوقة موسيقية. ودار بيننا نقاش حامي الوطيس مرة اخرى. كان رأينا الجازم، انا وراميرو والميدا، انه يجب علينا أن نتجنب تماماً الظهور في حفلة راقصة، او في مناسبات فرحة من هذا القبيل، ذلك أن الفلاحين سرعان ما ينشرون خبر وجودنا في الجوار كله حتى دون أن يكون ذلك بنيّة سيئة منهم، بل لمجرد لذة نقل الاخبار. اما بنيتز وكاميلو فكان اعتقادهما انه يجب ان نذهب إلى المنزل باي ثمن، وان نتناول طعاماً. واخيراً تقرر إرسالنا، انا وكاميلو، حتى المنزل، تتسقط الاخبار ونتدبر المؤن. واقتربنا من هدفنا حين توقفت الموسيقى على حين غرة، وسمعنا بكل وضوح صوت رجل يقول اشياء بهذا المعنى: «والآن، فلنشرب نخب جميع رفاقنا في السلاح الذين كانت مآثرهم لامعة جداً». إلخ. إلخ.... ولم نطلب شيئاً اكثر من ذلك، بل استدرنا على اعقابنا باسرع ما يمكن، واسرعنا بخطوات سريعة ننقل إلى رفاقنا حقيقة أولئك الرجال الذين يشتركون في ذلك العيد.

وتابعنا المسير، لكن الرجال كانوا يرفضون التقدم بعدما أُنهكت قواهم كلياً. وفي تلك الليلة، او ربما الليلة التالية، قرر الرفاق جميعاً، باستثناء القليلين، إنهم لا يريدون أن يذهبوا بعد الآن قدماً على الإطلاق. ولم يكن لنا بدٌّ في مثل هذه الحال من أن نطرق باب فلاح على حافة الطريق، في المكان المسمى «بويركاس غورداس» (الخنازير الكبيرة)، وكان ذلك بعد تسعة ايام من مفاجأة اليغريا دي بيو.

استقبلونا بلطف. عندئذٍ اصبح هذا الكوخ القروي مسرحاً لانواع من الشراهة العجيبة. كانت الساعات تدور وتدور ونحن نأكل ابداً؛ وأكلنا كثيراً، ومليئاً، بحيث فاجأنا النهار ونحن في ملء الوليمة الفاخرة. واصبح من المحال علينا عندئذٍ الخروج من ذلك المكان. وتوافد الفلاحون علينا طوال الصباح، يستحثهم الفضول والعطف، يتعرفون إلينا، ويعطوننا بعض الاطعمة او يحملون إلينا بعض الهدايا.

وسرعان ما تحول البيت الصغير الذي يأوينا إلى جحيم. كان الميدا

أول من أُصيب بالإسهال، وفي طرفة عين برهنت ثماني إمعاءات لا قلب لها على الجحود الاشد ظلمة، إذ راحت تسمم بشدة تلك الأرض الصغيرة المغلقة. وراح بعض الرفاق يتقياون ايضاً. بل إن بابلو هورتادو، الذي انهكته أيام المسير، والتعب، ودوار البحر، والجوع والظمأ، لم يتمكن حتى من النهوض على قدميه.

وقررنا أن نستانف المسير ليلاً. وأخبرنا الفلاحون أن فيدل لا يزال على قيد الحياة وفقاً للمعلومات التي جمعوها، واقترحوا علينا أن يقودونا إلى مكان يرجح وجوده فيه برفقة كريشنسيو بيريز، لكنهم اشترطوا لذلك شرطاً واحداً، الا وهو أن نتخلى عن بزاتنا واسلحتنا. واحتفظنا خفية، انا والميدا، بمسدسينا الرشاشين من نوع ستار، بينما بقيت البنادق الثماني وجميع الطلقات كضمانة في بيت الفلاح. وانقسمنا إلى مجموعتين، المجموعة الأولى من ثلاثة رجال، والمجموعة الثانية من اربعة رجال، لكي نقيم عند الفلاحين، ومن هناك نعقد الماسترا على مراحل متعاقبة.

وإذا كانت ذكرياتي مضبوطة، فقد كانت مجموعتنا تتالف من بانشو غونزاليث وراميرو فالديس والميدا وانا شخصياً. وكانت المجموعة الثانية تتالف من كاميلو وبنيتز وتشاو، أما بابلو هورتادو، المريض، فلم يستطع ان يغادر المنزل.

ولم نكد نغادر المنزل حتى أفشى صاحبه السر لصديق له، غير قادر على مقاومة الإغراء برواية الخبر، وكانت ذريعته ان يساله عن رايه عن أفضل طريقة من أجل إخفاء الاسلحة. ونجح هذا الصديق في إقناعه ببيع الأسلحة، فتساوما مع لص ثالث، وكان هذا اللص هو الذي وشى بنا للجيش. وهكذا لم تمض ساعات قليلة على رحيلنا عن أول بيت مضياف في كوبا حتى داهمه العدو، وساق بابلو هورتادو أسيراً واستولى على جميع الأسلحة.

كنا عند شخص يدعى ارخيلو روزابال ويعرف باسم «الراعي». وحين اطلع هذا الرفيق على النبأ المشؤوم، اتصل في الحال بفلاح آخر يعرف المنطقة جيداً، ويقال إنه يتعاطف مع الثوار. وأخرجونا من ذلك المكان في تلك الليلة بالذات كي يقودونا إلى ملجأ آخر اكثر اماناً. وكان الفلاح الذي تعرفنا إليه في هذه المناسبة يدعى غيلورمو غارسيا، وهو في

الوقت الراهن قائد جيش المقاطعة الشرقية وعضو في قيادة حزبنا الوطنية.

واستقبلونا فيما بعد في بيوت فلاحية مختلفة، عند كارلوس ماس الذي انضم إلى صفوفنا فيما بعد، وعند بيروتشيو ورفاق آخرين غابت أسماؤهم عن ذهني. وذات صباح عند الفجر، بعدما اجتزنا طريق بيلون وسرنا دون مرشد مطلقاً، وصلنا إلى مزرعة مونغو بيريت، أخ كريشنسيو، ووجدنا هناك جميع الرفاق الناجين والاحرار - في ذلك حين - من قواتنا التي نزلت على الشاطىء: فيديل كاسترو، ويونفرسو سانشيث وفوستينو بيريت وراؤول كاسترو وتشيرو رودوندو ويفغينيو اميجيراس ورونيه رودريغث وارماندو رودريغث. ولقد التحق بنا بعد أيام موران وكريسبو وجوليتو دياث وكاليكيستو موراليس وبيرموديث.

كانت مجموعتنا الصغيرة مفتقرة إلى البزات الرسمية وإلى السلاح. وفي الحقيقة اننا لم ننقذ من الكارثة شيئاً، باستثناء ذينك المسدسين، ولقد وبخنا فيديل توبيخاً عنيفاً.

ظلت كلماته محفورة في اذهاننا طوال فترة الحملة، وحتى في الوقت الراهن: «إنكم لم تدفعوا ثمن الخطيئة التي ارتكبتموها. لأن التخلي عن البنادق في مثل هذه الظروف يكلف الحياة ثمناً. إن الأمل الوحيد لكم في البقاء فيما لو اصطدمتم وجهاً لوجه بالجيش قد كان اسلحتكم، ولقد كان التخلي عنها جريمة وحماقة».

* * *

ـ ٤ ـ

معركة لا بلاتا

(١٧ كانون الثاني ١٩٥٧)

أدى هجومنا على ثكنة صغيرة قائمة على مصب نهر لا بلاتا في سييرا ماسترا إلى إحراز أول انتصارات الثورة. وقد ذاع صيت هذا الهجوم، متجاوزاً حدود الإقليم المنعزل الذي كان مسرحاً له، ومثبتاً أن الجيش الثائر ليس أسطورة، بل هو مصمم على النضال. أما نحن فقد اعتبرنا هذا النصر الجزئي تأكيداً قاطعاً لإمكانية تحقيق النصر النهائي المؤزر.

فبعد مرور أكثر من شهر على مفاجأة اليغريا دي ببيو، وفي الرابع عشر من كانون الثاني (يناير) ١٩٥٧ بالضبط، حططنا رحالنا على ضفة نهر ماغدالينا Magdalena الذي يفصله عن لا بلاتا امتداد صخري يبرز من سييرا ماسترا وينتهي في البحر بين واديين صغيرين. وتنفيذاً لأوامر فيديل باشرنا بممارسة بعض تمارين الرماية بغرض تدريب الرجال قليلاً، وكان بعضنا يرمون للمرة الأولى في حياتهم. واغتسلنا في مياه النهر بعد أن هجرنا النظافة أياماً طوالاً، وعمد المحظوظون منا إلى تغيير ثيابهم. كان عتادنا في ذلك الحين يتألف من ثلاث وعشرين قطعة فعالة ومتنوعة منها بنادق مجهزة بمنظار مقرب، وخمس بنادق عادية، ورشيشا طومبسون، ومسدسان رشاشان، وبندقية صيد من عيار ١٦.

واجتزنا بعد ظهر ذلك اليوم تلة أفضت بنا إلى أواسط لابلاتا، وسرنا

في درب ضيق داخل الغابة غير المطروقة؛ كان فلاح مجاور يدعى ميلكياديس الياس Melquiades قد ترك لنا علائمه على الاشجار بضربات من خنجره، وقد حصلنا على اسم هذا الفلاح من دليلنا ايوتيميو Eutimio.

في ذلك الحين كان ايوتيميو، هذا الذي كان في ذلك الوقت رمزاً لطبقة الفلاحين الثائرة، ثميناً جداً بالنسبة إلينا. ولكنه بعد ذلك وقع في أسر السفاح كاسيلاس Casillas. وقد آثر هذا الاخير الإبقاء على حياته، واغراه بعشرة آلاف دولار وبرتبة عسكرية في الجيش مقابل رأس فيديل. وقد اوشك الخائن أن يقترف جريمته لولا أن الجراة أعوزته. ومع ذلك فقد كان له دور خطير في إبلاغ العدو عن مواقعنا.

كان ايوتيميو في ذلك الحين ايضاً يخدمنا بإخلاص، إذ كان ينتسب إلى ذلك الجيش من الفلاحين الذين يدافعون عن اراضيهم وممتلكاتهم ضد كبار الملاك في المنطقة، وعلى من يحارب طبقة الملاك - لاتيفوندياريس Latifundiarios - أن يتصدى لمحاربة الحرس الحكومي، الخادم المطيع لتلك الطبقة.

القينا القبض اثناء مسيرة ذلك اليوم على فلاحَين اتضح انهما من اقرباء الدليل، فاخلينا سبيل أحدهما واحتفظنا بالآخر من باب الاحتياط. وفي اليوم التالي، الخامس عشر من كانون الثاني، لاحت لنا ثكنة لا بلاتا المقصودة تلتمع فيها صفائح الزنك، وتدور حولها جماعة من الرجال انصاف العراة، لكن الملابس الباقية عليهم كانت تكفي لتعرفنا أنهم من جيش العدو. واستقرّينا حيث نحن، نراقب الثكنة بتيقظ حتى دنت الساعة السادسة، واوشكت الشمس على المغيب، وإذ ذاك اقبل قارب آلي يحمل بعض الحراس الذين نزلوا إلى البر، بينما ركب القارب حراس آخرون. ونظراً لاننا لم ندرك تماماً معنى هذه التطورات، فقد قررنا تاجيل الهجوم إلى اليوم التالي.

وفي صبيحة السادس عشر من كانون الثاني، وضعت الثكنة تحت المراقبة، فتبين لنا أن حرس السواحل انسحبوا في الليل. وبدأت عملية استكشاف المنطقة فلم نعثر على اي جندي. وفي الثالثة مساءً قررنا الاقتراب من الطريق التي تبدأ من الثكنة وتمتد على طول مجرى الماء، لعلنا نصل بذلك إلى نتيجة هامة. وفي الليل اجتزنا النهر إلى الضفة

الاخرى، ولم نجد صعوبة في العبور لان النهر قليل العمق. وتمركزنا عند قارعة الطريق، ولم تمض خمس دقائق حتى اسرنا فلاحين كان لاحدهما سوابق معروفة في التجسس، وقد افادنا بمعلومات قيمة بعد ان كشفنا لهما عن حقيقتنا وما يمكن ان نفعله بهما في حالة عدم إدلائهما بما يعرفان، فعلمنا ان في الثكنة ما يقرب من خمسة عشر جندياً، وان قدوم العمدة تشيتشو اوسوريو Chicho Osorio - أحد مديري العمل الزراعي الثلاثة المشهورين في المنطقة - منتظر بين لحظة وأخرى. وهؤلاء المديرون الثلاثة هم زبانية أسرة لافيتي الإقطاعية التي تفرض نفوذها بواسطة الرعب مستعينة باشخاص على شاكلة تشيتشو اوسوريو. وظهر اوسوريو بعد قليل على ظهر بغلة وهو في حالة سكر بيّن، ومعه رجل أسود صغير يركب البغل خلفه، فتصدى له اونيفرسو سانشيز Universo Sanchez وامره بالوقوف، منتحلاً صفة الحرس القروي، فاجابه اوسوريو فوراً بكلمة السر (ناموسة).

وقد تمكنا من خداع اوسوريو بالرغم من مظهرنا المريب. ولعل درجة سكره قد ساعدتنا على خداعه، فاخبره فيديل - وهو يصطنع السخط والحنق - بانه عقيد (كولونيل) في الجيش جاء إلى الجبال ليتقصّى الاسباب التي تحول دون تصفية الثوار، وانه توغل في الجبال ولذلك أهمل حلاقة ذقنه، ثم تهجم على جيش العدو ووصف أعماله بانها قمامة. فقص عليه اوسوريو بتجاوب وإذعان كبيرين كيف أن جنود الثكنة يقتلون الوقت في الاكل دون أن يقوموا بأي عمل، وان استكشافاتهم تذهب أدراج الرياح، ولا تؤدي إلى أي فائدة، ثم أعرب بقوة عن ضرورة تصفية الثوار.

واستدرجناه ببراعة إلى الحديث عن «الأصدقاء» وعن «الأعداء» في المنطقة، وسألناه عن كل واحد من هؤلاء وأولئك، ثم قلبنا الصورة التي أعطانا راساً على عقب، فاعتبرنا من سماهم «أعداء» أصدقاء لنا، فتجمع لدينا ما يربو على العشرين اسماً.

وتابع الخائن حديثه فاخبرنا كيف «مات» رجلان في هذه المنطقة على يديه، ثم اضاف: «ولكن سيدي الجنرال باتيستا أطلق سراحي فوراً». ثم اخبرنا انه قبل قليل كال اللطمات لبعض الفلاحين «الذين ساءت اخلاقهم»، وشرح بعبارات الخاصة عجز الحرس عن القيام بمثل هذه

الأعمال، فهم يسمحون للناس أن يتحدثوا بملء حريتهم دون إنزال العقاب بهم.

وسأله فيديل عما يمكن أن يفعله «بفيديل كاسترو» فيما لو وقع هذا الأخير بين يديه، فأجابه بانه سينتزع (... بتيه) - مشيراً إلى عضوين حساسين من الجسم - وعبر عن نفس النية تجاه الرفيق كريسنتشيو Crescencio . ثم اشار إلى أحذيتنا المكسيكية قائلاً: «إن أحد أولاد.... هؤلاء الذين نتلناهم كان يلبس نفس هذه الأحذية». وهكذا، ودون أن يدري، جر على نفسه الحكم بالموت. وبإيعاز من فيديل تقدمنا اوسوريو لكي يرشدنا على طريق الثكنة بعد أن أخبره بانه - أي الكولونيل - يود مفاجأة الحرس ليحصل على البرهان بانهم غير أكفّاء، ومقصّرون في أداء واجباتهم.

واقتربنا من الثكنة يقودنا تشيتشو اوسوريو، بالرغم من أنني - شخصياً - لم أكن مطمئناً لانطلاء خدعتنا عليه. ومع ذلك فقد تابع طريقه بكل سذاجة وهدوء، فقد كان في حالة من السكر تحول بينه وبين الإدراك السليم. وعند اجتيازنا النهر مرة أخرى كي نصل إلى الثكنة، أخبره فيديل بأن التعليمات العسكرية تقضي بأن يوثق الأسير، ولكن الرجل لم يظهر أي إنكار أو مقاومة كان الأمر لا يعنيه، بل تابع سيره اسيراً حقاً من حيث لا يشعر. وأخبرنا أن الحراسة القائمة هناك تقتصر على مدخل الثكنة وبيت المدير الآخر اونوريو Honorio، ثم قادنا إلى مكان قريب من الثكنة حيث يمر الطريق المؤدي إلى ماشييو Macio، ومن هناك أرسلنا الرفيق لويس كريسبو Luis Crespo (وهو اليوم رائد في الجيش الثائر) للاستكشاف، وقد عاد فايد ما أدلى به أوسوريو إذ شاهد البناءين، وميز بينهما النقاط الحمر الملتهبة لسجائر الحرس.

وكنا نهمُّ بالانقضاض حين اضطررنا إلى الاختباء لكي لا يلاحظنا الحراس الفرسان الثلاثة الذين مروا بنا يجرون أسيراً مترجلاً كما يجر البغل. لقد مر هذا الأسير من ناحيتي، ولا زلت أذكر الكلمات التي وجهها هذا الفلاح لآسريه: «إنني رجل مثلكم»، وجاءه الجواب من أحد الفرسان - وقد علمنا فيما بعد انه عريف يدعى باصول Basol -: «اخرس وامش وإلاّ أجبرتك على المشي بلسعات السوط». لقد ظننا أن هذا الأسير قد نجا من الخطر عندما ابتعد عن الثكنة التي ستتعرض بعد

قليل لرصاصنا، ومع ذلك فقد علمنا فيما بعد انه قُتل غدراً في اليوم التالي في ماشيبو عندما ذاعت أخبار الهجوم.

استعدَدْنا للهجوم باثنين وعشرين سلاحاً جاهزاً، وقد كانت تلك اللحظة على جانب عظيم من الاهمية، لاننا لم نكن نملك إلاّ طلقات قليلة. كنا شاعرين بضرورة الاستيلاء على الثكنة باية طريقة وبسرعة كاملة، إذ ان عدم الاستيلاء عليها يعني تبديد ذخيرتنا دون جدوى وانكشافنا نهائياً امام اي هجوم معاكس. وقد انقسمنا إلى ثلاث فرق عند الهجوم، تهجم الفرقة الاولى من يمين الثكنة وهي تضم الرفاق كاميلو تشيانفويغوس، وبنيتز، وكاليكستو مورالس Calixto Morales بقيادة الملازم الاول خوليو دياز Julio Diaz الذي سقط فيما بعد بشرف في معركة الاوفيرو El Uvero . وقد تسلح هؤلاء الرفاق بالبنادق نصف الآلية. وتهجم الفرقة الثانية من الوسط وهي بقيادة فيديل وتضم بالإضافة إلى الرفاق اونيفرسو سانتشث، ولويس كريسبو، وكاليكستو غارثييا Calixto Carcia وفاخاردو Fajardo الذي أصبح اليوم رائداً، والذي يحمل نفس لقب طبيبنا بيتي فاخاردو Piti Fajardo الذي سقط في ايسكامبراي ـ أما الفرقة الثالثة فتهجم من يسار الثكنة وهي بقيادة راوول كاسترو والميدا، وتضم مجموعتيهما.

اخذنا في الاقتراب من مراكز العدو حتى أصبحنا على مبعدة أربعين متراً منها، وكان القمر بديعاً تلك الليلة، وافتتح فيديل المعركة بزختين من رشيشه تلتها طلقات البنادق. وامرنا الجنود بالاستسلام فلم يستجيبوا، فاستمرت المعركة. ولن انسى ان أشير إلى اننا نفذنا حكم الإعدام في الخائن القاتل تشيتشو اوسوريو بمجرد بدء المعركة.

بدأ الهجوم في الساعة الثانية والدقيقة الاربعين صباحاً، وقد أبدى الحرس مقاومة غير متوقعة، وكان هنالك رقيب (سارجان) يحمل سلاح M-1 ويجيب على اوامر الاستسلام بزخات قوية من الطلقات. واعطيت لنا الاوامر بقذف قنابلنا اليدوية البرازيلية، فالقى لويس كريسبو قنبلته، فتبعته والقيت قنبلة اخرى، ولكن القنبلتين لم تنفجرا، وقذف راوول كاسترو اصبع ديناميت بدون فتيل فلم يصنع شيئاً بالطبع. وكان علينا ان نقترب من الثكنة مخاطرين بحياتنا لنضرم النار في الابنية، وقد تصدى اونيفرسو سانتشث لهذه المهمة ولكنه فشل، وتلاه كاميلو

تشيانفويغوس فلم يتمكن هو الآخر من النجاح، وأخيراً تسللت أنا برفقة كريسبو إلى أحد الأبنية فأشعل هذا الرفيق فيها النار، وعلى السنة اللهيب تبين لنا أن هذا البناء لم يكن سوى مستودع لثمار الأشجار المجاورة، ومع ذلك فقد أرعبت النار الحرس فانسحبوا من المعركة مولين الأدبار، وكاد أحدهم أن يصطدم ببندقية لويس كريسبو الذي جرحه في صدره وجرده من سلاحه ثم تابع إطلاق النار باتجاه الثكنة. أما كاميلو تشيانفويغوس فقد احتمى بشجرة، وأطلق النار على الرقيب الهارب، وبذلك استنفد ذخيرته الضئيلة من الرصاص. كانت طلقاتنا تصيب الجنود بلا رحمة حتى عجزوا عن المقاومة، وتعالت صيحات الاستسلام من الثكنة، فدخل كاميلو إليها في أول من دخلوا، وانتهت المعركة.

اجرينا جرداً سريعاً لغنائمنا من المعركة فكانت: ثماني بنادق سبرينغفيلد ورشيش طومبسن وما يقرب من الف تذيفة، أما نحن فقد خسرنا ما يقرب من خمسمائة طلقة. وبالإضافة إلى ذلك غنمنا أحزمة رصاص ووقوداً وخناجر وثياباً وبعض الطعام، أما عدد القتلى والجرحى فقد بلغ في جانب العدو قتيلين وخمسة جرحى وثلاثة اسرى، وقد تمكن بعض الجنود من الفرار يصحبهم الخائن اونوريو، أما نحن فلم يكن في صفوفنا جريح واحد. وبذلنا العناية لجرحى العدو وكان ثلاثة منهم في حالة سيئة انتهت بهم إلى الموت حالاً كما علمنا بعد انتهاء الحرب الثورية، وتركنا هؤلاء الجرحى تحت رعاية الأسرى الثلاثة ثم أضرمنا النار في بيوت الجنود وانسحبنا. لقد انضم أحد هؤلاء الأسرى فيما بعد إلى وحدات راوول كاسترو وبلغ رتبة ملازم أول (ليوتنان) ولكنه مات في حادث جوي بعد انتهاء الحرب.

كان هناك على الدوام تناقض كبير بين معاملتنا للأسرى ومعاملة العدو لهم، إذ لم يكن العدو يكتفي بقتل جرحانا بل يتجاوز ذلك إلى التخلي عن جرحاه أنفسهم، وقد كان لهذا الاختلاف بمرور الزمن أثر كبير في صنع النصر النهائي لثورتنا. وانسجاماً مع هذه الروح أمر فيديل بوضع كافة التجهيزات الطبية تحت تصرف الأسرى والجرحى، وقد شعرت إزاء ذلك بألم عميق كطبيب يشعر بضرورة الاحتفاظ لقواته بمعداتها الطبية، لكنني نفذت أوامره. وبعد ذلك أطلقنا سراح جميع المدنيين، ثم انطلقنا في الرابعة والنصف من صباح اليوم السابع عشر

متجهين نحو نهر بالما موتشا. وغذذنا السير مخترقين الأماكن الأكثر عزلة من الماسترا حتى وصلنا إلى بالما موتشا عند الفجر.

وفي بالما موتشا واجهنا مشهداً مؤسفاً، فقد وجدنا أن عمدة وعريفاً من الجيش قد أخبرا الأهالي في اليوم السابق بأن الطيران سيقصف المنطقة كلها، فبدأ النزوح باتجاه الشاطىء، ولما كان وجود الجيش الثائر في منطقة بالما موتشا مجهولاً، فقد استنتجنا أن قصة القصف لم تكن إلا مسرحية حاك فصولها العمدة والحرس القروي بقصد حرمان الفلاحين من أراضيهم وممتلكاتهم، وكان علينا أن نحطم هذه المؤامرة، لكن الكذبة أصبحت حقيقة واقعة بنتيجة هجومنا، بحيث دب الرعب في قلوب الفلاحين ولم يعد في الإمكان إيقاف نزوحهم.

كانت معركة لابلاتا أولى المعارك الظافرة للجيش الثائر، كما أن هذه المعركة والتي تلتها كانتا المعركتين الوحيدتين اللتين توافر لنا فيهما من السلاح أكثر مما توافر من الرجال، فالفلاح لم يكن مستعداً بعد للانضمام إلى صفوفنا، كما أن الاتصال بالقواعد الثورية في المدن كان معدوماً عملياً.

***

ـ ٥ ـ

معركة ساقية الجحيم

(٢٢ كانون الثاني ١٩٥٧)

أرويو دل انيفييرنو Arroyo del Infierno أو ساقية الجحيم نهر ضعيف المجرى يصب في نهر بالما موتشا، وقد سرنا بمحاذاته باتجاه الجبال متسلقين التلال المحيطة به حتى وصلنا إلى فجٍّ مستدير يقوم فيه كوخان (بوهييو)، فخيَّمنا هناك دون أن نحتل الكوخين طبعاً.

قدّر فيديل أن العدو سيقتفي آثارنا حتى ينتهي بتحديد موقعنا، ولذلك قرر إعداد كمين لاصطياد بعض الجنود، ووزع الرجال وفقاً لذلك.

لم يكن فيديل يترك الخطوط دون حراسة قط، وكان يقوم بجولات مخصوصة كي يتفقد فعالية الدفاع، وفي صبيحة اليوم التاسع عشر من كانون الثاني (يناير) وبينما كنا نتفقد مواقع القوات، جرى حادث خطير كان يمكن أن تترتب عنه نتائج وخيمة: كنت قد غنمت في معركة لابلاتا خوذة عسكرية جميلة لعريف باتيستي، حملتها معي باعتزاز، واعتمرتها أثناء جولتي ذلك الصباح لتفتيش الخطوط في الغابة. وقد سمعتنا من بعيد فرقة الحراسة الأمامية لقواتنا، وعندما أرادت استقصاء حقيقتنا لم تر فينا إلاّ جماعة من المسلحين يترأسهم رجل يعتمر خوذة عريف باتيستي، ولحسن الحظ كان أفراد الحراسة منهمكين في تنظيف أسلحتهم فلم تصوب نحونا سوى بندقية كاميلو تشيانفويغوس التي رمتنا بطلقة،

وسرعان ما انتبه كاميلو إلى حقيقة الموقف وصادف أن استعصت عليه بندقيته فاعاقته عن متابعة الرمي. إن هذه الحادثة تعكس الصورة الامينة لحالة التوتر الشديد الذي اعترانا جميعاً ونحن ننتظر المعركة وكانها خلاص لنا.

ففي لحظات الانتظار هذه يشعر حتى اولو الاعصاب الفولاذية برعشات خفيفة تهز ركبهم، وتتملك الجميع لهفة إلى اللحظة الحاسمة: لحظة المعركة. وبالرغم من ان القتال لم يكن في ذاته محبباً إلى نفوسنا من قريب أو بعيد، فقد خضناه لانه السبيل الوحيد لوضع الامور في نصابها.

وفي سَحَر اليوم الثاني والعشرين من كانون الثاني، دوت بعض الطلقات المتقطعة في منطقة نهر بالما موتشا، الامر الذي حملنا على تعزيز خطوطنا ومضاعفة الانتباه انتظاراً للقاء الحافل مع قوات العدو، حيث ان القرائن القائمة كلها تشير إلى اقترابه منا. وقد كان من غير الممكن في ضوء تلك القرائن أن نتناول وجبتي الإفطار والغداء، غير اني عثرت مع ـ الفلاح ـ كريسبو على عش دجاج مليء بالبيض، فاخذنا البيض وتركنا واحدة كالعادة لتستمر الدجاجة الام في الوضع، ولكن كريسبو اصر على ان ناكل البيض كله، بحجة اننا مقبلون قريباً على المعركة، فاستجبنا لإصراره.

وعندما انتصف النهار لمحنا شبح رجل داخل الكوخ القائم في جانب معسكرنا، فظننا لاول وهلة أن أحد الرفاق انتهك الأوامر القاضية بعدم الاقتراب من مساكن الفلاحين، ولكن الأمر لم يكن كذلك، فالرجل الذي رايناه لم يكن سوى كشاف من قوات باتيستا. ولم تمض برهة حتى ظهر بعده ستة جنود آخرون لم يلبث ثلاثة منهم أن انصرفوا وبقي ثلاثة آخرون على مرأى منا. فإذا باحدهم يلتفت يمنة ويسرة مستطلعاً، ثم يقتطع بعض الاعشاب ويربطها إلى اذنيه على سبيل التمويه، ثم يجلس باطمئنان إلى ظل شجرة دون ان يشعر أن وجهه يبدو بوضوح في المنظار المقرب المحمول على بندقية فيديل. وأطلق النار، فصاح الجندي متالماً ـ وا اماه! ـ ثم سقط إلى الابد. وتتابع إطلاق النار دون انقطاع إلى أن سقط الجنديان الآخران. ولاحظت في الحال ان جندياً آخر

يحاول الاختباء في الكوخ القريب من موقعي بحيث لا يبدو منه إلاّ ساقاه، فرميته برصاصة دون أن اتمكن منه، ثم اتبعتها بأخرى أصابت الرجل في صدره فسقط وترك بندقيته منتصبة على حربتها المنغرزة في الأرض. وسرت نحو الجثة مغطى بحميني - الفلاح - كريسبو، واستوليت على البندقية والطلقات، ثم تفحصت الجثة، ووجدت أن الرصاصة اخترقت صدر الجندي ولا بدّ أنها أصابت القلب، وقد بدأت أعراض الموت تبدو على الجثة في الحال، ولعل ذلك يعود إلى الإرهاق الذي نال من الجندي في يومه الأخير ذاك.

كانت المعركة على جانب غير عادي من العنف، وحالما حقق الرفاق أغراضها، أمر بالانسحاب، كلٌ إلى موقعه. وعند الجردة تبين اننا خسرنا ما يقرب من تسعمائة طلقة استعدنا منها سبعين وجدناها في حزام طلقات كامل، فضلاً عن بندقية واحدة، وقد عادت هذه البندقية إلى الرائد - الكومندان - ايفيخينيو اميخيراس Efigenio Ameijeiras الذي خاض بها عدداً هاماً من المعارك. أما القتلى من العدو فقدرنا عددهم آنذاك بأربعة، ولكننا علمنا بعد شهور عن طريق أحد الجواسيس انهم بلغوا خمسة قتلى.

لم يكن ذلك نصراً بالمعنى الحقيقي للكلمة، ولكنه في الوقت نفسه لم يكن عديم الفائدة، فقد قسنا قوتنا بقوة العدو في ظروف جديدة تختلف عن ظروف المعارك السابقة وتمكنا من الفوز. ولقد رفعت نتيجة المعركة من معنوياتنا، وشجعتنا على المسير طيلة النهار وارتقاء الجبال من مسالك وعرة لكي نفلت من مطاردات مجموعات كبيرة من جيش العدو. وهكذا انحدرنا إلى السفح الآخر للجبل، وبذلك سرنا متوازين مع قوات العدو التي هربت هي الأخرى واجتازت القمم نفسها كي تصل إلى السفح الآخر، فأصبحنا نسير بمحاذاة بعضنا كاننا جيش واحد دون أن ندري أو يدري العدو. وفي إحدى الليالي نام الفريقان في كوخين لا يفصلهما إلاّ نهر صغير كنهر لا بلاتا. وكان الضابط الذي يقود العدو هو الملازم الاول - الليوتنان - سانتشز موسكيرا Sanchez Mosquera الذي اشتهر بصورة بائسة في الماسترا بسرقاته العديدة. ولعله من الجدير بالذكر ان الطلقات النارية التي سمعناها في الليلة السابقة للمعركة، قد أُطلقت لإعدام فلاح رفض أن يقود العدو إلى مكمننا، ولو لم

يرتكب العدو هذه الجريمة لما وجدنا على ما وجدنا عليه من الانتباه والترصد.

اصبحنا بعد المعركة مثقلين بالأحمال من جديد، إذ كان الكثيرون منا يحملون بندقيتين في وقت واحد الأمر الذي جعل تنقلنا عسيراً، غير أن حالتنا المعنوية كانت تختلف اختلافاً عظيماً عما كنا عليه عقب كارثة اليغريا دي بيو، فقبل أيام قليلة الحقنا الهزيمة بفرقة من العدو أقل منا عدداً يحتمون داخل ثكنة عسكرية، وبعد ذلك هزمنا سرية تفوقنا عدداً ولمسنا لمس اليد أهمية القضاء على طلائع العدو الكشافة، إذ ان جيشاً بدون طلائع لا يمكن ان يصنع شيئاً.

* * *

ـ ٦ ـ

هجوم جوي

(٣٠ كانون الثاني ١٩٥٧)

تابعنا مسيرنا بعد انتصارنا على قوات سانتشز موسكيرا على طول ضفاف نهر لابلاتا، ثم عبرنا الماغدالينا وعدنا إلى قطاع ماكوف لينا في كاراكاس Caracas، غير أن الجو المخيم على المنطقة الآن يختلف عن الجو الذي ألفناه في المرة الأولى عندما كنا مختبئين في هذا التل مكرمين من الاهالي، اما الآن وبعد أن زرعت جيوش كاسيلاس الرعب في المنطقة، فقد هرب الفلاحون ولم يبق من ذكراهم إلاّ الأكواخ المهجورة وبعض الحيوانات التي ذبحناها لتأمين الطعام.

لقد علمتنا التجربة[١] الاّ نبيت داخل البيوت، ولذلك قضينا الليل في بيت منفصل عن بقية البيوت، ولم ينبلج الفجر حتى صعدنا إلى الجبل، واقمنا معسكرنا عند نبع ماء قريب من قمة التل في كاراكاس.

وفي المعسكر جاءني مانويل فاخاردو Manuel Fajardo يسألني عما إذا كان ممكناً أن نخسر الحرب، وقد كان جوابنا عن مثل هذه الأسئلة واحداً في كل الحالات، وبغض النظر عن كل شيء، وهو أن انتصارنا

---

(١) كان فيديل هو الذي دفع نفقات هذه التجربة، بعد مونكادا. كان يرقد متعباً مع رفاقه في كوخ منعزل في غران بليدرا حين فاجاه الملازم الأسود ساريا الذي داهم الكوخ، هذا الهدف الطبيعي لتحرياته.

حقيقة حتمية لا تقبل النقاش. وأخبرني فاخاردو عن الدافع الذي جعله يطرح هذا السؤال فقال إن - «الغاليشي»[1] موران Gallegò Moran أكد له، أننا نتعرض للكارثة، وأن هلاكنا محقق، واقترح علي أن يهربا معاً من الفرقة. ولم أتاخر في إبلاغ ما دار بيننا إلى فيديل فوجدت أن - الغاليشي - موران نفسه قد سبقني إلى ذلك، مدعياً أنه كان يقصد من وراء كلامه عجم عود الرجال وامتحان معنوياتهم. ولاح لنا أن مثل هذا الأسلوب، أقل ما يقال فيه إنه موضع الجدال، ولذلك ألقى فيديل خطاباً قصيراً في الرجال دعاهم فيه إلى المزيد من الانضباط والنظام، وأشار إلى الأخطار التي يمكن أن تنجم فقط عن انعدام روح الانضباط بين صفوفنا، ثم أعلن أن الإعدام سيكون العقاب الرادع لثلاثة أنواع من المخالفات هي: التمرد، والفرار، والانهزامية.

لم تكن أوضاعنا في تلك الأيام سارة بأي حال، فتماسك الفرقة لم يتحقق لأنها كانت تفتقر إلى صفات التحمل التي تتكون في ملء القتال، كما تفتقر إلى الوعي الأيديولوجي الواضح. ففي كل يوم كان الرفاق يتغيبون عن المعسكر، أو يطلبون تكليفهم بالمهمات في المدينة، وهي مهمات محفوفة بالخطر الجسيم أحياناً، لكنها تسمح لهم بالإفلات من شروط حرب الثوار القاسية... ومع ذلك استمرت الحياة عادية في هذا المعسكر، وأبدى موران نشاطاً لا يعرف التعب في البحث عن الزاد، وفي ربط أواصر الصداقة مع الفلاحين المجاورين.

أشرقت علينا شمس الثلاثين من كانون الثاني ونحن على هذه الحالة، وفي ذلك اليوم طلب ايوتيميو - الخائن - إذناً لزيارة أمه المريضة ولم يتردد فيديل في إجابة طلبه، وتزويده ببعض المال ليستعين به على متطلبات السفر الذي سيستغرق بضعة أسابيع. ولم نكن نحن قد فهمنا بعد سلسلة من الوقائع التي ألقت عليها الضوء نشاطات هذا الخائن اللاحقة.

وعندما التحق بصفوفنا من جديد أعلن أنه مر بمنطقة بالما موتشا

---

(1) إن من عادة الكوبيين أن يلقبوا الأشخاص وفقاً لأحوالهم الاجتماعية او العرقية: الفلاح كريسبو، الصيني وونغ. والغاليشي موران هو من ذرية إسبانية. كذلك كان والد فيديل وراؤول غاليشياً.

فعلم هناك أن قوات الطاغية باتيستا ساعية في تعقبنا فأسرع إلينا ليخبرنا بذلك، ولكنه لم يعثر إلا على قتلى العدو عند كوخ دلفين Delfin الذي دارت المعركة في أرضه، فاقتفى آثارنا مخترقاً لاسبيرا حتى وافانا هناك. ولكن الحقيقة كانت مختلفة كل الاختلاف، فقد وقع في أسر العدو وتعرض للإغراء فأصبح أحد جواسيسه، وتلقى الوعود بالمال وبالمنصب العسكري مقابل اغتيال فيديل. ولقد غادر ايوتيميو المعسكر في العشية وفقاً لهذه الخطة.

استيقظنا في صباح الثلاثين من كانون الثاني، بعد ليلة قاسية البرد، على صوت محركات طائرات لم نستطع تحديد مكانها بسبب وجودنا داخل الأحراج، وقد كانت طليعة الاستكشاف التابعة لنا تتمركز في المطبخ عند النبع على مسافة مائتي متر من المعسكر. وبعد هنيهة سمعنا صوت انقضاض طائرة مقاتلة تلتها مباشرة زخات الرشاش، ثم دوي القنابل. لم تكن خبرتنا في ذلك الوقت واسعة، وكنا نسمع الانفجارات من كل جانب. كانت الطلقات ذات العيار ـ ٥٠ ـ تنفجر عند اصطدامها بالأرض كما كانت تهطل بغزارة على مقربة منا، مما حملنا على الاعتقاد بأنها صادرة من نفس الحرج الذي نحن فيه، وفي الوقت ذاته كانت تصل إلى أسماعنا أصوات الرشاشات من الفضاء، الأمر الذي حملنا على الاعتقاد بأننا نتعرض للهجوم من قبل قوات برية.

عُهِدَ إليَّ بمهمة انتظار الطليعة الكشافة وجمع بعض الأمتعة التي تخلينا عنها عند بدء الغارة، على أن يكون مكان التجمع بعد ذلك عند لا كويفا دل اومو La Cueva del Humo، مغارة الدخان. وقد عضدني في هذه المهمة الرفيق تشاو المتمرس في الحرب الأهلية الإسبانية. ولبثنا برهة ننتظر وصول الرفاق الذين ضيعنا آثارهم، فانصرفنا بحمولتنا الضخمة متعقبين آثار الفرقة على طول درب غير واضحة حتى نال منا التعب فجلسنا للراحة في فضاء من الغابة. ووصلت إلى أسماعنا أصوات وخشخشة تبينا أن مصدرها الرفيقان سيرخي اكيونا Sergio Acuna وغيليرمو غارسيا Guillermo Garcia ـ الذي أصبح اليوم رائداً في الجيش الثائر ـ وقد كانا عضوين في طليعة الاستكشاف وسعيا في أثر الفرقة بغية اللحاق بها. وفجأة انقطع صوت القصف وانسحبت الطائرات، فعدت إلى المعسكر برفقة غيليرمو غارسيا للاستطلاع، وهنالك

راينا منظراً مروعاً، فقد قصف المطبخ بإحكام لم يتكرر له مثيل خلال الحرب لحسن الحظ، وتفتت الموقد إلى قطع صغيرة بطلقات الرشاش، بينما انفجرت قنبلة في قلب مركز طليعة الكشافين، وبطبيعة الحال لم تجد القنبلة في المركز أياً من الرفاق. وعدنا ادراجنا فالفينا موران عائداً بمفرده - وكان قد ذهب مع احد الرفاق للاستكشاف - واخبرنا بانه شاهد خمس طائرات من بعيد، وانه لا وجود لقوة عدوة في المنطقة. وتابعنا سيرنا نحن الخمسة وسط مشاهد مؤلمة، تحيط بنا من كل جانب انقاض بيوت اصدقائنا الفلاحين التي قصفها العدو دون رحمة والتي اخلاها اصحابها، فلم نجد في احدها سوى قط يموء في وجهنا مواءً حزيناً، وخنزير خرج إلينا بمجرد أن شعر بوجودنا، لم نكن نعرف بدقة موقع لاكويفا دل اومو، ولذلك قضينا ليلتنا يتوزعنا الشك والقلق ونترقب لقاء رفاقنا ونخشى الاصطدام بالعدو.

وفي الحادي والثلاثين من كانون الثاني استقرينا في مرتفع قمة يشرف على بعض الحقول، وخرجنا عدة مرات لتحديد موقع لا كويفا دل اومو، لكن دون ان نعثر على شيء. وخيل لسيرخيو رفيقنا انه لمح شبح رجلين يعتمران طاقية لاعبي الكرة، ولكنه تباطأ في إخبارنا فلم نتمكن من اللحاق بهما. نزلنا مع غيبرلمو إلى قعر الوادي قريباً من ضفاف نهر اجي Aji بقصد الاستطلاع، فقابلنا احد أصدقاء غيبرليرمو وزودنا ببعض الطعام، اما السكان الآخرون فكانوا في رعب فظيع. واخبرنا هذا الصديق بأن الحراس صادروا بضائع التاجر ثيرو فربياس واحرقوها، كما استولوا على البغال وقتلوا السائس، ثم اضرموا النار في متجر ثيرو واسروا زوجته، وقد كانت هذه الفرقة من الحرس بأمرة كاسيلاس الذي نام قرب منزل الصديق.

بقينا في اليوم الأول من شباط في معسكرنا الصغير دون حركة - وكان في الحقيقة مكشوفاً للعيان - نرتاح من الإرهاق الذي ادركنا في اليوم السابق، وفي الحادية عشرة صباحاً سمعنا طلقات نارية في السفح الآخر من الجبل مصحوبة بصرخات استغاثة حادة. كان هذا اكثر مما يمكن أن تتحمله اعصاب سيرخيو اكونيا، فرمى بندقيته وحزام الذخيرة دون أن ينبس بحرف، ثم تخلى عن مركز الحراسة الذي عُهِدَ إليه. ودونت في سجل الحملة انه دخل حاملاً معه قبعة من القش وعلبة من

الحليب المكثف وثلاث شرائح من لحم الخنزير، وراحت أفكاري جميعاً في تلك اللحظة إلى علبة الحليب وشرائح اللحم. وبعد ساعات سمعنا ضجة فهببنا للدفاع عن مواقعنا اعتقاداً منا بان الهارب قد خاننا، ولكن القادمين لم يكونوا إلاّ رفاقنا، فقد وصل الرفيق كريسنتثيو على رأس فرقة كبيرة تضم معظم الرفاق بالإضافة إلى بعض المجندين الذين انضموا إلى صفوفنا مؤخراً في مانثانيليو تحت أمرة روبرتو بيسانت Roberto Pesant أما نحن ففقدنا من مجموعتنا الهارب سيرخيو اكونيا، والرفاق كاليكستو مورالس وكاليكستر غارسيا ومانويل اكونيا، بالإضافة إلى مجند جديد التحق بنا حديثاً وفقدناه أثناء تبادل إطلاق النار في اليوم الاول من شباط.

وهبطنا من جديد إلى وادي اجي، وفي الطريق وزعت بعض التجهيزات التي احضرها المجندون الجدد من مانثانيليو، ومن بين هذه التجهيزات معدات جراحية وبعض الالبسة، وقد كان تأثرنا بالغاً لدى رؤية قطعة لباس طرزت حواشيها صبايا مانثانيليو.

وفي غداة الثاني من شباط، وبعد مرور شهرين على نزولنا في البر الكوبي، اصبح جيشنا كلاً موحداً ومتجانساً، وانضم إلينا عشرة رجال آخرون من أهالي مانثانيليو، فشعرنا بقوتنا، وارتفعت معنوياتنا ارتفاعاً عظيماً لم نعرفه من قبل.

دخلنا في مناقشات لا تنتهي سعياً لمعرفة المفاجأة والغارة الجوية، فأجمعنا على أن الدخان المتصاعد من مدخنة المطبخ قد اجتذب الطائرات إلينا، ولم تُمحَ هذه الحادثة من أذهاننا طيلة الحرب، فلم ننصب المداخن في الهواء الطلق وأثناء النهار في أية لحظة من لحظات الحرب، خشية من النتائج المفجعة لذلك، ولم يتبادر إلى أذهاننا قط أن الخائن ايوتيميو غيرا كان وراء تلك الغارة، وأنه تستر بحجة زيارة أمه المريضة ليخبر السفاح كاسيلاس عن موقعنا. ولكن هذا هو الواقع، وبالرغم من ذلك فقد استطاع ايوتيميو أن يستمر إلى حين في القيام بدور سلبي كبير ضد تطور حربنا التحريرية.

* * *

ـ ٧ ـ

مفاجأة في مرتفعات اسبينوسا

(٩ شباط ١٩٥٧)

بعد المفاجأة الجوية التي رويت أخبارها آنفاً تركنا هضبة كاراكاس، وعدنا ادراجنا إلى الأماكن المعروفة لدينا حيث نستطيع ان نتصل بمانثانيليو مباشرة، ونحصل من الخارج على معونة اكبر، ونشكل فكرة افضل عن أحوال بقية البلاد. وبعد ان عبرنا نهر آجي تابعنا مسيرنا في اراضي معروفة لدينا حتى وصلنا إلى دار الشيخ مندوزا . Mendoza وكان علينا ان نشق طريقنا بواسطة الفؤوس في الغابات التي لم يدخلها بشر منذ عهد بعيد، مما جعل تقدمنا بطيئاً جداً. وقضينا الليل فوق أحد تلك المرتفعات نعاني الأمرّين من الجوع. ولا زلت اذكر ـ كما اذكر افخم ولائم العمر ـ اللحظة التي قدم لنا فيها الفلاح كريسبو إناءً يحوي اربع سجقات استطاع ان يوفرها من الايام السابقة، قائلاً إنه يهديها للرفاق. وقد تلذذنا ـ انا والفلاح وفيديل ورفيق آخر ـ بهذه الوجبة الهزيلة، كما لو كانت وليمة دسمة.

وانتهى المطاف في بيت العجوز مندوزا القائم في ديريتشا دي كاراكاس، وقدم إلينا صاحب البيت بعض الطعام. وبالرغم من خوفه الشديد، فقد تعود على استضافتنا في بيته كلما مررنا به مستجيباً لروابط صداقته مع كريسنثيو بيريز، ومع غيره من الفلاحين الموجودين في الفرقة.

لقد كانت المسيرة شاقة علي، إذ أصابتني نوبة ملاريا، ولولا ان ـ الفلاح ـ كريسبو والرفيق العزيز خوليو اكوستا زينون Julio Acosta Zenon قدما لي من العون الشيء الكثير، لما استطعت اجتياز تلك الحقبة الشاقة من ايام مرضي. وعندما كنا نصل إلى مثل هذه المواقع لم يكن من الممكن ان ننام داخل البيوت، غير أن حالتي الصحية وحالة «الغاليشي» موران ـ الذي كان دائماً عرضة للمرض ـ جعلت من اللازم علينا ان ننام تحت السقف، بينما انصرفت الفرقة إلى حراسة المنطقة من غير ان تدخل إلى البيت في غير وقت الأكل.

كان لزاماً علينا أن نطهر الفرقة من ذوي المعنويات المنحطة ومن الجرحى الخطرين، وفي عدادهم وزير الداخلية الحالي راميرو فلديس، وايغناسيو بيريز Ignacio Pérez احد ابناء كريسنثيو وقد سقط بعد ذلك في ميدان الشرف وهو برتبة نقيب ـ كابتن ـ أما راميرو فكان مصاباً إصابة بليغة في ركبته، هذه الركبة نفسها التي لم تشفَ قط من الجراح التي أصيب بها في مونكادا[1] Moncada. كان لا بد لنا ان ننفصل عن راميرو إذاً. وترك الفرقة إضافة إلى ذلك بعض الشبان المستجدين، فكان انسحابهم كسباً عظيماً لها، ولن انسى شاباً تعرض لنوبة عصبية، فاخذ يصيح في قلب المعركة، بانه كان يظن انه أرسل إلى معسكر تكثر فيه المؤونة ويتوافر فيه السلاح المضاد للطائرات، ولكنه عوضاً عن ذلك وجد نفسه مطارداً من الطائرات لا يكاد يستقر في مكان حتى يبرحه إلى غيره، ولا يجد الطعام الضروري ولا حتى جرعة ماء يشربها. لقد كان يعبر على أية حال عن مشاعر المناضلين في الايام الأولى من حياة الحرب، غير ان الذين صمدوا لهذا الامتحان، سرعان ما تعودوا على الوساخة، وندرة الماء والزاد والملجأ، وانعدام الامن والطمأنينة، كما تعودوا على الا يثقوا إلا بسلاحهم، ملتمسين العزاء لانفسهم في تماسك ومقدرة هذه النواة الغوارية الصغيرة.

جاءنا ثيرو فريياس، بصحبة جماعة انضمت إلينا، حاملاً مجموعة من الأخبار التي تضحكنا حين نتذكرها في هذه الايام، ولكن سماعها في

---

(١) وقع الهجوم على ثكنة مونكادا بقيادة كاسترو في ٢٦ تموز ١٩٥٣. وقد أسر فيدل في هذا الهجوم الذي يعتبر حدثاً هاماً مهد للثورة.

تلك الفترة أثار فينا مشاعر متضاربة مختلطة، وتفيد هذه الاخبار ان دبياز تمايو Diaz Tamayo يوشك على الانقلاب ضدنا والوثوب علينا لإفنائنا، وأن فاوستينو بيريز قد تمكن من جمع الآلاف المؤلفة من البيسو[1]، وأخيراً أن التخريب قد عمَّ البلاد وأن الحكومة على قاب قوسين أو أدنى من الانهيار. وبالإضافة إلى ذلك، حُمِلَ إلينا خبرٌ سيء، ولكنه مليء بالعبرة، ان سيرجيو اكونيا الهارب من المعركة قبل أيام قد قصد بيت أحد اقاربه، واخذ يقص على بنات عمه بطولاته في الحرب فسمعه رجل يدعى بدرو هيريرا Padro Herrera وابلغ عنه الحرس فقبضوا عليه وتعرض لعذاب فظيع على يد العريف الشهير روسيليو Rosello ـ الذي نال جزاءه العادل فيما بعد على يد أبناء الشعب ـ وقد بلغ الامر بهذا العريف ان أطلق عليه أربع رصاصات، ويقال إنه شنقه بعدئذٍ. إن هذه القصة البائسة قد بينت للفرقة أهمية التماسك والالتحام وعدم جدوى أية محاولة نردية للهرب من المصير المشترك، ولكنها في الوقت ذاته اقنعتنا بضرورة الانتقال من مكاننا، فلا يستبعد أن يكون سيرخيو ـ تحت وطأة العذاب الذي تعرض له قبل قتله ـ قد باح للحرس بما يعرفه، سيما وأنه يعرف فلورينتينو Florentino الذي نقيم فيه.

ووقع في تلك الاثناء حادث عجيب فتح عيوننا أخيراً، بعد جمعه إلى عدد من القرائن الاخرى. ذلك ان ايوتيميو غيرا كان قد ادعى قبل ذلك انه راى فيما يرى النائم ان سيرخيو اكونيا قتل، والاكثر من ذلك انه حدد أن قتله تم على يد العريف روسيليو، وقد أثار ذلك مناقشات فلسفية طويلة في موضوع معرفة ما إذا كان التنبؤ بالاحداث بواسطة الاحلام ممكناً أم لا. وبصفتي المكلف بالمحاضرات الثقافية والسياسية اليومية، فقد شرحت للرفاق أن ذلك مستحيل، وأنه إن حدث فلا يعدو أن يكون صدفة نادرة، واننا جميعاً كنا نتوقع مثل هذه النهاية لسيرجيو اكونيا، وأن روسيليو مشهور بالجرائم الوحشية التي يرتكبها في طول البلاد وعرضها، إلخ.

غير أن اونيفرسو سانشث بعث القلق في نفوسنا ونبهنا إلى ضرورة

---

(١) el Peso وحدة العملة الكوبية.

اليقظة والحذر عندما اعرب عن اعتقاده بان ايوتيميو ليس اكثر من دجال، وانه لا بد أن يكون قد سمع الخبر من بعض الناس ما دام قد غادر المعسكر في اليوم السابق، ثم عاد حاملاً معه خمسين علبة من الحليب ومصباحاً عسكرياً.

كان خوليو تينون اكوستا المشار إليه سابقاً ـ وهو الفلاح الأمّي البالغ الخامسة والاربعين من العمر ـ اشد المتحمسين لنظرية انتقال الافكار، ولا بد لي من الحديث عن هذا الرجل الرائع، فقد كان أول تلميذ لي في لاسييرا، وكنت ابذل مجهودات صادقة لتعليمه الكتابة والقراءة كلما عسكرنا في مكان ما، وكنت انتهز كل فرصة ممكنة لاعلمه الابجدية. وقد اقبل خوليو ثينون على التعلم بقريحة فذة، مولياً ظهره للاعوام التي مرت من حياته، ومتطلعاً دائماً إلى المستقبل المشرق. ولعل الدرس الذي يمثله هذا الرجل جدير بأن يكون هذه السنة مثالاً للكثيرين من الفلاحين من رفاقه في تلك المنطقة زمن الحرب ولاولئك الذين يعرفون قصته. قدم خوليو ثينون اكوستا في ذلك الحين، خدمات جل: كان الرجل الذي لا يعرف الكلل، والمطّلع الوحيد على المنطقة التي نعسكر فيها، كان الرفيق الذي يواسي رفاقه وقت الشدة، ويبذل العون للرفاق المدنيين الذين لم يصلب عودهم بعد، بصورة كافية، كي يتخلصوا من المآزق وكان هو الذي يجلب الماء من النبع البعيد، والذي يوقد النار بسرعة بالغة، والذي يعرف الأماكن الصالحة لإضرام النار في الأيام الماطرة. وبكلمة واحدة كان خوليو ثينون اكوستا الرجل ـ المجموعة في ذلك الحين.

في إحدى الليالي الأخيرة التي سبقت اكتشافنا خيانته، شكا ايوتيميو غيرا من افتقاره إلى الغطاء وطلب من فيديل أن يعيره غطاء من عنده. كان الطقس بارداً في قمة الجبال في شهر شباط، فاجابه فيديل أن كليهما سيعانيان البرد إذاً بهذه الطريقة، واقترح على ايوتيميو ان يناما معاً، ملتحفين بالاغطية نفسها، الأمر الذي يقيهما غائلة البرد بصورة أفضل وهكذا كان الأمر، فقضى ايوتيميو ليلته بجانب فيديل متمنطقاً بالمسدس من عيار ٤٥ الذي زوده به كلاسيلاس لاغتيال فيديل، وحاملاً قنبلتين يدويتين ليغطي بهما انسحابه بعد تنفيذ جريمته. كنت واونيفرسو سانتشيت لا نفارق فيديل ابداً لحمايته، فراح ايوتيميو يطرح علينا

الأسئلة بشأن نوبات الحراسة قائلاً: «إنني مهتم بأمر الحراسة، فلا بد من اتخاذ الاحتياطات المشددة». فأخبرناه بأن هنالك ثلاثة رجال في حراسته. أما نحن، بطلا غرانما وموضع ثقة فيديل، فإننا نسهر طوال الليل لحمايته بصورة شخصية. وهكذا قضى ايوتيميو الليل بطوله بجوار قائد الثورة، وحياة هذا الأخير عند فوهة مسدس، مترقباً الفرصة السانحة للقضاء عليه. لكنه لم يستطع أن يحزم أمره. إن قسماً عظيماً من الثورة الكوبية قد كان متعلقاً طوال الليل بالتناقضات الفكرية لهذا الخائن، بالصراع الجاري بين شجاعته وخوفه ورعبه، وربما تبكيت ضميره، وأحلامه عن القوة والثروة. ولحسن حظنا انتصرت العوامل الناهية في نفس الخائن فأحجم عن تنفيذ جريمته تلك الليلة، وجاء الصباح دون أن يصاب فيديل بمكروه.

تركنا منزل فلورنتينو وعسكرنا في مجرى جدول جاف، ومن هناك ذهب تيروفرياس إلى بيته الذي لم يكن يبعد عنا كثيراً، وجلب لنا بعض الدجاج والطعام، وبذلك استطعنا أن نعوض عن ليلتنا الماطرة الطويلة التي تحملناها دون معاطف واقية بصحن ساخن من الحساء وبعض الطعام. وأخبرونا أن ايوتيميو قد مر من هناك هو الآخر، إذ كان لا يزال في ذلك الوقت محط ثقتنا، فكانت له حرية دخول المعسكر والخروج منه متى شاء. وقد صادفنا في بيت فلورنتينو فأخبرنا بأنه بعد أن زار أمه المريضة شاهد بأم عينه كل ما حدث في كاراكاس، ثم اقتفى آثارنا ليتبين بقية الأحداث، ولم ينس أن يطمئننا عن صحة أمه. كان ايوتيميو مع كل ذاك جسوراً لا يتمالك نفسه عن إبداء وقاحته في قالب بارع: فقد كنا في تلك الأثناء في وسط مرتفعات التوس دي اسبينوسا Altos de Espinosa على مقربة من سلسلة جبال تتعرض دائماً لقصف طائرات العدو، ومن هذه الجبال لومون Lomon ولوما دل بورو Loma Del Burro ـ هضبة الحمار ـ وكاراكاس، إلخ. وكان ايوتيميو يقول على سبيل المثال: «انذركم بأنهم سيقصفون اليوم لوما دل بورو»، وفعلاً تقصف الطائرات هذه الهضبة، فيأخذ ايوتيميو يرقص مغتبطاً لأن نبوءته صدقت.

في التاسع من شباط ١٩٥٧ انطلق ثيرو فرياس ولويس كريسبو كعادتهما بحثاً عن المؤونة، واستمر الهدوء في كل المنطقة حتى العاشرة

صباحاً عندما تمكن فلاح انضم إلى الفرقة حديثاً يدعى اميليو لوبراندا Emilio Lobranda من القبض على شخص عثر عليه متلصصاً في جوار المعسكر. وقد تبين ان الاسير يمت بقرابة إلى الرفيق كريستنثيو، المستخدم في احد مخازن سيستينو حيث تعسكر فرقة كاسيلاس، فاخبرنا بان كاسيلاس موجود في احد البيوت القريبة على راس ١٤٠ جندياً، وان باستطاعتنا رؤيتهم من مكاننا على احد المرتفعات الجرداء، في المنتاى، كما اخبرنا الاسير بانه قابل ايوتيميو، وان هذا الاخير افاده بان المنطقة ستقصف في الغداة. وفعلاً فقد بدات قوات كاسيلاس تتحرك دون ان نتمكن قط من ان نعرف وجهتها بالضبط. وبدات الشكوك تساور فيديل: إن سلوك ايوتيميو العجيب قد نبه فكرنا الناقد اخيراً فبادرنا باتخاذ ما يلزم لتفادي مفاجآت اخرى. واصدر فيديل امراً بالانسحاب، فتحركنا نحو قمة الهضبة حيث انتظرنا رفاقنا الذين ذهبوا للاستطلاع. ولم تمض برهة حتى اقبل ثيرو فريياس ولويس كريسبو: إنهما يلاحظان شيئاً غير عادي. وبينما نحن مستغرقون في مناقشتهما لمح ثيرو ريدوندو Ciro Redondo شبحاً يتحرك، فاشار إلينا ان نصمت، ولقم بندقيته، وفي اللحظة نفسها انطلق عيار ناري، وجاءت رُشاشةٌ في اعقابه وفي مثل لمح البصر، امتلات الاجواء بالرشقات والانفجارات. كان الاعداء يركزون هجومهم على المكان الذي كنا معسكرين فيه قبل فترة قصيرة. واصبح المعسكر خالياً في مثل لمح البصر ايضاً. وعلمت بعد ذلك بكل اسف ان الرفيق خوليو ثينون اكوستا قد ظل في قمة الجبل إلى الابد. إن الفلاح الجاهل، الفلاح الامي، الذي ادرك المسؤوليات الجسام التي ستتحملها الثورة بعد النصر العسكري، والذي اخذ يعد نفسه لتلك المسؤوليات ابتداءً من الحروف الابجدية، لم يستطع إنهاء مهمته العظيمة. اما بقية الرفاق فقد تسللوا خارج منطقة القتال وتبعثروا في كل الانحاء. واما حقيبتي الشهيرة، التي كنت فخوراً بها ايما فخار، المحشوة بالادوية والطعام والكتب والاغطية، فقد بقيت في مكانها، وكل ما نجحت في إنقاذه هو معطف من جيش باتيستا كنت قد غنمته في معركة لا بلاتا، وقد اطلقت ساقي للريح حاملاً هذا المعطف.

انضممت بعد قليل إلى مجموعة تتالف من الرفاق الميدا وخوليو

دياتي واونيفرسو سانتشث وكاميلو تشيانفويغوس وغييرمو غارثيا وثيرو فرياس وموتولا وبيسانت Pesant وأميليو لابرانداو جاجو Yayo. ومشينا عبر طريق منحرف، جادين في الابتعاد عن الرصاص من غير أن نعرف مصير بقية الرفاق. وكنا نسمع طلقات نارية منعزلة إلى الخلف منا، وكان من السهل متابعة آثارنا التي لم نستطع محوها بسبب سرعتنا القصوى. وفي الخامسة والربع مساءً وصلنا إلى حيث تنتهي الغابات. وبعد شيء من الأخذ والرد قررنا انتظار الليل حيث نحن، إذ أن من شأن التنقل في ضوء النهار أن يكشفنا أمام العدو، أما إذا تعقبونا فإننا في مركز يسمح لنا بالدفاع عن انفسنا. ومع ذلك لم يتعقبنا أحد، فتابعنا طريقنا مستدلين بمعرفة ثيرو فرياس الضئيلة للإقليم. واقترح بعض الرفاق أن ننقسم إلى فريقين حتى نسرع في السير وحتى نقلل ما امكن من الآثار التي تتركها خطواتنا على الطريق، ولكنني والميدا اعترضنا على ذلك، مفضلين الاحتفاظ بمجموعتنا متكتلة وقوية. ووصلنا إلى مكان يعرف باسم ليمونس Limones، وهنالك اختلفنا حول الجهة التي يجب أن نقصدها، فبينما ارتأى بعض الرفاق أنه يجب الابتعاد عن المنطقة كلياً، أمرنا الميدا بحكم رتبته كنقيب بالاتجاه إلى جبل لومون الذي سبق أن اختاره فيديل كمكان للتجمع بعد انتهاء المعركة. واعترض بعض الرفاق محتجين بأن ايوتيميو يعرف ذلك المكان جيداً. ويحتمل أن يكون الجيش هناك، إذ تأكد لنا أن ايوتيميو هو مصدر الخيانة، ولكن الميدا أصر على التقيد بأوامر فيديل.

وبقينا منفصلين عن بقية الرفاق طيلة ثلاثة أيام، إلى أن تم الالتقاء بفيديل في الثاني عشر من شباط قرب جبل لومون عند مكان يعرف باسم ديريتشا دي لا كاريداد Derecha de la Caridad. وهناك تأكدنا من خيانة ايوتيميو غيرا، ثم استعرضنا تاريخ هذه الخيانة، فوجدنا أنها تبدأ عندما اعتقل كاسيلاس، واغراه ببعض المال لاغتيال فيديل، واكتشفنا أنه هو الذي أبلغ عن مواقعنا في كاراكاس، وأنه المدبر الأول للهجوم على لوما دل بورو الذي كان مقدراً أن نعسكر فيه لولا أننا غيرنا رأينا في آخر لحظة، كما وجدنا أنه كان وراء الهجوم المركز على ملجأنا في كانيون دل ارويو Canon del Arroyo، ذلك الهجوم الذي نجونا منه بأعجوبة بفضل الانسحاب الذي أمر به فيديل في الوقت

المناسب، بحيث لم نخسر إلاً قتيلاً واحداً.

وتذاكرنا في معركتنا الأخيرة فتأكد لنا وفاة الرفيق خوليو اكوستا، كما تبين لنا ان الحراس خسروا قتيلاً واحداً على الاقل وبعض الجرحى. وعليّ ان اعترف بان بندقيتي لا تتحمل تبعة أي من القتلى أو الجرحى، فدوري في هذه المعركة لم يكن اكثر من «انسحاب استراتيجي» باقصى السرعة. وها نحن قد تجمعنا الآن، ولم يكن ينقص مجموعتنا الصغيرة سوى لابراندا الذي تاه عنا في اليوم السابق. اما المجموعة الاخرى فكانت تضم الرفاق راوول الميخراس وثيرو ريدوندو، ومانويل فاخاردو و«الغاليشي» موران وايتشيفاريا Echavarria وفيديل. وقد بلغ مجموعنا ١٨ رجلاً. ذلك كان الجيش الثوري الموحد من جديد للثاني عشر من شباط ١٩٥٧ وانفصل عن الفرق بعض الرفاق، منهم بعض المستجدين، ومن بينهم ارماندو رودريغيز Aramando Rodriguez احد قدماء غرانما الذي اصطحب رشيش طومبسن. وقد كان وجه هذا الرفيق، في الايام الاخيرة، يتعرض لتغيرات خاصة كلما حاصرنا العدو أو سُمِعَت طلقاته فيعكس مشاعر الرعب والالم. ولذلك اطلقنا عليه اسم «وجه التطويق»، واصبحنا كلما بدت على وجه احد الرفاق سمات الرعب والفزع الخاصة بحيوان مطارد يفترسه الرعب الذي قولب وجه رفيقنا، فقد كان في مقدورنا ان نتوقع في الحال بعض المفاجآت المفزعة. إن «وجه التطويق» لا يتفق مع حياة الانصار.

ولقد نجح «وجه التطويق» في استعمال «السرعة الثالثة»، كما اصطلحنا على تسمية الهرب في لغتنا الانصارية الجديدة. وقد عثرنا على رشيشه عند احد الفلاحين، بعد زمن طويل، وفي مكان بعيد جداً (إن ساقيه لم تخوناه....).

* * *

ـ ٨ ـ
نهاية خائن

بعد أن تجمع الجيش الصغير، قررنا مغادرة منطقة لومون والتوجُّه إلى أماكن أخرى جديدة، فرحلنا وعملنا على الاتصال بالفلاحين وتقوية القواعد اللازمة لاستمرار وجودنا. وفي الوقت ذاته، أخذنا في الابتعاد عن سييرا ماسترا، متجهين إلى السهول حيث يمكننا الاتصال بالقائمين على التنظيمات داخل المدن.

واجتزنا قرية تدعى لامونتيريا Monteria، ثم عسكرنا في منطقة مشجرة على مقربة من جدول ضمن مزرعة يملكها السيد ايبيفانيو دياز Epifanio Diaz الذي انضم أولاده إلى الجيش الثائر.

لقد اقتربنا من السهل لنوثق الاتصال مع «حركة ٢٦ تموز» في المدينة، إذ أن حياتنا القائمة على الارتحال والاختفاء لم تمكنا من تحقيق الاتصال بين شقي الحركة (اللذين كانا يشكلان في الحقيقة فريقين متميزين. ولم تكن الانقسامات العميقة التي كادت تعرض بعد عدة أشهر وحدة الحركة للخطر قد انفجرت بعد. لكنه كان من الواضح منذ ذلك الحين أن المفاهيم مختلفة تمام الاختلاف).

في تلك المزرعة قابلنا أبرز وجوه الحركة في المدينة، ومن بين هؤلاء ثلاث سيدات أصبحن اليوم ذائعات الصيت في البلاد، وهن فيلما اسبين Vilma Espin الرئيسة الحالية للاتحاد النسائي وزوجة راوول، وهايدي

سانتا ماريا[1] رئيسة دار الاميركيتين وزوجة ارماندو هارت Armando Hart وثيليا سانشيز Celia Sanchez الرفيقة التي نكن لها جميعاً انبل العواطف، والتي وقفت بجانبنا في كل لحظات الكفاح المسلح، ثم انضمت إلى الانصار نهائياً حتى لا تغادرنا بعدئذٍ مطلقاً. كما قابلنا وجهاً عزيزاً قديماً هو فاوستينو بيريز رفيق «غرانما» الذي كان يذهب في مهمات عديدة إلى المدن ثم يعود إلينا بالنتائج ليتابع من بعد مهمته في المدينة (وقد وقع في الأسر فيما بعد).

وبالإضافة إلى ذلك تعرفنا إلى ارماندو هارت. وقد كان من حظي أن اتصل بمنظم سانتياغو Santiago العظيم فرانك بايس Frank Pais، وكانت المرة الاولى والاخيرة التي التقيه فيها.

كان فرانك بايس من أولئك الرجال الذين يفرضون عليك احترامهم منذ الكلمات الاولى، وقد كانت ملامحه في ذلك الحين كما هي في صوره الحالية تقريباً، غير ان عينيه كانتا تتمتعان بعمق أخّاذ. إنه لمن الصعوبة بمكان ان يتحدث الإنسان عن رجل ميت لم يحظ بمقابلته أكثر من مرة، وقد اصبحت سيرته ملكية للشعب بعد الآن. وكل ما أستطيع قوله الآن هو ان عيني الرجل كانتا تشيران في الحال إلى أنه إنسان تملك القضية عليه حياته، فهو مخلص لها بكل جوارحه، وانه كائن من طينة سامية. إن الشعب يسميه «فرانك بايس الخالد»، وهو خالد في رأيي، أنا الذي لم أره إلاّ مرة واحدة. إنه واحد من العديد من الرفاق الذين قضوا في زهرة الشباب، والذين كانوا ينذرون اليوم حياتهم للبناء الجماعي للثورة الاشتراكية لو لم يستشهدوا.

أجل، إن هؤلاء الشهداء هم ايضاً الثمن الذي دفعه الشعب من أجل الحصول على حريته.

لقد لقننا درساً صامتاً في النظام والانضباط، عندما نظف أسلحتنا المتسخة، وأحصى الذخيرة ورتبها كي لا تضيع. وقد قررت منذ ذلك

---

(١) كانت هايدي سانتا ماريا وميليا هيرنانديث المرأتين الوحيدتين اللتين اشتركتا في مونكادا. وهايدي هي شقيقة هابيل سانتا ماريا، مساعد فيديل في ذلك الحين، وقد عذب واغتيل من قبل الجيش الباتيستي في مونكادا، كما أنها شقيقة ألدو سانتا ماريا الذي صعد إلى السييرا عام ١٩٥٨.

اليوم أن أحرص على العناية بسلاحي، وقد وفيت بعهدي، على الرغم من انني لا استطيع الادعاء بأني مثال في الدقة والنظافة.

كان مكاننا الجديد مسرحاً لاحداث من نوع مختلف تماماً. فلاول مرة في حياة الثورة زارنا احد رجال الصحافة، وكان اجنبياً يدعى ماتيوس Matthews[1]، ولم يحضر معه سوى آلة تصوير صغيرة التقط بها بعض الصور ثم نشرها فيما بعد على نطاق واسع، فاثار احتجاجات غبية من أحد وزراء باتيستا. وكان القائم بأعمال الترجمة في ذلك الوقت جافيير باثوس Javier Pazs الذي انضم إلى الجيش الثائر بعد ذلك، وبقي في صفوفه بعض الوقت. لم اتمكن من حضور هذه المقابلة، ولكن فيديل اخبرني بان اسئلة الصحافي كانت واقعية وبعيدة عن الطيش، وانه تقدم بوصفه صديقاً للثورة. ومن بين هذه الأسئلة سؤال إلى فيديل عما إذا كان مناهضاً للامبريالية، وعن موقفه من تزويد باتيستا بالأسلحة. وقد اكد فيديل في جوابه أن تسليح باتيستا لا يبرره الدفاع القاري بقدر ما تبرره الرغبة في الضغط على الشعب الكوبي.

كانت زيارة الصحافي ماتيوس خاطفة، فسرعان ما خلونا لانفسنا واستعدينا للرحيل، ولكن معلومات وصلتنا توصينا بمضاعفة الحراسة، لان ايوتيميو شوهد على مقربة من مكاننا. وقد اوفدنا الميدا لاعتقال الخائن فور وصول هذه المعلومات، بينما بقي الجميع حيث هم. وكانت دورية الميدا تضم خوليو دياث وثيرو فريياس وكاميلو تشيانفويغوس وافيخينيو اميخيراس. وكلف ثيرو فرياس بضبط الخائن الذي لم يبد مقاومة على اية حال. وحين مثل بين ايدينا وفتشناه وجدنا معه مسدساً من عيار ٤٥ وثلاث قنابل يدوية وجواز مرور من كاسيلاس. ولما تأكد له أنه انكشف، وعليه دلائل الإثبات هذه فضلاً عن ذلك، ولم يخامره شك فيما ينتظره، ركع أمام فيديل وطلب منه بكل بساطة أن يقتل لأنه يستحق الموت. وكان يبدو في هذه اللحظة وكان العمر قد تقدم به سنين، وكان صدغاه قد ابيضا، وهو ما لم يلاحظه أحد من قبل. وساد

---

(١) صحافي من أميركا الشمالية، وقد أعجب حقاً بالانصار الكوبيين، وبفيديل كاسترو الذي ارتبط باواصر الصداقة معه. وقد نشر مجموعة من المقالات فيما بعد عن فيديل كاسترو في سييرا ماسترا.

جو رهيب من التوتر. وادانه فيديل بالخيانة بقسوة شديدة، فكان كل ما طلبه ايوتيميو هو الموت، معترفاً بجريرته. لقد كانت رهيبة اللحظة التي تصدى له فيها إشبينه ثيرو فيرياس وخاطبه مذكراً إياه بفضله عليه وبالخدمات التي قدمها هو وشقيقه لعائلة ايوتيميو، وكيف خان - أولاً مما أدى إلى مقتل شقيق ثيرو (الذي وشى به ايوتيميو قبل أيام وقتله الحرس)، ثم في محاولة القضاء على جيش الثوار بأسره. وقد استمر ثيرو في حديثه المؤثر، بينما كان ايوتيميو ينصت إليه وهو مطاطىء الراس. وسئل أخيراً إذا كان يرغب في شيء، فأجاب أن بلى، وأنه يطلب من الثورة، أو بالأحرى منا جميعاً، أن نعنى بأبنائه.

ولقد فعلت الثورة ذلك. ولم يعد لاسم ايوتيميو غيرا من أهمية اليوم سوى كونه موضوعاً لهذه السطور، ولكنه أمحى من ذاكرة الشعب، ولعل اولاده أنفسهم قد نسوه وحملوا اسماً جديداً يذهبون تحته إلى المدارس حيث يحظون بنفس المعاملة التي يجدها غيرهم ويعدون إعداداً حقيقياً لحياة أفضل. ولكنهم لا بد أن يعرفوا يوماً كيف اقتصت الثورة من أبيهم بسبب خيانته. وإنصافاً لذكرى أبيهم يجب أن يعلموا أنه بعد أن انحرف عن جادة الصواب، واقترف جريمة الخيانة مدفوعاً بإغراء النفوذ والمال، لم يعترف فقط بذنبه ولم يطلب لنفسه شيئاً لا يستحقه، بل تذكر أولاده في آخر لحظات حياته، وطلب أن تبذل لهم العناية من طرف قائدنا نفسه.

وفي تلك اللحظات هبت عاصفة شديدة، فأظلمت الدنيا وملأ الأفق لمعان البرق وهزيم الرعد. ومع دوي الرعد انتهت حياة ايوتيميو غيرا، دون أن يسمع أحد من الرفاق الطلق الناري الذي أودى بحياته. ودفناه في اليوم التالي في نفس المكان. وقد أراد مانويل فاخاردو أن يضع صليباً على قبره، ولكنني عارضته خشية أن يتسبب ذلك في إيذاء أصحاب المزرعة. ولذلك اكتفينا بحفر صليب صغير على جذع شجرة قريبة. وقد بقي ذلك الصليب العلامة الوحيدة لمدفن ذلك الخائن.

وغادرنا «الغاليشي» موران في تلك الايام بعد أن أدرك مقدار احتقارنا له. وقد كنا نعتبره على أية حال هارباً بالقوة، بالنظر إلى سوابقه، إذ سبق له أن اختفى مرة يومين أو ثلاثة ثم عاد وادعى انه كان يتعقب خطوات ايوتيميو، ولكنه تاه في الغابات.

وأصبحنا على أهبة المسير عندما سمعنا صوت طلق ناري، ولما تتبعنا مصدره وجدنا موران مصاباً برصاصة في إحدى ساقيه. وقد قام بين الرفاق نقاش حاد حول إصابة موران، فذهب بعضهم إلى أن الرصاصة انطلقت من بندقيته عرضاً، بينما رأى الآخرون أنه تعمد إصابة نفسه حتى لا يبقى بيننا. وقد أكدت الرأي الأخير السيرة التالية لموران وخيانته التي انتهت به إلى الموت على يد ثوار «غوانتانامو».

وقبل أن نغادر المزرعة تعهد فرانك بايس بأن يرسل مجموعة من الرجال في أوائل آذار القادم، على أن يكون الالتقاء في منزل ايبيفانو دياث في منطقة خيبرانو.

❋ ❋ ❋

ـ ٩ ـ

أيام مريرة

كانت الايام التي تلت مغادرتنا لمنزل ابيبفانيو دياز أكثر أيام الحرب إيلاماً لي. وإذا كان الغرض من هذه السطور التعرض لتاريخ أولى فترات النضال الثوري، كما شهدها كل المناضلين، فإني أرى من الواجب علي أن اتعرض في بداية هذا التاريخ إلى معاناتي الشخصية في تلك الفترة، نظراً لما يقوم بين هذه المعاناة وبين الحوادث التالية من ترابط من جهة، ولاستحالة الفصل بين الفقرتين دون المساس بوحدة الرواية من جهة أخرى.

كان فريقنا الثوري عند الخروج من منزل ابيبفانيو يضم عشرين رجلاً، سبعة عشر رجلاً من رفاق الجيش الاصلي، وثلاثة مستجدين هم خيل Cil وستولونغو وراوول دياز. وهؤلاء في الحقيقة بعض رفاق «غرانما» الذين اضطروا بعد نزولهم إلى الاختفاء بعض الوقت في المناطق القريبة من منتانيليو، متفادين الوقوع في أيدي الحراس بالالتجاء إلى بيوت الفلاحين، وقد قرروا الالتحاق بالفرقة حالما بلغهم خبر وجودنا.

كانت قصتهم شبيهة في كل النقاط بقصة كل واحد منا. لقد نجحوا في الإفلات من مطاردات الحرس وفي الاختباء عند أحد الفلاحين، ثم عند فلاح آخر، وحين وصلوا منتانيليو اختبأوا. وهذا مصيرهم ينصهر حالياً بمصير المجموعة بأسرها. لقد كان من الصعب في ذلك الحين تنمية عدد أفراد الفرقة، إذ كان انضمام الأفراد الجدد يصحبه دوماً انسحاب آخرين قدماء، كما كانت الظروف الطبيعية للنضال المسلح قاسية جداً، ولم تكن

الظروف المعنوية تقل عنها قوة، فقد كنا نعيش دائماً تحت وطأة الشعور باننا محاصرون مطوقون.

كنا نسير في تلك الأيام على غير هدى، وببطء، مختبئين خلف الغابات عبر منطقة ازدهرت فيها الزراعة على حساب الغابات، فلم يبق منها إلاّ مساحات صغيرة. وفي إحدى الليالي سمعنا من جهاز الراديو الصغير الذي يحمله فيديل خبر إلقاء القبض على رفيق من رفاق «غرانما» سبق له أن تركنا مع كريستنتيو بيريت. ولم يكن الخبر جديداً علينا إذ سبق أن سمعناه ضمن اعترافات ايوتيميو، لكنه لم يتأكد رسمياً. واستخلصنا من البلاغ الرسمي أن رفيقنا على قيد الحياة، إذ لم يكن من المألوف أن يبقى المعتقلون على قيد الحياة بعد مرورهم باستجواب الجيش الباتيستي. كانت نيران الرشاشات تسمع من حين لآخر من بعيد. يطلقها الحرس على الغابات حيث كانت القوات المعادية تتفادى على العموم المغامرة بدخولها، وإن كانت تطلق النار عليها دون هوادة.

سجلت في يوميات الفرقة أن أعراض نوبة جديدة من الربو بدات تبدو عليّ في الثاني والعشرين من شباط، وهي تبشر بالشدة. ولم استطع تفادي النوبة، إذ فقدت الدواء المضاد للربو. ولما كان موعد اللقاء الجديد مع بقية الرفاق هو الخامس من آذار، فلم يكن بد من الانتظار بضعة أيام أخرى. كان تحركنا بطيئاً، وبدون وجهة، فقد كنا نهدر الوقت حتى يحين الخامس من آذار، حيث سيرسل لنا فرانك بايس مجموعة من المسلحين. وقد استقر رأينا أخيراً على أن من واجبنا الاهتمام بتقوية جبهتنا الصغيرة أولاً قبل التفكير في مضاعفة عددها. ولذلك كان من اللازم أن تصل الأسلحة المتوافرة في سانتياغو إلى سييرا ماسترا.

وفاجانا الفجر ذات مرة على ضفة نهر قاحل لا زرع فيه تقريباً. وبقينا في هذا المكان يوماً عديم الاستقرار، في وادٍ لا أذكر اسمه، واظن أنه الماخاغوا Majagua على مقربة من لاس مريثيدس. (إن الأسماء قد ضاعت قليلاً من ذاكرتي). ثم توجهنا ليلاً إلى منزل الشيخ اميليانو، وهو أحد أولئك الفلاحين الطيبين الذين يمتلئون فزعاً عند مشاهدتنا، ولكنهم يخاطرون بحياتهم بشجاعة من أجلنا، ويسهمون بأعمالهم في تقدم ثورتنا. كنا في تلك الأيام نعيش موسم المطر في السييرا ماسترا،

فنتعرض للبلل كل ليلة لاننا مضطرون للمبيت بعيداً عن دور الفلاحين، سيما وان المنطقة موبوءة بالحرس.

كانت نوبة الربو شديدة بحيث تعوقني عن التقدم بصورة طبيعية. واضطررنا للنوم في مزرعة للبن، وهناك استعدنا بعض قوانا. وفي هذا اليوم الذي أتحدث عنه، يوم ٢٧ ـ ٢٨ شباط، رفعت المراقبة في البلاد، فلم تكف الإذاعة عن نشر أخبار كل ما حدث خلال الاشهر الماضية، فتحدثت عن الاعمال الإرهابية وعن المقابلة الصحفية بين فيديل وماتيوس، وفي تلك الاثناء صدر البيان الشهير عن وزير الدفاع الذي أكد فيه عدم صحة المقابلة الصحفية، وحظر نشر الصور الفوتوغرافية للمقابلة.

كان هرمس احد ابناء اميليانو يقوم على ضيافتنا وإطعامنا، ويشرح لنا مسالك الطرق التي يجب أن نسلكها. وفي صباح ٢٨ شباط لم يقم بزيارته المعتادة مما أثار قلقنا، فامر فيديل فوراً بإخلاء المكان، وتمركزنا في نقطة تشرف على كافة الطرق المارة من المنطقة. إذ لم نكن نعرف ما يمكن أن يحدث. وفي الرابعة مساءً، وبينما لويس كريسبو واونيفرسو سانشيز يحرسان المراقع، وبينما كان هذا الاخير يراقب الطريق القادم من لاس فيغاس لاحت له فرقة كبيرة من الجنود قادمة لاحتلال المنطقة. وكان علينا ان نسرع بالوصول إلى سفح الجبل، لنتمكن من اجتياز القمة إلى السفح الآخر قبل ان يقطع العدو علينا خط الانسحاب. وقد كان ذلك ممكنا ما دمنا اكتشفنا وصول العدو في الوقت المناسب، غير أن قذائف المورتر وطلقات الرشاشات انصبت في اتجاهنا. مما يدل على أن للجيش الباتيستي علماً سابقاً بوجودنا في المنطقة. واستطاع جميع الرفاق أن يمروا من منطقة الخطر إلا أنا، لكني وصلت إلى القمة مع ذلك، لكن لقاء جهود هائلة، وفريسة لنوبة من الربو عنيفة بحيث لم اكن استطيع ان اضع قدماً أمام الاخرى. ولن انسى مساعدة «الفلاح» كريسبو الذي اقبل نحوي يساعدني على السير، وحين كانت قواي تخور واطلب منهم أن يتركوني، كان كريسبو يقول لي، مستعملاً لهجة الفرقة الخاصة: «أيها الارجنتيني الـ.... إما أن تسير وإما أن ارغمك على الحركة بلكزات هذه البندقية». لم يكتف بتشجيعي بالكلام، بل حملني بامتعتي وانطلق بي في مسالك الجبل الوعرة بينما انهمر

المطر بغزارة فوق ظهرينا.

وصلنا إلى مكان يدعى بورغاتوريو، وجدنا فيه كوخاً صغيراً فدخله فيديل منتحلاً شخصية الرائد غونزاليس Conzalez في الجيش الباتيستي الذي يلاحق «العصاة»، واستقبلنا صاحب الكوخ، بأدب لكن ببرود، وتنازل لنا عن كوخه وقام على خدمتنا. وكان هنالك ضيف آخر هو فلاح من كوخ مجاور ابدى لنا ترحيباً وثرثرة منقطعي النظير. ولم اتمكن بسبب مرضي من الاستمتاع كما يجب بالحوار الفائق اللذة الذي دار بين فيديل في دوره الجديد والفلاح الذي أخذ يسدي له النصائح، ويعدد له الاسباب التي دفعت ذلك الشاب المسمى فيديل كاسترو إلى البقاء في الجبال كي يطلق النار باستمرار. ولم يلبث الفلاح الثرثار ان انصرف، وعند ذلك افصح فيديل لصاحب الكوخ عن حقيقته فصافحه هذا بحرارة، واخبره بانه عضو في الحزب الارثوذكسي[1] ومن اتباع الزعيم تشيباس Chibas، وانه مستعد لتنفيذ كل الاوامر. فارسلناه إلى مانتانيلو لشراء الادوية، والاتصال بالرفاق. وكان عليّ أن أبقى بجوار بيته بسبب سوء صحتي من غير ان يطلع احد على ذلك حتى زوجته.

إن آخر رفيق التحق بالفرقة، وهو رجل قوي البنية مشكوك في اخلاقه المهزوزة، قد عين ليرافقني أثناء مرضي، واعطانا فيديل باريحية بندقية سريعة الطلقات تعد من مفاخر اسلحة الفرقة لندافع بها عن انفسنا، ثم تظاهرنا امام اعين الناس بالخروج مع الفرقة ولكننا عدنا - انا والرفيق الجديد الذي اتفقنا على تسميته بالمعلم - إلى الغابات، إلى مكان تم الاتفاق عليه من قبل، كي ننتظر الأحداث التالية.

كانت أخبار ذلك اليوم - ٢٨ شباط - ان ماتيوس اتصل هاتفياً ورد على تحدي الوزير بانه سينشر الصورة الشهيرة، ولقد اعلن دبيات تامابو انه من غير الممكن لأي بشر كان أن يخترق الطوق الذي ضربه الجيش حول الثوار. كما جاءت الاخبار باعتقال الرفيق ارماندو هارت بتهمة كونه الرئيس الثاني للحركة.

نفذ صاحب الكوخ مهمته وعاد من مانتانيلو حاملاً إلي كميات وافرة

---

(١) حزب معارض تقليدي، كان كاسترو احد اعضائه، وقد تنكر الحزب لكاسترو بعد عملية مونكادا.

من الادرينالين. وإن الأيام العشرة الأشد مرارة في تاريخ النضال في السييرا ماسترا تبدأ من ذلك اليوم. كنت اتكىء من شجرة إلى شجرة وعلى عقب بندقيتي كي اتقدم. ويصحبني جندي جبان جداً يرتعد خوفاً كلما سمع طلقة رصاص، وتثور ثائرته كلما اضطررت تحت وطأة مرضي للسعال في مواطن الخطر. وهكذا قطعنا مسيرة اليوم الواحد في مدى عشرة ايام طوال، إلى ان وصلنا اخيراً إلى بيت ابيفانيو من جديد. لقد كان اليوم الخامس من آذار موعداً لتجمعنا في بيت ابيفانيو المضياف، ولكن محاصرة الجنود للمنطقة، واستحالة التحرك السريع في تلك الظروف، جعلتا من المستحيل أن يتم اللقاء قبل الحادي عشر من آذار.

وجدنا عند أهل المنزل معلومات هامة: إن المجموعة التي تضم ١٨ رجلاً بقيادة فيديل قد انقسمت إلى فرقتين إحداهما بقيادة فيديل نفسه وتتالف من اثني عشر رجلاً، والأخرى بقيادة ثيرو فريياس وتتالف من ستة رجال. وسبب ذلك استنتاج خاطىء باحتمال وقوع هجوم على الفرقة في مرتفعات التوس دي ميرينيو .Altos de Merino وقد وقع ثيرو فريياس بعد ذلك في كمين للعدو، ولكن الرجال نجوا جميعاً من الكمين، واعادوا تشكيل مجموعتهم في الجوار. إن جاجو وحده، الذي رجع دون بندقيته، قد مر بمنزل ابيفانيو دياث، في طريقه إلى مانتانيليو، وقد عرفنا جميع هذه الأمور بفضله. وعرفنا كذلك أن الفرقة التي سيرسلها فرانك بايس هي على استعداد تام، رغماً عن اعتقاله في سانتياغو، وقد قابلنا رئيس هذه الفرقة النقيب خورخي سوتوس .J Sotus، فاعتذر عن عدم تمكن رجاله من الحضور في الخامس من آذار حسبما كان مقرراً لأن خبر اللقاء ادى إلى حشد قوات العدو في كل الطرق.

وعلى ضوء ذلك اتخذنا إجراءات تكفل سرعة وصول الفرقة التي يبلغ عددها زهاء الخمسين رجلاً.

* * *

ـ ١٠ ـ

النجدة

في الثالث عشر من آذار، وبينما نحن ننتظر الفرقة الثائرة الجديدة، أذاع الراديو خبراً عن محاولة اغتيال باتيستا. وأعلن أسماء القتلى من المهاجمين، وعلى رأسهم الزعيم الطلابي خوسي أنطونيو اتشيفاريا، فضلاً عن أشخاص آخرين مثل مينيلاو مورا. ولم يكتف الطاغية بإعدام من حاولوا قتله، بل شمل الإعدام كل المعارضين الغرباء عن المحاولة، فعلمنا في الغداة نبأ اغتيال بلايو كوير فونفارو المناضل الأرثوذكسي(١) الذي أبدى معارضة قوية في وجه الطاغية، وقد أُلقيت جثته في الركن الارستقراطي المعروف باللاغيتو El Laguito من الكانتري كلوب Country Club. وإنه لممّا يبعث على الاهتمام أن نسجل هنا، والقصة لا تخلو من العجب، أنَّ قتلة فونفارو قد اشتركوا مع أولاده أنفسهم في الغزو الفاشل لشاطىء خيرون Giron بدعوى «تحرير كوبا من الجذام الشيوعي».

كانت بعض التفاصيل عن هذه المحاولة، التي يحتفظ الشعب الكوبي بذكراها، ترشح عبر شبكة المراقبة. لم أكن من جهتي قد التقيت قط بالقائد الطلابي شخصياً، بينما كانت معرفتي بأصدقائه وثيقة، إذ سبق

(١) كان بلايو فونفارو من أعضاء الحزب الأرثوذكسي البارزين، وكان رجلاً شريفاً وشجاعاً. وقد اغتيل من قبل أنصار باتيستا ساعة الهجوم على القصر الجمهوري، ولم تكن له علاقة بالأمر مطلقاً.

ان تعرفت إليهم في المكسيك، عندما جاؤوا للاتفاق على أسس العمل المشترك ضمن «حركة ٢٦ تموز» والتنظيم الطلابي. ومن بين هؤلاء الرفاق سفيرنا الحالي في الاتحاد السوفياتي الرائد فاوري تشومون، وفرو كتووسو رودريغيث، وجوي ويستبروك، وقد اشتركوا جميعاً في الهجوم على باتيستا، ولم يبق بينهم وبين الطابق الثالث من قصر الرئاسة حيث يوجد الطاغية سوى القليل، لكن المحاولة فشلت وتحولت إلى مجزرة مضادة، لم ينجُ منها إلا الذين تمكنوا من الخروج من الفخ المسمى قصر الرئاسة في الوقت المناسب.

كان متوقعاً أن تصلنا النجدة في الخامس عشر من آذار. وقد انتظرنا وصولها في مكان مختار عند مجرى نهر صغير يسهل فيه الاختفاء، ولكننا لم نر احداً. وقد علمنا بعد ذلك أن بعض العراقيل عاقت وصول النجدة في الوقت المحدد. وفي صباح اليوم السادس عشر وصلت الفرقة في سيارات شاحنة في حالة من الإرهاق الشديد، بحيث لم تستطع التقدم خطوة واحدة، فاستقرت في الأحراج للاستراحة. وكانت الشاحنات التي حملت افراد الفرقة تعود لمزارع ارز في المنطقة يدعى اوبرت ماتوس، وقد أصابه خوف شديد من نقمة باتيستا واعوانه ففر إلى كوستاريكا، ولكنه عاد من هناك، بمظاهر البطولة، في الطائرة الشهيرة التي حملت سلاحاً من ذلك القطر.

كانت النجدة تتألف من خمسين رجلاً، ثلاثون منهم فقط مسلحون، ومن جملة سلاحهم رشاشان وبندقيتا مادزن وجونسون. لقد حولتنا الأشهر القليلة التي عشناها في لاسييرا إلى متمرسين بشؤون الحرب، فتبدت لنا في الفرقة الجديدة جميع العيوب التي كنا نعاني منها حين نزلنا من غرانما، وابرز هذه العيوب انعدام الانضباط، وعدم التكيف مع المشاق والصعوبات، وضعف العزيمة والتصميم، وباختصار العجز عن الانسجام مع ظروف الحياة الجديدة.

قسم فريق «الخمسين» الذي يقوده النقيب خورخي سوتوس إلى خمس مجموعات من عشرة أفراد يقود كل منها ملازم أول ـ وكانت الرتب قد وزعت من طرف تنظيمات السهول ولا زالت تنتظر تصديقنا ـ وهؤلاء الملازمون هم: الرفيق دومنغيث الذي مات على ما أظن في بينو دي أغوا Pino de Agua بعد ذلك بوقت قصير، والرفيق ريني راموس

لاتور الذي سقط في ميدان الشرف، في الساعات الأخيرة من هجوم الديكتاتورية النهائي، والذي أشرف على تنظيمات الميليشيا في السهول، والرفيق بيدرين سوتو رفيقنا القديم في غرانما الذي عاد إلينا من جديد ثم سقط في المعركة وقد رقّاه راوول كاسترو بعد مصرعه إلى رتبة رائد في الجبهة الشرقية الثانية التي تحمل اسم فرانك بايس، وأخيراً الرفيق بينا الطالب السانتياغي الذي وصل إلى رتبة رائد والذي وضع حداً لحياته بعد الثورة، والرفيق هيرمو وهو الوحيد من بين قادة المجموعات الذي ظل على قيد الحياة بعد عامين من الحرب.

كان عجز فرقة «الخمسين» عن السير من اعقد المشاكل التي واجهتنا، إذ كان القائد سوتوس نفسه قدوة سيئة للفرقة ببقائه دوماً في مؤخرة المسيرة. وقد عهد إليّ بالإشراف على الفرقة، وعندما فاتحت سوتوس بالامر اجاب بان التعليمات التي لديه تقضي بان يحتفظ بقيادة الفرقة لنفسه حتى يسلمها شخصياً لفيديل، وعليه فهو لا يستطيع التنازل قبل ذلك لأحد، إلخ... وبالرغم من شعوري بسوء حال الفرقة، فإن لم اكن في ذلك الحين قد تخلصت بعد من عقدة الشعور بانني اجنبي، ولذلك لم أعقد الأمور. وبعد سلسلة من المسيرات القصيرة - اضعنا فيها وقتاً طويلاً في الواقع بسبب سوء استعداد الفرقة - وصلنا إلى مكان ما من لا ديريتشا La Derecha (اليمين) حيث يتوجب علينا انتظار فيديل. وهناك وجدنا المجموعة الصغيرة التي سبق لها أن انفصلت عن فرقة فيديل قبل وقت قصير، وهي تضم ثيرو فريياس ومانويل فاخاردو وغيير موغاريتا وخوفنيز وبيسانت، والاخوة الثلاثة سوتو مابور.

كان الفارق الكبير يقفز إلى العيان في ذلك الحين بين الفريقين: فريقنا المنضبط المتماسك الصلب المحارب، وفريق المستجدين الاغرار المعرض لجميع أمراض الأوقات الأولى من الحرب: هؤلاء لم يتعودوا أن ياكلوا مرة واحدة في اليوم، وإذا كان الطعام غير لذيذ الطعم لا يمسوه. لقد كان هؤلاء الاغرار يحشون حقائبهم الحربية بامتعة لا ترجى منها فائدة، وكانوا يفضلون الاستغناء عن علب الحليب ليضعوا في مكانها اشياء تافهة كالمناديل (وهي جريمة الإساءة إلى الانصار!). وقد كنا نعمد إلى التقاط الاغذية والمتاع الهام الذي يلقون به خلفهم. وبعد أن

استقرينا في لا ديريتشا ساد جو من التوتر خلقته الاحتكاكات الدائمة بين أفراد الفرقة وبين سوتوس ذي النزعة المتحكمة الاستبدادية. وكان علينا أن نتخذ بعض الاحتياطات الخاصة، وحين غادرنا ملجأنا بقي ديني داموس - الذي كان اسمه العسكري دانيال - على رأس مفرزة الرشاشات، وقد كان بقاء دانيال مع مفرزته ضماناً لانسحابنا من غير حوادث.

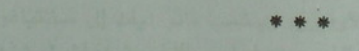
حدث بعد ذلك بزمن أن أرسل سوتوس في مهمة إلى ميامي - عاصمة ولاية فلوريدا الأميركية - وهناك خان الثورة، وانضم إلى فيلبي باتوس الذي أعماه طمعه في الجاه والسطوة عن التزاماته السابقة، ورشح نفسه لمنصب الرئاسة المؤقتة في نظام كوبي «مطبوخ»، لعبت الخارجية الأميركية دوراً كبيراً في طبخه. ومع مرور الزمن أعرب سوتوس عن رغبته في استعادة مكانه في صف الثورة، وقد أفسح له راوول كاسترو مجال العودة، مؤكداً له أن الثورة لا تتنكر لأحد، ومع ذلك استمر سوتوس في حبك المؤامرات ضد الحكم الثوري، فحكم عليه بالسجن عشرين سنة، ولكنه تمكن من الفرار بمساعدة أحد سجانيه، فهربا معاً إلى الولايات المتحدة الشرنقة المثالية للديدان من أمثالهما. أما زمن الحرب فقد بذلنا كل مجهوداتنا لمساعدة سوتوس، وذلك بتخفيف الضغط عن الجنود الجدد، وإفهامه مقتضيات النظام والانضباط.

أرسلنا غيير موغارتيبا للبحث عن فيديل في كاراكاس بينما ذهبت لإحضار راميرو فالديس الذي تحسن نوعاً ما من الجروح التي أُصيب بها في ساقه. وجاء فيديل في ليل الرابع والعشرين من آذار، فكان وصول القائد مع الرفاق الاثني عشرا مؤثراً جداً. وقد ظهر بمزيد من الوضوح الفرق بين الأنصار الملتحمين ذوي الحقائب المصنوعة من كل ما يقع تحت أيديهم من مواد، والمخاطة كيفما اتفق، وبين المستجدين بلباسهم النظيف الموحد وحقائبهم الجديدة المتشابهة وذقونهم الحليقة. وأخبرت فيديل عما واجهنا من صعوبات، ثم عقد اجتماع للتشاور فيما يجب عمله في المستقبل، حضرته أنا وفيديل وراوول والميدا وسوتوس وفريباس وغييرمو غارثيا وكاميلو تشيانفويغوس ومانويل فاخاردو. وقد انتقدني فيديل أمام الجميع لعدم استلامي الفرقة، كما كان مقرراً، وتركي إياها بين يدي سوتوس. وقد أوضح لسوتوس أنه لا يضمر له

ادنى عداء، وكل ما في الامر ان موقفه لا يمكن القبول به في مثل هذا الوقت. وقد تمخض هذا الاجتماع عن إعادة توزيع المجموعات داخل الجيش ككل، فتشكلت ثلاث كتائب بقيادة النقباء راوول كاسترو، وخوان الميدا، وخورخي سوتوس، كما أُسندت قيادة الطليعة إلى كاميلو تشيانفويغوس، وقيادة الحراسة الخلفية إلى إيفيخينيو اميخيراس، وكلفت انا بمهمة الطبيب في مجلس الاركان، بينما عين اونيفرسو سانتشث قائداً لفصيلة الاركان.

ازدادت أهمية جيشنا بفضل المجندين الجدد وبوجود رشاشين بين عتاده، وإن كانا موضع شكوك بسبب قدمهما وسوء العناية بهما، ومع ذلك فقد أصبحنا الآن قوة يعتد بها. وتناقشنا حول ما يجب عمله، فكان رايي ان نهاجم اقرب مركز للعدو حتى يتعود المستجدون على حياة الحرب، ولكن فيديل وبقية اعضاء المجلس اجمعوا على أن نستمر في السير مدة أطول، لكي يتعود المستجدون على شظف العيش في الغابات والجبال، وعلى المشي عبر المرتفعات الناشئة. وهكذا كان. فقد اتجهنا نحو الشرق جادين في السير بحثاً عن اية قوة للعدو، ولكن حضرنا قبل ذلك سلسلة من الدروس في مبادىء حرب العصابات.

استعد الجيش تملاه الحماس، ثم انطلق في تادية مهامه، وقد كان أول لقاء له مع العدو في معركة أوفيرو حيث عمدته الدماء.



ـ ١١ ـ

المستجدون... والحرب

كان شهرا آذار ونيسان من عام ١٩٥٧ عهد إعادة بناء الجيش الثائر وتثقيفه. فبعد ان وصلت النجدة عند مغادرتنا لا ديريتشا، اصبح جيشنا يضم ثمانين رجلاً موزعين كالتالي:

الطليعة الامامية وتضم اربعة رجال بقيادة كاميلو تشيانفويغوس. ثم زمرة بقيادة راوول كاسترو، وتتالف من ثلاث شرازم يقودها الملازمون الاولون «خوليو دياث ونانو دياث وراميرو فالديس». وقد قضى الرفيقان الاولان ـ اللذان لم يكونا قريبين بالرغم من تشابه لقبيهما ـ بشرف في معركة الاوفيرو. وينتسب نانو دياث إلى سانتياغو ـ وإن معمل تكرير السكر الذي يحمل اسم الاخوين دياث في هذه المدينة يتشرف بهذا الاسم إحياءً لذكرى نانو، واخ له سقط في سانتياغو دي كوبا. اما الرفيق الآخر خوليو دياث فينتمي إلى ارتيميسا Artemisa، وهو احد ابطال غرانما ومونكادا، وقد اتم واجبه الاخير في اوفيرو. وكان مع النقيب خورخي سوتوس وتحت امرته الملازمون الاولون: ثيرو فريياس الذي مات بعد ذلك في جبهة «فرانك بايس»، وغييرمو غارثيا القائد الحالي لقوات المنطقة، وريني راموس لاتور الذي مات برتبة رائد في سييرا مايسترا.

وتاتي بعد ذلك هيئة الاركان، او القيادة، وهي برئاسة فيديل كاسترو القائد العام وعضوية ثيرو ريدوندو، ومانويل فاخاردو الذي اصبح اليوم رائداً في الجيش، و«الفلاح» كريسبو الرائد، واونيفرسو

سانشيز الذي أصبح رائداً اليوم، ثم أنا كطبيب.

وكانت الزمرة الثانية في مسيرة الرتل الخلفية هي، عادة، زمرة الميدا الذي كان نقيباً في ذلك الحين وتحت أمرته الملازمون: هرمو، وغييرمو دومنغز الذي مات في بينودي اغوا، وبينا.

وينتهي الجيش بالحراسة الخلفية وتتألف من ثلاثة رجال بقيادة الملازم الاول إيفيخينو اميخيراس.

بدأ الرجال بتعلم الطبخ شرذمة شرذمة، فتلك كانت وحدتنا القتالية. وكنا نوزع الطعام والدواء والذخيرة شرذمة شرذمة أيضاً. وعلى العموم كانت كل شرذمة، أو كل زمرة على اية حال تضم بعض القدماء الذين كانوا يعلّمون المستجدين فن الطبخ والاستفادة على أفضل وجه من الأغذية، وفن صنع الحقائب وفن السير في لاسيبرا.

تتطلب المسافة بين لاديريتشا في جبل لومون وبين أوفيرو بضع ساعات بالسيارة، لكنها اقتضت منا مسيرة خمسة أشهر. فقد تحركنا ببطء وحذر باذلين جهدنا لتحقيق المهمة الاساسية في إعداد الرجال لجو القتال القادم والحياة التي تنتظرهم، ومررنا من جديد بمرتفعات اسبينوسا حيث ادينا التحية لمرقد الرفيق خوليو تينون أكوستا الذي سقط قبل أيام، واقمنا عليه حرس شرف من قدماء المناضلين، وهناك عثرت على بقايا بطانيتي التي تركتها أثناء الانسحاب «الاستراتيجي» السريع، وقد استعدتها ووضعتها في حقيبتي عاقداً العزم على ألاّ أتخلى أبداً عن تجهيزاتي بتلك الصورة.

كلف رفيق مستجد يدعى باولينو بمصاحبتي ومساعدتي على حمل الأدوية، وقد سهل لي هذا الرفيق مهمتي، وجعلني قادراً على الاهتمام بالجيش في فترات الاستراحة. ومررنا بجبل كاراكاس حيث سبق أن داهمنا طيران العدو نتيجة خيانة أوتيميو غيرا، ووجدنا هناك بعض السلاح الذي كان فائضاً عن حاجة الجيش، وتخلى عنه بعض الرفاق أثناء الغارة الجوية ليتمكنوا من التحرك السريع، أما الآن فلا يوجد فائض من الأسلحة بل كان الجيش على العكس يفتقر إليها.

كنا نعيش، في ذلك الحين، فترة جديدة من حياة الثورة، فقد طرأت تغيرات نوعية على الوضع جعلت الجيش الباتيستي يتحاشى الاصطدام بنا، مع أننا أنفسنا لم نكن متحمسين لمثل هذا الصدام. أما الجو

السياسي فقد ملأته آنذاك رياح الانتهازية وتعالت أصوات باردو لادا، وكونتي أغويرو[1] وأمثالهم داعية إلى الاتحاد والسلام منتقدة الحكم في كثير من الخوف والحذر. وقد تحدثت الحكومة نفسها عن السلام بلسان رئيسها الجديد ريفو أغويرو الذي أعلن عن اعتزامه الذهاب إلى سييرا مايسترا لتهدئة الحال إذا كان ذلك ضرورياً. ولكن باتيستا صرح بعد ذلك بأيام قليلة بأنه ليس من الضروري الاتصال بفيديل أو بأي أحد من «العصاة»، وأن سييرا مايسترا خالية من أي ثائر بمن في ذلك فيديل، وبنتيجة ذلك، فليس هناك من داعٍ للذهاب والحوار مع «شرذمة من قطاع الطرق».

وهكذا أعلن الجانب الباتيستي إرادته في استمرار الحرب. وكانت هذه هي نقطة التلاقي الوحيدة بين وجهة نظره ووجهة نظرنا نحن. فقد قررنا من جانبنا أيضاً خوض غمار الحرب بكل القوى ومهما كانت الصعوبات. وفي تلك الأيام عين العقيد باريارا قائداً للعمليات العسكرية، وهو رجل مشهور بشراهته حيال وجبات جنوده. وقد عاش بعد ذلك حتى شهد انهيار «الظاهرة الباتيستية» بكل هدوء بعيداً عن كوبا، حيث كان ملحقاً عسكرياً في كاراكاس عاصمة فنزويلا.

كان معنا في ذلك الحين بعض المتحمسين الظرفاء الذين انتفعنا منهم من أجل الدعاية، التجارية تقريباً، لحركتنا في قلب الولايات المتحدة، وقد تسبب لنا اثنان منهم خاصة ببعض المشاكل. كان هؤلاء ثلاثة من الشبان الأميركيين الذين فروا من عائلاتهم في قاعدة غوانتانامو البحرية وانضموا إلى الجيش الثائر. وقد انسحب اثنان منهم، وقد أنهكتهما مكاره حياة الجبل والحرمان، وسافرا بصحبة الصحافي بوب تابر قبل أن يشنفا أسماعهما بأصداء الرصاص في سييرا مايسترا. أما الثالث فقد شهد معركة أوفيرو ثم انسحب مريضاً أيضاً. لم يكن هؤلاء الشبان مهيئين أيديولوجياً للثورة، بل كان يدفعهم للانضمام إلينا حب المغامرة

---

(١) كان لويس كونتي أغويرو، المذيع الشهير في راديو المقاطعة الشرقية، قد أبدى التعاطف مع حركة فيديل، محتفظاً بالعلاقات الطيبة مع باتيستا في الوقت نفسه. وقد كتب هذا الانتهازي عام ١٩٥٩ كتاباً ملأه بمديح فيديل، لكنه لما خذلت مصالحه غادر البلاد إلى ميامي.

فقط. ارضوا هذا الدافع بالإقامة بين ظهرانينا لمدة شهرين أو ثلاثة اشهر، وقد ودعناهم بالاسى وبالبهجة معاً. وكان هذا - على الاقل - شعوري الشخصي، انا الطبيب الذي طالما سقطوا بين يديه، لانهم لم يستطيعوا تحمل المشقات التي تعج بها الحرب.

نظمت الحكومة في ذلك اليوم بالذات جولة جوية على ارتفاع بضعة آلاف من الامتار في سييرا مايسترا، لمجموعة من الصحافيين، لتثبت لهم ان الجبال خالية من الثوار. ولم يقتنع احد بهذه المسرحية الفاشلة التي قصدت الحكومة من ورائها خداع الراي العام مستعينة بالثوار المزيفين من امثال كونتي اغويرو، الذين كانوا لا يتوقفون عن الكلام المضلل للشعب.

في خلال تلك الأيام العصيبة استطعت الحصول على فراش من القطن كان ثميناً جداً، لان قانون الحرب الصارم قد منعني حتى ذلك الحين من الحصول عليه، كان هذا القانون ينص على إعطاء سرير القطن فقط لمن سبق له ان صنع لنفسه فراشاً من الخيش. والحكمة من هذا القانون هي محاربة الكسل والاتكالية. كان في مقدور كل امرىء أن يصنع فراشاً من الخيش، وعندئذٍ يصبح له الحق في الحصول على أول فراش قطني يقع بين أيدينا في الفرصة التالية. ولم يكن باستطاعتي ان استعمل فراش الخيش بسبب سوء صحتي، فقد كانت حشوته تضايقني، جداً، وكنت افضل أن انام على الأرض. ولما كنت من الذين لا يملكون فراشاً من الخيش فقد كان مستحيلاً علي - بحكم القانون - ان احصل على فراش قطني... إن هذه الحوادث اليومية التافهة تشكل جزءاً من «ماساة» الحرب الفردية لكل واحد من الانصار. غير أن فيديل قدر حالتي فتجاوز القوانين واعطاني فراشاً قطنياً. وسوف اذكر دائماً أن ذلك حدث يوم وصلنا إلى ضفاف نهر لابلاتا متسلقين آخر سفح يفصلنا عن بالما موتشا، وغداة أول وجبة تناولناها من لحم الحصان. لم يكن أكلنا للحصان مجرد غذاء فاخر، بل كان فوق ذلك اختباراً لقدرة الرجال على التكيُّف. كان الفلاحون في فرقتنا يرفضون باستياء أن ياكلوا لحم الحصان، كما كان بعضهم ينظرون إلى مانويل فاخاردو كما ينظرون إلى مجرم قاتل لاننا استفدنا من خبرته كجزار سابق فذبح ذلك الحصان. وكان الحصان ملكاً لفلاح يدعى بوبا يقيم في الناحية الأخرى

من الشهر، ولست أشك في أن بويا قد تعلم الآن القراءة والكتابة بعد حملة مكافحة الأمية، فإذا وقع هذا العدد من مجلة «فيردي أوليفو»[1] بين يديه أمكنه أن يتذكر تلك الليلة التي طرق فيها بابه ثلاثة من الأنصار بوجوه شاحبة وأخطأوا فظنوا أنه جاسوس، فجردوه من حصانه العجوز الذي كان ظهره مغطى بالقروح والذي أصبح غذاء لنا بعدئذٍ، والذي كان لحمه في نظر البعض أكلة شهية، بينما كان امتحاناً شاقاً لبطون الفلاحين الذين اعتقدوا أنهم يأتون عملاً وحشياً وهم يمضغون لحم ذلك الصديق القديم للإنسان.

* * *

(1) المجلة التي نشرت هذه المذكرات لأول مرة.

ـ ١٢ ـ

مقابلة شهيرة

في أواسط نيسان ١٩٥٧، عدنا بجيشنا الحسن التدريب إلى بالما موتشا على مقربة من جبل توركينو Turquino، وفي ذلك الحين كان أفضل رجالنا، أقدرهم على حرب الجبال، من ذوي النشأة القروية.

وكان غييرمو غارتيا وثيرو فريياس على رأس دوريات من الفلاحين يجوبون أنحاء لاسييرا، متسقطين الأخبار ومستكشفين المناطق وباحثين عن المؤن: كانوا يشكلون الطلائع الكشافة المتحركة لجيشنا. ووصلنا من جديد إلى منطقة «ساقية الجحيم» التي كانت مسرحاً لإحدى معاركنا، فجاء الفلاحون لتحيتنا، وأطلعونا على الأحداث الفاجعة، واسم الرجل الذي دل العدو على مواقعنا، والقتلى الذين سقطوا إلخ. وباختصار، أعطونا صورة كاملة عن حياة المنطقة بتلك المهارة المعروفة عند الفلاحين في نقل الأخبار الشفهية.

كان فيديل قد فقد جهاز الراديو الذي يحمله، فطلب جهازاً آخر من أحد فلاحي المنطقة الذي تنازل له عنه في الحال. كان هذا الراديو الكبير، الذي يحمله أحد المناضلين في حقيبته، يحمل إلينا أخبار هافانا مباشرة، حيث لاحظنا أن الطرف الآخر قد عاد إلى الحديث بمزيد من الحرية بنتيجة إعادة «الضمانات» المزعومة.

تنكر غييرمو غارتيا في ثياب عريف باتيستي، واصطحب بعض الرفاق المتخفين في زي الحرس وذهب «بأمر من العقيد» في طلب الجاسوس الذي دل العدو على مواقعنا سابقاً. وقد أحضره في اليوم

الثاني، وكان الرجل مخدوعاً بلباس معتقليه، ولكنه فطن إلى الحقيقة بعد أن رأى الجيش الذي يرتدي الأسمال، وبوقاحة بالغة أخبرنا عن علاقاته بالجيش الباتيستي، وكيف أكد لذلك «القواد كاسيلاس» - على حد تعبيره - أنه يستطيع الإيقاع بنا وإحضار الجيش إلى مراكزنا، باعتبار أنه قد تعقبنا من قبل، ومع ذلك فإنهم لم يأبهوا له، ونال عقابه الرادع بعد وقت قصير ودفن في أحد أحراج سييرا مايسترا.

وجاءتنا في ذلك الحين رسالة من ثيليا Celia تفيدنا بأنها قادمة إلى الجبال بصحبة صحافيين أميركيين يرغبان في مقابلة فيدل بخصوص أصحابنا الأميركيين الصغار الثلاثة. وقد أرسلت فضلاً عن ذلك بعض المال الذي اكتتب به أنصار الحركة. وقد استقر رأينا على إرسال لالوسار ديناس لإحضار الصحافيين عبر طريق إيسترادا بالما التي يعرف مسالكها جيداً لأنه كان تاجراً في المنطقة فيما مضى. وفي ذلك الحين كنا نكرس وقتنا لإقامة الصلات مع الفلاحين لنستفيد منهم في تأمين الترابط بين أنحاء الجبال، وإنشاء معسكرات دائمة. وبالفعل، فقد كنا نفكر في خلق مراكز حيوية حقيقية للمنطقة الخاضعة لإشرافنا والأخذة في الاتساع. وهكذا استكشفنا البيوت الصالحة لتكون مراكز تموين لقواتنا وإقامة المخازن فيها بغرض نقل المؤن منها فيما بعد حسب احتياجاتنا. وكان من شأن هذه الأماكن أن تكون «محطات» بشرية سريعة تملأ السييرا في كل الاتجاهات وتتغلغل في الجبل في كل مكان.

كانت لأهل الجبل قدرة على قطع المسافات الشاسعة في وقت قصير، وكثيراً ما كنا نغتر بتقديراتهم الخاصة للمسافات والوقت اللازم لقطعها، هذه التقديرات التي تصدق على الفلاحين بينما تختلف كثيراً عن التقويم الزمني الذي تعود عليه أهل المدن.

بعد سفر لالوسار ديناس بثلاثة أيام جاءتنا أخبار تفيد بأن ستة أشخاص يتسللون السييرا من ناحية سانتو دومنغو: امرأتان ورجلان أميركيان وشخصان آخران لم تعرف هويتهما. وتضاربت هذه الأخبار مع معلومات أخرى تفيد بأن الحرس الباتيستي قد علم بوجود هذه المجموعة عن طريق أحد الجواسيس وأنه حاصر البيت الذي تقيم فيه. إن الأخبار تنتقل بسرعة في لاسييرا، ولكنها في الوقت نفسه تحور

وتغير. وقد ارسلنا كاميلو على رأس مجموعة من الرجال لفك الحصار المزعوم عن الصحافيين وثيليا سانتشز التي علمنا أنها ترافقهما. ومع ذلك فقد حضر هؤلاء جميعاً سالمين، وعلمنا فيما بعد أن خبر حصارهم يرجع إلى تحركات قام بها الحرس بعد وشاية ما، ولم يكن ذلك بالأمر النادر، في ذلك الحين، عند الفلاحين المتخلفين.

في الثالث والعشرين من نيسان وصل وفد صحفي سينمائي إلى مركزنا ترافقه الرفيقتان ثيليا سانتشث وهايدي سانتا ماريا، ومراسلان يمثلان الحركة في السهل «ماركوس»، أو «نيكاراغوا»، وهما الرائد أغليسياس الحاكم الحالي لإقليم لارفيلاس والذي كان مكلفاً أنذاك بمهمة في سانتياغو، ومارثيلو فيرنانديز الذي كان آنذاك منظماً للحركة وأصبح الآن نائباً لرئيس المصرف الوطني، وقد جاءنا كترجمان بسبب اتقانه اللغة الإنكليزية.

وجرت الأمور بصورة بروتوكولية تماماً. فقد كان يهمنا أن نستعرض قواتنا أمام الصحافيين وأن نتهرب من المحرج من أسئلتهما، لاننا كنا نجهل كل شيء عن هذين الصحافيين. وسمح لهما باستجواب أصحابنا الأمريكيين الشبان الثلاثة الذين أجابوا عن جميع الأسئلة. كانت الحياة البدائية التي عاشوها إلى جانبنا قد طورت فيهم حالة فكرية جديدة تماماً.

وحوالي تلك الفترة انضم إلينا رفيق جديد من ألطف رفاق الحرب الثورية وأحبهم، ذلك هو الفاكيريتو (الراعي الصغير) الذي وقع علينا ذات صباح جميل يصحبه رجل آخر بعد أن غادر بلدته موورون في كاماغويز Camaguez. آه، لقد قضى شهراً كاملاً يبحث عنا! وقد بادرنا - كما نفعل دائماً في مثل هذه الحالات - إلى استجوابه وإعطائه بعض المبادىء الأساسية عن الموقف السياسي. كانت هذه المهمة تقع دائماً على عاتقي. ولم يكن للفاكيريتو أي اتجاه سياسي، بل لم يكن أكثر من شاب مرح وقوي استهوته المغامرة فصعد إلى سييرا مايسترا. وجاءنا حافياً فاهدته ثيليا سانشيز حذاءً مكسيكياً مزيناً بالرسوم كان الحذاء الوحيد الذي يناسب قدميه، فقد كان الفاكيريتو صغير الحجم، ولبس حذاءه وقبعته القروية الكبيرة فبدا كراعي بقر مكسيكي، الأمر الذي جعلنا نطلق عليه اسم فاكيريتو.

لم يستطع الفاكيريتو، كما نعرف جميعاً، أن يشهد النصر النهائي للثورة، إذ مات عشية سقوط سانتا كلارا، رئيساً للزمرة الفدائية في الفيلق الثامن وإننا لنتذكر جميعاً، من مروره بنا، حبه الفائق للحياة، وروحه الجذل المؤنسة، وطريقته الأسطورية في مجابهة الأخطار. كان الفاكيريتو كذاباً من الطراز الأول، فلا يفتح فمه حتى يجمّل الحقيقة بحيث يبدل ملامحها كلياً فتصبح غير معروفة. أما أعماله الجبارة في مهماته المتعاقبة كمخبر في الأيام الأولى، ثم كجندي بعد ذلك، وكرئيس للزمرة الفدائية، فقد أثبتت أنه لا يوجد بالنسبة إليه أية حدود واضحة بين العالم المثالي والعالم الواقعي. وكانت جميع المآثر التي ابتدعتها مخيلته الخصبة تتحول إلى حقائق واقعة في وسط المعركة. لقد تحولت بسالته القصوى إلى أسطورة بعد انتهاء الملحمة الثورية في ظفر لم يُعْطَ أن يشاهده.

وفي إحدى الليالي، بعد وقت قصير من التحاقه بنا، سألته عن أحواله في نهاية إحدى فترات المطالعة الليلية التي دأبنا على إقامتها في الرتل، فروى لنا قصة حياته دون أن ينسى تزيينها بالحوادث البراقة. ورحت أسجل الأحداث بقلم رصاص دون أن أظهر له ذلك، وعندما انتهى سألناه عن عمره، فأجابنا بأنه لا يتجاوز العشرين مطلقاً. لكننا إذا شئنا أن نأخذ حصيلة أعماله الخارقة، فلا بد لنا من الاعتراف بأنه باشر نشاطه قبل ولادته بخمس سنوات.

أخبرنا الرفيق نيكاراغوا بأن هناك أسلحة في سانتياغو هي بقايا الهجوم السابق على قصر الرئاسة، وهذه الأسلحة هي عشرة رشاشات وإحدى عشرة بندقية «جونسون» وست بنادق. وكانت هناك أسلحة أخرى، لكن رفاق السهل يفكرون أن يفتحوا بها جبهة جديدة في منطقة ميراند الوسطى.

وقد اعترض فيديل على هذه الفكرة، وأصرّ على وضع أكبر كمية ممكنة من السلاح تحت تصرفنا، ولم يمنح تلك الجبهة الثانية إلاّ قليلاً من السلاح. تابعنا مسيرنا محاولين الابتعاد عن بعض الحرس الذين ظهروا بالقرب من طريقنا، لكننا قررنا قبل ذلك أن نصعد إلى قمة توركينو.

كان هذا التسلق لأعلى قمة في سييرا ينطوي على عنصر شبه صوفي،

فضلاً عن انه مضى علينا زمن طويل ونحن ندور حول خط ذروة مايسترا، اي قريباً جداً من قمته. وتسلق الجميع قمة توركينو، وهناك عالياً انتهت مقابلتنا مع بوب تابر التي أعد خلالها شريطاً، بثته امواج التلفزيون الاميركي، ايام لم يكن جانبنا يخشى بعد كثيراً. وتجدر الإشارة إلى ان فلاحاً انضم إلينا حديثاً، اخبرنا بان كاسيلاس عرض عليه مبلغ ثلاث مئة دولار وبقرة ولوداً مقابل اغتيال فيدبل. فليس الاميركيون وحدهم الذين اخطأوا في تقييم قائدنا الاعلى.

لاحظنا ملاحظة غريبة لا اجد مانعاً من تسطيرها هنا، ذلك اننا قسنا ارتفاع قمة توركينو بواسطة مقياس الارتفاع العسكري الذي حملناه معنا فوجدناها ترتفع عن سطح البحر بمقدار الف وثمانمائة وخمسين متراً (١٨٥٠ م) وهو رقم يختلف اختلافاً كبيراً عن القياس الرسمي. ومع ذلك، فقد كان جهازنا يعمل جيداً، عند سطح البحر على الاقل.

أرسل غييرمو على راس مجموعة من الرجال للاشتباك مع فرقة من العدو كانت تتعقبنا. اما انا فقد جعلتني نوبة من الربو اسير في مؤخرة الجيش بعد ان أخذ مني رشيشي (طومبسون) كيلا ابذل مجهوداً زائداً في حمله، ولانني لا استطيع استعماله في حالة المرض. لم استعده إلا بعد ثلاثة ايام عصيبة وجدت نفسي خلالها اعزل من اي سلاح بينما كان في استطاعتنا ان نشتبك مع العدو في كل لحظة.

في تلك الايام من شهر ايار ١٩٥٧ سافر الشابان الاميركيان بصحبة الصحافي بوب تابر ووصلا بسلام إلى غوانتانامو. اما نحن فقد واصلنا سيرنا البطيء فوق قمة مايسترا او على سفوحها، نقيم الاتصالات بالاهالي، ونستكشف مناطق جديدة، ونحمل الشعلة الثورية واسطورتنا نحن الملتحين إلى قطاعات جديدة من سييرا. وقد تفشت حالة ذهنية جديدة بين اهالي الجبال، فاصبح الفلاحون يهرعون لتحيتنا بشيء اقل من الخوف، كما اننا من جهتنا لم نعد نخشى وجودهم بعدما اصبحنا مطمئنين لقوتنا المتزايدة نسبياً، وشعرنا بقدرتنا على الصمود لاية مفاجأة قد يقوم بها جيش الطاغية، سيما وان اواصر الود والصداقة التي قامت بيننا وبين فلاحينا الطيبين قوية لا تنفصم عراها.

* * *

— ١٣ —

أيام المسير

قضينا الاسبوعين الاولين من شهر ايار في السير نحو هدفنا دون توقف[1] كنا في مطلع الشهر فوق إحدى القمم القريبة من توركينو، وقد اجتزنا مناطق عديدة شهدت فيما بعد فصولاً هامة من تاريخ الثورة. هكذا مررنا بسانتا آنا Santa Ana وهومبريتو Hombrito، وبعد بيكو فيردي Pico Verde وقفنا على بيت اسكوديرو في المايسترا، ثم تابعنا مسيرنا حتى «هضبة الحمار». اما اتجاهنا شرقاً فقد قمنا به للحصول على شحنة من الاسلحة قيل إنها ستصل من سانتياغو إلى هناك قريباً من اوروديغيا، في جوار «هضبة الحمار».

استغرقت مسيرتنا اسبوعين كاملين. وفي إحدى الليالي خرجت لقضاء حاجة طبيعية، فضللت طريقي ولبثت مدة ثلاثة ايام إلى أن التقيت أخيراً بالرفاق عند المكان المسمى اومبريتو. وفي هذه الايام الثلاثة لمست لمس اليد كيف اننا نحمل فوق ظهورنا كافة التجهيزات اللازمة كالملح والزيت الاساسيين والاطعمة المعلبة بما فيها الحليب وكل ما يلزم للنوم ولإيقاد النار، بالإضافة إلى اداة اساسية كان لي فيها ذلك الحين ملء الثقة: البوصلة. وإذ وجدتني هائماً استغثت بالبوصلة، غداة تلك الليلة الرهيبة، وظللت مسترشداً بها طوال يوم ونصف اليوم، كي يتبين لي بعدئذ انني ما زلت ضائعاً. ووصلت إلى بيت احد الفلاحين اخيراً،

---

(١) يقصد ثكنة فيرو البانيستية.

فقادوني إلى معسكر الجيش الثوري. وتأكد بعد ذلك أن استعمال البوصلة في إقليم متعرج ومتضرس كسييرا مايسترا لا يحدد الاتجاهات بدقة ولذلك يجب الاستعانة بدليل، أو بمعرفة وثيقة بالمنطقة، كما حدث فيما بعد، حين جاء دوري، بالضبط، لقيادة الاعمال العسكرية في منطقة أومبريتو.

تأثرت بالغ التأثر للقاء الحار الذي استقبلني به الرفاق لدى عودتي إليهم. وكانوا قد انتهوا في تلك اللحظة من محاكمة ثلاثة جواسيس حكم على أحدهم ويدعى نابوليس بالموت. وقد ترأس هذه المحكمة الشعبية الرفيق كاميلو.

كان عليّ، في تلك الايام، أن اقوم بواجباتي كطبيب تجاه الاهالي في كل قرية نحل بها، وتلك المهمة رتيبة بالنظر لقلة الادوية وتشابه الحالات السريرية: فقد كانت النساء اللائي هَرِمْنَ قبل الاوان يشتكين دوماً من تساقط أسنانهن، أما الاطفال فكانوا يعانون غالباً من انتفاخ بطونهم. وكانت أكثر الامراض شيوعاً الكساح والطفيليات وسوء التغذية، ولا زالت هذه الامراض سارية حتى الآن، ولكن نسبتها انخفضت كثيراً عن ذي قبل، فقد التحق هؤلاء الاطفال «بمدينة كاميلو تشيانفويغوس المدرسية»،[1] حيث استعادوا صحتهم واصبحوا اطفالاً آخرين يختلفون تمام الاختلاف عن تلك الهياكل الشاحبة التي عرفتها «بمدينتنا المدرسية» الرائدة.

ولن انسى طفلة شاهدت الاستشارات الطبية التي كنت أقوم بها لنساء المنطقة اللواتي دفعتهن دوافع شبه دينية لتقصي أسباب ما يشعرن به من أمراض. وقد كانت هذه الطفلة تصغي بانتباه إلى ما دار بيني وبين المريضات في ركن الكوخ الذي اتخذته عيادة لي. وما أن جاء دور امها حتى همست في اذنها قائلة: «اماه، إن هذا الدكتور يقول نفس الكلام لجميع المريضات». لقد كانت ملاحظة الطفلة صحيحة جداً، لأن معارفي الطبية لا تذهب بي بعيداً، لكن هؤلاء الفلاحات كن جميعاً يشتكين من أعراض متشابهة، ويروين من حيث لا يشعرن قصة حياة يمزقها الإرهاق والألم. وماذا كان يجدي آنذاك أن يقول الطبيب. إن بذل

(١) بنيت هذه المدينة المدرسية الرائعة عند سفح سييرا بعد انتصار الثورة.

الجهد مع سوء التغذية هو السبب المباشر في إصابة الأمهات الشابات الولودات بالإرهاق أثناء حملهن أوعية الماء من الجدول حتى البيت؟

إن هذا الإرهاق شيء لا تفسير له، ذلك أن المرأة لم تكف طوال حياتها عن حمل سطول الماء نفسها نحو المكان نفسه، وهي اليوم فقط تحس بالتعب والإعياء... ذلك أن أهل لاسييرا ينشاون على الطبيعة مثل النباتات البرية ويفنون قواهم سريعاً في حياة من الإرهاق الذي لا يرحم. وهناك، في وسط هذه الآلام نما في ضمائرنا الإيمان العميق بضرورة إحداث تغيير جذري في حياة الشعب، وتوضحت في أذهاننا فكرة الإصلاح الزراعي بشدة، وتحول شعار الامتزاج بالشعب من مجرد شعار نظري إلى جزء أساسي من كياننا.

أخذ الثوار والجماهير الفلاحية بالانصهار شيئاً فشيئاً في كتلة واحدة، دون أن يستطيع أحد القول في أي وقت من الدرب الطويل تمّ هذا الانصهار، وفي أية لحظة أصبح ما أعلناه حقيقة صميمية، وفي أية لحظة أصبحنا جزءاً لا يتجزأ من فلاحينا. وكل ما أعلم - فيما يخصني - أن هذه المعاينات الطبية لفلاحي سييرا مايسترا قد حولت قراري العفوي والرومانسي حتى درجة ما، إلى قوة أصفى وأصلب بما لا يقاس. ولم يشك أهالي سييرا مايسترا قط، هؤلاء الرجال والنساء، الصادقون والصابرون، في الدور العظيم الذي لعبوه في صياغة أيديولوجيتنا الثورية.

رقي الرفيق غييرمو غارثيا إلى رتبة نقيب في ذلك المكان، وعهد إليه باستقبال كل الفلاحين المستجدين في الجيش، ومن يدري، فلعل غييرمو نسي تاريخ ترقيته، ولكنني دونته في مفكرتي: السادس من أيار ١٩٥٧.

في اليوم التالي، تركتنا هايدي سانتا ماريا لإجراء بعض الاتصالات مزودة بتعليمات دقيقة من فيديل، وبعد ذهابها بيوم واحد وصلتنا أنباء اعتقال «نيكاراغوا»، الرائد إيغليسياس الذي كان مكلفاً بمهمة إحضار الأسلحة. وقد أحدث اعتقاله بلبلة كبيرة في صفوفنا، إذ كيف تصلنا الأسلحة إذاً؟ ومع ذلك تابعنا سيرنا في نفس الاتجاه قاصدين جبل بورو، حتى وصلنا إلى منخفض صغير قرب بينو دل اغوا، حيث وجدنا فسحة من الأرض مع مجموعة من الأشجار المهجورة في وسط سييرا مايسترا وكوخين مهجورين، وهناك اعتقلنا عريفاً من جيش العدو، قريباً من الطريق العام، اشتهر بجرائمه منذ زمن بعيد. وقد اقترح بعض

الرفاق أن يعدم،ولكن فيديل اعترض على ذلك، فاكتفينا بوضعه تحت حراسة بعض المجندين الجدد، وجردناه من بندقيته وحذرناه من محاولة الفرار مهددين إياه بالموت.

تحرك القسم الأكبر من رتلنا نحو جبل بورو للتأكد مما إذا كانت الأسلحة وصلت إلى المكان المحدد وشحنها في حال وصولها، وكانت مسيرتنا طويلة، لكننا أحسسنا أنها خفيفة لأن حملنا كان خفيفاً إذ تركنا حقائبنا المحملة في المعسكر مع العريف الأسير. ولم نحصل على نتيجة من سفرنا، فالأسلحة لم تصل، وهو تأخير عزوناه - طبعاً - إلى اعتقال نيكاراغوا. واشترينا كميات كبيرة من المؤن من متجر في المكان، ثم عدنا بحمولتنا التي حظيت باستحسان كبير بالرغم من انها لم تكن سلاحاً كما كان مفروضاً.

سلكنا في العودة نفس الطريق الذي أتينا منه بخطى بطيئة متعبة، وعلى طول مرتفعات سييرا، متخذين كل الاحتياطات عند اجتياز الاماكن المكشوفة. وفجأة سمعنا صوت طلقات نارية في اتجاهنا فقلقنا على الرفيق الملازم الاول غييرمو دومنغز - قائد فرقتنا واحد أفراد نجدة سانتياغو - الذي حثّ الخطى كي يسبقنا إلى المعسكر، واستعدينا لكل احتمال وارسلنا طليعة للاستكشاف. وبعد انتظار املاه الحذر عاد الكشافون يصحبهم رفيق يدعى فيابو من فرقة كريستنثيو، انضم إلى الجيش أثناء غيابنا. وقد أخبرنا بوجود قتيل في الطريق، وبان صداماً وقع مع الحرس وأن هؤلاء انسحبوا باتجاه بينو دل اغوا حيث يوجد تجمع أكبر للحرس. وتقدمنا بحذر كبير حتى عثرنا على الجثة التي كان من نصيبي التاعس أن أتعرف على ملامحها. كانت جثة غييرمو دومنغز وقد تعرى صدره وبدت على مرفقه الايسر فوهة طلق ناري وفي منطقة الفك العلوي الايسر طعنة حربة، وكان رأسه مهشماً بكل معنى الكلمة من جراء الطلق الناري الصادر فيما يبدو عن البندقية نفسها. وكان الرصاص يثقب جسد رفيقنا التاعس.

تصورنا الحادثة بعد تحليل القرائن كما يلي: جاء الحرس بحثاً عن عريفهم الأسير، فصادفوا دومنغز الذي كان يسبقنا مطمئناً إلى سلامة الطريق الذي مررنا منه البارحة فقط فأسروه وعند ذلك بلغتهم رجال كريستنثيو من الخلف، وأطلقوا عليهم النار فانسحبوا بعد ان اغتالوا

رفيقنا الفقيد دومنغيز.

إن بينو دل اغوا منشرة في وسط الجبل، والطريق المؤدي إليها عبارة عن ممر قديم تحمل عبره الأخشاب، وكان علينا أن نخترق هذا الممر ثم نتابع طريقنا الضيق. ولم يتخذ رفيقنا الفقيد الاحتياطات الضرورية عند اجتيازه الطريق فتعرَّض للاصطدام بالحرس، ولقي ذلك المصير السيء الذي كان تجربة استفدنا منها في مستقبل الايام.

* * *

ـ ١٤ ـ

وصول الأسلحة

ذبحنا جواد العريف الأسير في إحدى المناطق القريبة من منشرة بينو دل اغوا، إذ لم يكن هذا الجواد الرائع ليفيدنا في تنقلاتنا المتشابكة المتشعبة عبر سييرا مايسترا من جهة، كما اننا من جهة أخرى كنا في حاجة ماسة إلى غذاء. ومن الجدير بالذكر ان العريف قد أوصانا خيراً بالجواد، وقال إنه استعاره من صديق أعطانا صفاته لكي نعيد إليه جواده. ومع ذلك فقد استمتع ـ دون علم منه ـ بالوجبة الشهية والحساء اللذيذ المحضر بلحم هذا الجواد. لقد كان اللحم في لاسييرا وجبة غير عادية بالنسبة إلينا.

استمعنا اليوم عن طريق الراديو إلى أخبار الحكم على رفاق «غرانما» المعتقلين، كما سمعنا ان قاضياً واحداً هو القاضي اوروتيا Urrutia أعرب عن معارضته الخاصة لهذا الحكم، وقد كان هذا العمل المشرف سبباً مباشراً في دعوته للرئاسة المؤقتة للجمهورية. والحقيقة إن هذا الموقف كان بحد ذاته بادرة شريفة وباسلة، ولنعترف بأن هذه البادرة كانت تتطلب الشجاعة في مثل تلك الظروف. لكن هذا أدى بنا فيما بعد إلى تنصيب رئيس سيىء عاجز عن تفهم المواقف السياسية التي تلت انتصار الثورة، عاجز عن سبر غور ثورة لا تتفق مع عقليته الرجعية. إن خلقه ونفوره من تحمل مسؤولية المنصب الذي كان يشغله، قد جرّا علينا الكثير من التناقضات والصدامات التي اتضحت عندما أبعد عن

الرئاسة إزاء الرفض الشعبي الإجماعي الذي واجهه في أول احتفال بذكرى ٢٦ تموز.

في تلك الايام جاءنا رسول من سانتياغو يدعى اندريس يؤكد ان السلاح في أمان، وانه سينقل إلى الجبال في الايام القليلة القادمة، وذكر ان تسليم هذا السلاح سيتم في منطقة ما من الساحل عند منشرة للأخشاب يستثمرها الأخوة بابون، وان السلاح سيحضر إلى هناك بمساعدة هؤلاء السادة الذين كانوا يحسبون انهم سيحصلون على ربح كبير من هذه الخدمة المؤداة للثورة (وقد ابعدتهم التطورات التالية عن الثورة، كما ان أبناء احدهم اشتركوا في مؤامرة خيرون الفاشلة).

والغريب في الامر ان تلك الايام شهدت مجموعة من الاشخاص الراغبين في استغلال الثورة من أجل مصالحهم، إذ كانوا يقدمون بعض المساعدات الصغيرة لكي يبرروا لأنفسهم على ما يريدون في ظل النظام الجديد المنتظر. وقد كان هدف بابون الحصول على امتياز استثمار أخشاب جميع الغابات وطرد الفلاحين منها، وبذلك تتسع إقطاعية آل بابون...

انضم إلينا مؤخراً صحافي مجري المولد اميركي الجنسية من نفس طينة بابون يدعى اندروس سانت جورج ولم يكشف هذا الصحافي في اول الأمر إلا عن وجه واحد من وجوهه، اقلها قباحة، ذلك هو وجه الصحافي اليانكي، لكنه كان احد عملاء الاستخبارات الفيدرالية. وبصفتي الشخص الوحيد الذي يجيد الفرنسية في الجيش (لم يكن هناك من يتكلم الإنكليزية) فقد كلفت بمرافقته، ويجب ان اعترف بكل صدق انني لم اعرف حقيقة هذا الشخص الخطر إلا في مقابلة اخرى، وفي وقت لاحق، حيث بدا لي على حقيقته فتبين انه جاسوس وعميل سري.

مضينا على طول بينو دل اغوا حتى وصلنا إلى منابع بلاديرو Peladero كنا نتقدم في أرض شديدة الانحدار وعلى اكتافنا احمال ثقيلة حتى بلغنا غديراً يدعى دل انديو Del Indio حيث مكثنا يومين حصلنا خلالهما على بعض المؤن ونقلنا الاسلحة التي تلقيناها. ولقد انشأنا في الاماكن الصغيرة التي كنا نمر بها نوعاً من السلطة الثورية غير القانونية، وقد تعهد بعض الانصار بإخبارنا عن كل ما يجري من احداث وخاصة عن تحركات العدو. وكنا نعيش طيلة الوقت في الغابات.

وكنا نقع بمحض الصدفة من وقت لآخر على بعض البيوت فينتهز بعضنا الفرصة كي يبيتوا ليلتهم بين أربعة جدران، ولكن مجمل الفرقة كان يظل تحت حماية الأحراج. أما في النهار فقد كان الجميع يحتمون بسقف من أغصان الأشجار.

كان ألد أعدائنا في هذا الوقت من السنة حشرة الماكاغويرا، وهي نوع من الذباب سُمّي بهذا الاسم - على الأغلب - لأنه يبيض ويفرخ في الماكاغوا. وهي تتكاثر في هذا الوقت من العام في الغابات، ومن شأن لدغة هذا الذباب إذا حكت - بالإضافة إلى قذارة أجسامنا - أن تتورم وتتحول إلى دمامل، وقد كانت الأجزاء المكشوفة من أجسامنا كالسيقان والمعصمين والعنق عرضة لهجوم الماكاغويرا اللعينة.

وأخيراً، جاءت أخبار السلاح في الثامن عشر من ايار، وقد أحدثت هذه الأخبار ضجة كبيرة في المعسكر، إذ أن الخبر انتشر بسرعة في وقت كان فيه كل المحاربين ينتظرون بفارغ الصبر تحسين التسليح. كان كل واحد يغذي الأمل الدفين بالحصول على شيء ما، ربما ليس سلاحاً جديداً تماماً، لكن سلاحاً على الأقل، جيداً أو رديئاً، هذا السلاح الذي لن يتخلف القدماء من بيننا عن الاستغناء عنه كي يحصلوا على السلاح الجديد الذي هو من حقهم.

ووصلتنا أخبار أخرى تفيد بأن الشريط الذي أعده الصحافي بوب تابر عن سييرا مايسترا قد عرض في الولايات المتحدة، وأحدث عرضه أثراً عظيماً. وقد ابتهج الجميع لهذا النبأ عدا أندروس سانت جورج. فمهما يكن الرجل عميلاً للاستخبارات الأميركية، فإن له قلبه الصحافي الصغير، وقد أحسَّ أن حقه جُحِف. وقد سافر مغتاظاً في الغداة إلى سانتياغو دي كوبا.

في ذلك الوقت بالذات حين بلغنا خبر المكان الذي خبىء السلاح فيه فر رجل من جيشنا، وكان فراره مصدر تهديد لنا، إذ كان الجميع في المعسكر مطلعين على خبر وصول السلاح. أرسلنا دوريات في طلبه، فعادت بعد أيام لتخبرنا بأنه تمكن من ركوب باخرة متجهة إلى سانتياغو، وكان استنتاجنا المنطقي آنذاك أن الرجل ذهب ليخبر الأعداء بمكان الأسلحة، ولكن الأيام بينت أن هذا الرجل هرب بكل بساطة لأنه شعر أنه عاجز، جسدياً ومعنوياً، عن تحمل تقلبات حياتنا ومشاقها.

ومهما كانت الظروف فقد كان يجب علينا أن نبالغ في الاحتياط. كان يجب علينا أن نقوم، برصد القصور الجسماني والايديولوجي والمعنوي لدى المناضلين، بنضال يومي لا يفتر، ولكن النتائج لم تكن دائماً مرضية، وكثيراً ما كان الرجال يطلبون الانسحاب، لدوافع تافهة جداً، وفي حالة رفض هذا الطلب يحدث ما حدث اليوم. ومن الجدير بالذكر أن الجميع كانوا يعلمون أن عقوبة الفرار هي الموت الذي ينفذ فور اعتقال الهارب وفي مكان اعتقاله.

استمتعنا في تلك الليلة بأكثر مشاهد الحياة روعة، فقد وصلت الأسلحة واستعرضها الرجال ـ هذه الأدوات التي تزرع الموت ـ بعيونهم المشتاقة. كانت تتألف من :ثلاثة مدافع رشاشة من ذوات القوائم الثلاث، وثلاث بنادق رشاشة مادزن، وتسع بنادق M-1، وعشر بنادق آلية جونسن، بالإضافة إلى حوالي ستة آلاف قذيفة. وقد وزعت هذه الأسلحة على المناضلين حسب كفاءتهم وقدمهم في سييرا، فنال «الرائد الحالي» راميرو فلديس بندقية M-1 وهو السلاح المفضل لدى المقاتلين، واعطيت بندقيتان من نفس النوع للطليعة التي يقودها كاميلو، أما بقية بنادق M-1 فقد رصدت للمحافظة على الرشاشات ذات القوائم. وسلمت إحدى بنادق المادزن لكتيبة النقيب خورخي سوتوس، وسلمت الثانية لكتيبة النقيب الميدا، بينما احتفظت هيئة الأركان بالثالثة، وقد كلفت شخصياً لاستعمالها. أما المدافع ذات القوائم فقد اصابها كل من راوول وغييرمو غارثيا وكريستثيو بيريز. وهكذا بدأت حياتي الجديدة كمحارب دائم.

لقد حدث لي حتى الآن أن أقاتل أحياناً، لكنني كنت طبيب الفرقة قبل كل شيء. وهكذا بدأت مرحلة جديدة بالنسبة إلي في سييرا.

ولن أنسى اللحظة التي استلمت فيها الرشاش الرديء القديم الذي بدا لي في تلك الظروف كأحسن ما يكون السلاح. وقد ألحق بي أربعة مساعدين لاستعمال الرشاش، وقد سلك كل منهم طريقاً مختلفة، فقد أعدمت الثورة اثنين منهم ـ وهما الأخوان بوبو ومانولو بياتون ـ لأنهما قتلا الرائد كرنشيو نارانخو. ولقد هربا إلى الجبال الشرقية ولبثا معتصمين فيها إلى أن اكتشفهما أحد الفلاحين واعتقلهما. وأما ثالث المساعدين فقد كان فتى في الخامسة عشرة من عمره يدعى خويل

إيغليسياس Iglesias، وكانت مهمته حمل مخازن الرشاش الثقيلة، وقد أصبح اليوم ملازماً أول في الجيش الثائر ورائداً في الجيش. أما الرابع والأخير فقد أصبح اليوم ملازماً أول في الجيش الثائر ويدعى أونيانيي، غير أن حبنا وإعجابنا به جعلنا نلقبه بكانتيفاس Cantifas[1]. لم يضع حضور الأسلحة نهاية لملحمتنا، بل كان لا بدَّ للفرقة أن تنمو بعد في القوة الايديولوجية والحمية القتالية. فبعد ايام قليلة، في ٢٣ ايار، اضطر فيديل إلى إصدار قائمة جديدة من التسريحات لتطهير الجيش من العناصر الضارة أو العاجزة، وقد تناول التسريح فيما تناوله سرية بأكملها من أصغر جندي حتى القائد. وقد تقلص عدد الرجال بعد ذلك إلى مائة وسبعة وعشرين رجلاً يحمل معظمهم السلاح، ويعتبر ثمانون منهم مسلحون تسليحاً جيداً.

لم يبق من السرية سوى رفيق واحد يدعى كروثيتو، وقد عاش بيننا بعد ذلك وحاز حبنا جميعاً. كان هذا الرفيق شاعراً مطبوعاً، وكانت له صدامات شعرية طويلة مع شاعر المدينة ورفيق غرانما كاليكستو مورالس الذي أطلق على نفسه لقب عندليب الحقول. ومن اطرف ما انشد كروثيتو عن كاليكستو، قصيدة ريفية تتخللها لازمة ثابتة بعد كل عشرة أبيات، وكانت اللازمة موجهة إلى كاليكستو مباشرة وتدعوه ببغاء الجبل.

وضع هذا الرفيق المدهش تاريخ الثورة بأسره، منذ مغادرتنا لغرانما حتى ذلك الوقت، في قصائده التي كان ينظمها في أوقات الراحة وهو يدخن غليونه. وقد اضطر إزاء نفاد مخزون الورق لدينا إلى حفظ ما ينظمه من أشعار. وشعرنا - بعد أن فقدناه في معركة بينو دل اغوا - كأن ذاكرتنا انفصلت عنا.

استفدنا في منطقة صناعة الأخشاب من المساعدة القيمة التي قدمها لنا أنريكي لوبز الشيخ الذي يعرف راوول وفيديل منذ نعومة أظفارهما، والذي كان آنذاك عاملاً لدى الأخوة بابون، وكان يقوم باستطلاعات واتصالات مفيدة لتأمين حاجياتنا ولتمكيننا من التحرك بأمان في مناطق الخطر لانه كان يعرف المنطقة كما يعرف جيوبه الخاصة. كانت تمر في تلك المنطقة شبكة كبيرة من طرق المواصلات المستعملة من طرف

(١) كانتيفاس: الممثل الكوميدي الأول في الدول الناطقة بالإسبانية، وهو مكسيكي.

العدو، وقد نصبنا عدة كمائن لقوافله بغية الاستيلاء على بعض السيارات، فلم نظفر بشيء، ولعل ذلك جاء في مصلحتنا، من أجل نجاح معركة الأوفيرو El Uvero التي كانت أكبر صدمة نفسية أصابت العدو خلال الحرب.

وصلتنا أخبار في الخامس والعشرين من أيار عن وصول اليخت كورينتيا إلى ماياري Mayari حاملاً مجموعة من الرجال بقيادة كاليكستو سانتشث، ولم تمض أيام حتى بلغتنا أنباء المصير الرهيب الذي واجهته هذه الحملة. كان بريو Prio[1] يرسل رجاله إلى الموت من غير أن يكلف نفسه عناء مرافقتهم. وعندما وصلتنا أنباء هذه الحملة وجدنا أنفسنا مرغمين على الاصطدام بالعدو لنجتذبه نحونا، ونتيح الفرصة لأفراد تلك الحملة للتجمع والعمل. وكان ذلك كله بدافع التضامن مع القوى المناهضة لنظام الطاغية، ودون أن نعلم شيئاً عن التركيب الاجتماعي لهذه الحملة أو عن أهدافها الحقيقية. عندئذ دارت مناقشة هامة كان عمادها كاتب هذه السطور وفيديل، فقد كنت أرى أن نعمد إلى نصب الكمائن لجنود العدو على الطريق حيث تعودوا أن يروحوا ويجيئوا دون تيقظ، غير أن فيديل كان قد وضع خطة الاستيلاء على موقع أوفيرو، فاصر على تنفيذ هذه الفكرة، بالنظر لأهميتها وللنتائج النفسية العظيمة التي ستترتب عنها، والتي لا يمكن مقارنتها بتلك التي يحدثها نصب كمين عادي لعربة جنود، هذا بالإضافة إلى أن السلطة لن تستطيع إخفاء مثل هذا الهجوم، بينما يمكنها بكل سهولة أن تتستر على خبر الكمين، وتعزو موت ضحاياه إلى حادث سير عادي. ومع أن هذا التزييف قد يثير بعض الشكوك في نفوس المواطنين، إلا أن هذا لن يدلهم أبداً على مدى قوتنا وحقيقة وجودنا. ولا يعني تنفيذ خطة الهجوم على أوفيرو التخلي نهائياً عن فكرة نصب الكمائن لعربات الجنود في الظروف الملائمة، بل يعني أنه لا ينبغي أن تحتل هذه العمليات وحدها

---

(1) بريو سو كاراس، قائد الحزب الحقيقي ورئيس الجمهورية الكوبية من ١٩٤٨ حتى ١٩٥٢. وقد هاجمه فيديل كاسترو بشدة بسبب اختلاساته المتعددة. وقد أطاح به انقلاب باتيستا في ١٠ آذار ١٩٥٨، فلجأ إلى الولايات المتحدة ولم يتوقف مع أنصاره عن شراء الأسلحة وتكديسها دون أن يستخدموها قط. وهو مقيم في ميامي حالياً.

مركز الصدارة في نشاطنا الحربي.

والآن، وبعد انقضاء أعوام على تلك المناقشة التي انتهت بتأكيد اقتراح فيديل دون أن يتمكن من إقناعي بصحة رأيه، لا أجد بُداً من الاعتراف بصواب محاكمته، وبأن نتائج الإيقاع ببعض عربات الجيش الباتيستي في كمائننا لا يمكن أن تكون على جانب كبير من الأهمية. والحقيقة أن التطلع إلى خوض المعارك كثيراً ما كان يدفعنا إلى اتخاذ بعض المواقف العاجلة دون أن نتحلى بالصبر، وأحياناً دون تقدير الملابسات البعيدة لتلك المواقف. ولعلنا ما كنا نملك كذلك عن نضالنا تلك الرؤيا التي تقود فيديل نحو أهداف أبعد. ومهما كان الأمر، فقد باشرنا بالاستعدادات النهائية للقيام بعملية أوفيرو.

* * *

ـ ١٥ ـ

معركة أوفيرو

(٢٨ أيار ١٩٥٧)

بعد أن عيّنا موقع الهجوم، أصبح لزاماً علينا أن نضع خطة ذلك الهجوم بالتفصيل، وقبل ذلك علينا أن نحل بعض المشاكل الهامة المتعلقة بمعرفة عدد جنود المواقع وعدد مراكز الحراسة، وطرق الاتصال المستعملة، والطرق المؤدية إلى الموقع، وكيفية توزع السكان المدنيين، إلى غير ذلك من المعلومات الاساسية. وقد قام الرفيق كالديرو الذي أصبح رائداً في الجيش الثائر بحل هذه المشاكل على أكمل وجه. وإذا كانت ذكرياتي صحيحة فإن كالديرو هو صهر مدير المنشرة.

كانت لنا أسباب موجبة تحملنا على الاعتقاد بأن العدو يملك معلومات عن وجودنا في المنطقة، وذلك بعد أن ألقينا القبض على جاسوسين يحملان هويات شخصية، فاعترفا بانهما مبعوثان من طرف كاسيلاس لاستكشاف مراكز الثوار واماكن تجمعهم. وقد كان منظر هذين الجاسوسين اللذين يطلبان الرحمة يبعث على الاشمئزاز حقاً، وكان محزناً في الوقت نفسه. ولكن قوانين الحرب القاسية التي لا يمكن تجاهلها اقتضت أن يعدم الجاسوسان في اليوم التالي.

وفي اليوم نفسه ـ السابع والعشرين من أيار ـ عقدنا مجلساً عسكرياً حضره جميع الضباط، بالإضافة إلى هيئة الاركان. وقد أعلن فيديل في هذا المجلس باننا مقدمون على القتال خلال الثمانية والأربعين

ساعة القادمة، وانه يجب علينا تنظيم صفوفنا استعداداً للمعركة، ولم يزودنا في تلك اللحظة باية تعليمات.

لم يكن بدٌ أن يكون كالديرو دليلنا، إذ هو يعرف جيداً مركز اوفيرو وجميع مداخله ومخارجه وطرق الوصول إليه. وخرجنا في الليل متجهين نحو اوفيرو، وقد سرنا مسافة طويلة، لكنها منحدرة كلها، وكانت تبلغ ستة عشر كيلو متراً عبر الطرق الممهدة التي اقامتها شركة بابون، واستغرقت رحلتنا مدة ثماني ساعات كاملة استوجبتها الاحتياطات الفائقة التي كان لا بدّ لنا منها أثناء اقترابنا من منطقة الخطر. وأخيراً أعطيت الأوامر بالهجوم، وكانت في غاية البساطة، تقضي بالاستيلاء على مراكز الجنود وصب النيران الكثيفة على البراكات الخشبية.

كنا نعلم أن الدفاع عن الثكنة ضعيف، وكانت أقوى النقاط دفاعاً هي مراكز الحراسة المكونة من ثلاثة أو أربعة جنود لكل مركز، والموزعة بإحكام خارج الثكنة. وكان هنالك تل مشرف على الثكنة، وهو موضع مثالي احتلته هيئة الاركان لتقود المعركة من قمته. وقد تمكنا بسهولة من أن نقترب إلى مسافة أمتار معدودة من الثكنة عبر الغابة المجاورة بعد أن تلقينا تعليمات صارمة بعدم إطلاق النار على مساكن الاهالي التي يقطنها الأطفال والنساء، ومن بينهم زوجة المدير التي علمت مسبقاً بخبر الهجوم ورفضت أن تغادر المنطقة مخافة إثارة الشكوك. وقد كانت مساكن الأهلين دائماً موضع اهتمامنا الاكبر، كلما خرجنا لشن هجوم على مراكز العدو.

كانت ثكنة اوفيرو واقعة على شاطىء البحر، الأمر الذي سهل علينا مهمة الاستيلاء عليها، إذ يكفينا أن نهاجمها من الجهات البرية الثلاث. تكلفت زمرتا النقيبين خورخي سوتوس وغييرمو غاتيبا بمهاجمة المركز القائم على الطريق القادم من بلاديرو بمحاذاة الشاطىء وهو الطريق الذي أتينا منه، وكلف الميدا بمهاجمة المركز المواجه للجبل، والواقع - بصورة تقريبية - شمالي الثكنة، وبقي فيديل في قمة التل المشرف على الثكنة، بينما كلف راوول مع زمرته بالهجوم على واجهة الثكنة الرئيسية، أما انا فقد عين لي مركز ثابت في منتصف المسافة بين الثكنة والتل وزودت بالمدفع الرشاش وبالمساعدين الاربعة. وكان من ضمن الخطة أن يتقدم كاميلو واميخيراس نحو الثكنة بصورة تضعهما في الواقع بين

مركزي ومركز راوول، غير انهما اخطأا موقعهما في ظلام الليل فخاضا المعركة وهما متمركزان إلى يساري بدلاً من يميني كما هو مرسوم. اما كريستنثيو بيريز فقد توجه إلى الطريق الذي يربط ما بين اوفيرو وتشيفيريكو ليقطع الطريق على اية نجدة يمكن أن تاتي من هناك.

كنا نقدر أن العملية ستتم خلال فترة قصيرة جداً بفضل المفاجأة التي ستذهل العدو، غير أن الوقت أخذ يمر دون أن نتمكن من التمركز وفقاً للخطة النظرية الموضوعة بناءً على إفادات الدليلين كالديرو واليخيو مندونا الذي كان من ادلاء المنطقة ايضاً، وبدا السَحَر يتغلغل في الافق ونحن لم نصبح بعد في مراكز تمكننا من تفاجيء العدو كما حسبنا من قبل. واخبرنا سوتوس بانه لا يستطيع من مركزه ان يتحكم في النقطة المحددة له، ولكن الاوان كان قد فات من أجل اتخاذ إجراءات جديدة. وحين أطلق فيديل الرصاص من بندقيته ذات المنظار، انكشفت الثكنة على ضوء الطلقات النارية ووجدت نفسي فوق مرتفع صغير يشرف تمام الإشراف على الثكنة، غير ان الثكنة بقيت بعيدة عن متناول الرشاش فاضطررت للتقدم بحثاً عن مركز أنسب. وتقدم الجميع نحو الثكنة، واقترب الميدا من مركز الدفاع عن باب الثكنة، ولمحت عن يساري قبعة كاميلو ومنديله الملفوف حول عنقه فبدت في الليل كقبعة جنود اللفيف الاجنبي، ولكن بشعار «الحركة». واستمر تقدمنا في غمرة المعركة متخذين جميع الاحتياطات التي يتطلبها هذا النوع من القتال.

انضم إلى مفرزتنا الصغيرة بعض الرفاق الذين انفصلوا عن وحداتهم الاصلية، ومن بينهم رفيق من مدينة بيلون يدعى بومبا، والرفيق ماريو ليال، والرفيق اكونيا. واشتدت مقاومة العدو عندما بلغنا المنطقة المكشوفة المنبسطة التي يجب ان نتقدم عبرها بحذر بالغ متفادين طلقات العدو المتلاحقة الكثيفة. وكانت الثكنة لا تبعد عني إلا خمسين او ستين متراً عندما خرج جنديان من الخندق المواجه، وقد رميتهما ولكنهما افلتا والتجأا إلى بيوت الاهالي التي كانت ارضاً حراماً في نظرنا.

واقتربنا من الثكنة حتى لم يبق بيننا وبينها سوى بقعة صغيرة خالية تماماً من الاعشاب التي تساعدنا على تمويه مواقعنا، وكانت نيران العدو تعج حوالينا. وعند ذلك سمعت صيحة الم شديدة تنبعث في قلب المعركة من مكان قريب مني، حسبتها صادرة عن احد جرحى العدو،

فزحفت مقترباً منه وامرته بالاستسلام، ولكني فوجئت عندما وجدت أن الجريح لم يكن غير الرفيق ليال الذي اخترقت رأسه رصاصة، واجريت كشفاً سريعاً على الجرح فوجدت انه يتالف من فتحتين في مؤخرة الجمجمة سببهما دخول الرصاصة ثم خروجها، وسرعان ما فقد ليال وعيه، وبدأ الشلل يستولي على طرفيه من جهة واحدة، ولم يكن لدي أي ضماد فاضطررت لتغطية الجروح بقطعة من ورق ثم تركت الرفيق الجريح في رعاية فويل إيغليسياس وعدت لمواصلة القتال. وبعد قليل سقط الرفيق اكونيا جريحاً، أما نحن فقد كنا نرمي الخندق المواجه لنا، وقد حزمنا الأمر على الانقضاض عليه، والحقيقة إن تدمير مقاومة هذا الخندق كان الطريق الوحيد للاستيلاء على الثكنة. وكنا نجمع شجاعتنا وعزمنا لمهاجمته حين استسلمت الثكنة.

لم تستغرق رواية قصة المعركة مني سوى دقائق معدودات، أما المعركة الفعلية فقد دامت ساعتين وخمساً واربعين دقيقة، منذ طلقة النار الاولى حتى اللحظة التي نجحنا فيها في الاستيلاء على الثكنة.

ومن الجدير بالذكر أن فيكتور موران ومجموعة من الرجال قد اعتقلوا جميع الجنود الذين صمدوا في وجه هجومنا الاخير، كما أسرنا جندياً استسلم هارباً من الخندق الذي كان يواجهنا، كل هذا وسط صيحات الاستسلام التي كانت تتعالى من كل جانب، وهجمنا على الثكنة التي انطلقت منها آخر زخة من نيران الرشاشات. وفي هذه اللحظة الأخيرة أودت رصاصة بحياة الملازم الاول نانو دبياز.

ودخلنا إلى المنطقة السكنية حيث اعتقلنا الجنديين اللذين هربا في قلب المعركة من وجه رشاشنا والطبيب العسكري ومساعده. وقد كان الطبيب رجلاً أشيب الشعر هادىء الطباع - ولست على علم الآن بما حدث له بعد المعركة وما إذا كان قد انضم إلى الثورة ام لم ينضم - وكان أقل ما يقال في لقائي معه انه كان لقاء غريباً، كان عدد الجرحى فوق طاقتي، خاصة وانني - من جهة - موزع الجهود بين واجبي كطبيب وكمحارب، وأن معلوماتي الطبية - من جهة أخرى - ليست على جانب كبير من الاتساع: فطلبت من ذلك الطبيب أن يهتم بامر الجرحى، ولكنه باغتني بالسؤال عن عمري وعن مدة عملي في حقل الطب، فاجبته بأن خبرتي لا تتجاوز بضعة أعوام، فما كان منه إلاّ أن خاطبني قائلاً:

«اسمع أيها الفتى، اهتم أنت بهؤلاء الجرحى لأنني عديم الخبرة ولم أبدأ عملي إلاّ منذ وقت قريب». لقد نسي الرجل المسكين، بين افتقاره إلى التجربة والخوف من الوقوع في الأسر، كل كلمة يعرفها عن فن الطب، الأمر الذي دعاني إلى طرح البندقية جانباً واتخاذ مسوح الأطباء الذي كان يقتصر في ذلك الوقت على غسل اليدين.

كانت هذه المعركة من أشد معارك الحرب قسوة، وبعد انتهائها مباشرة مضينا نربط بين أحداثها كما رواها الرفاق كل على حدة، فأمكن تكوين صورة جامعة عنها، بينما لم أفعل حتى الآن سوى الحديث عن مشاركتي الشخصية. وهذه هي الوقائع بصورة تقريبية.

بمجرد أن انطلقت إشارة البدء من فيديل، تقدم جميع المناضلين نحو الأهداف الثابتة المعينة لكل مجموعة حسب الخطة المسبقة، وأطلق العدو نيرانه المعاكسة الكثيفة مركزاً الرمي على التل الذي يحتله قائدنا، ويدير منه المعركة. وفي بداية العملية سقط خوليو دياز صريعاً بجانب فيديل نتيجة رصاصة أصابته في رأسه. ومضت دقائق طويلة من غير أن يتم القضاء على المقاومة الشديدة التي أبداها العدو. وكانت أقسى المهمات، في الوسط، هي مهمة النقيب الميدا المكلف بتصفية مركز الحراسة مهما كلف الأمر، كي يفتح الطريق أمام زمرته وزمرة راوول للتقدم نحو الثكنة.

وقد قص علينا الرفاق كيف أن إيليخيو مندوثا حمل بندقيته ورمى بنفسه في حماة المعركة. كان رجلاً مؤمناً بالأوهام، وكان يحمل «أيقونة» تحميه. وعندما طلب منه الرفاق أن يحتاط لنفسه أجابهم بأن «قديسه» سيحميه من كل مكروه، ولكن القديس لم يحمه من رصاصة أصابته بعد دقيقتين أو ثلاث دقائق فكسرت جذعه وأردته قتيلاً. وهكذا رد العدو المحتمي خلف خنادقه هجومنا وكبدنا خسائر جمة، وجعل تقدمنا نحو المنطقة المركزية صعباً جداً. وقد حاول سوتوس بصحبة رفيق كنا نلقبه «بالشرطي» أن يلتف حول العدو، ولكن رصاص العدو قتل الشرطي فاضطر سوتوس للقفز في البحر ناجياً من موت محقق، الأمر الذي عطل مشاركته في المعركة. وتابعت زمرته محاولاتها للتقدم، ولكنها فشلت أمام مقاومة العدو. وخسرت رفيقاً فلاحاً يدعى فينا على ما أذكر، كما أصيب مانلس في إحدى رئتيه، وأصيب كيكي إيسكالونا

بثلاثة جروح في ذراعه ومؤخرته ويده. فقد كان جنود المركز المحتمون خلف ستار محكم من الأعمدة الخشبية يطلقون نيراناً غزيرة من رشاشاتهم وبنادقهم نصف الآلية زارعين الموت في صفوفنا. عندئذٍ أصدر الميدا أوامره للقيام بهجوم نهائي بغرض القضاء على الجنود الذين يقفون في وجهه، فنتج عن ذلك أن قتل الرفيق مول وأصيب كل من الرفاق ثيليبيروس، وماثيو، وهرمس ليفا، وبنيا، كما أصيب الميدا نفسه في مرفقه وساقه اليسرى، ومهما يكن من أمر، فإن هذا الهجوم اليائس قد قضى على المركز وفتح طريق الثكنة على مصراعيه. ومن جهة أخرى فقد صرع رشيش غييرمو غارثيا ثلاثة من جنود الحامية وحمل جندياً رابعاً على الفرار حيث سقط قتيلاً في منتصف الطريق، وفي نفس الوقت زحف راوول على الثكنة بسرعة بعد أن قسم كتيبته إلى قسمين. والحقيقة أن النقيبين الميدا وغييرمو غارثيا قد حددا اتجاه المعركة باستيلائهما على المركزين اللذين كلفا بهما ومهدا بذلك للزحف النهائي. ويجدر بنا أن ننوه بعمل الرفيق لويس كريسبو الذي ترك مواقع هيئة الأركان ونزل للمشاركة في الزحف. انهارت مقاومة العدو، ورفع جنود الثكنة العلم الأبيض، فاتجهنا نحوهم للاستيلاء على الثكنة، ولكن أحد المقاتلين - من جيشنا على أكبر تقدير - أطلق الرصاص عليهم، فردوا بعاصفة من النار، حصدت حياة نانو دييات الذي طالما أوقع رشيشه الرعب في صفوف العدو.

لم تشترك كتيبة كريستنيو بنصيب كبير في القتال نظراً لحدوث استعصاء في مدفعها الرشاش، ولتفرغها لحراسة طريق تشيفيريكو. وقد تمكنت، مع ذلك، من أسر بعض الجنود الذين حاولوا الفرار من ذلك الطريق، وانتهت المعركة بعد ساعتين وخمس وأربعين دقيقة من غير أن يصاب أي مدني بالرغم من كثافة الرصاص وضراوة القتال.

أجرينا إحصاء لنتائج المعركة فكانت كما يلي:

قتل من جانبنا ستة رفاق هم: مول، نانو دييات، فيغا، الشرطي، خوليو دييات، وإيليخيو مندوثا، كما أصيب كل من ليال وثيليبيروس بجراح بليغة، وأصيب بجراح تتفاوت في الخطورة كل من الرفاق، ماثيو المصاب في ذراعه، وهرمس ليفا المصاب في صدره، والميدا المصاب في ذراعه وساقه اليسرى، وكيكي إيسكالونا المجروح في ذراعه ويده

اليمني، ومانلس المصاب في رئته دونما بوادر خطيرة، وبلينا المصاب في إحدى ركبتيه، ومانويل أكوينا المصاب في ذراعه اليسرى. والخلاصة أننا رزئنا بخمسة عشر رفيقاً. أما العدو فقد خسر أربعة عشر قتيلاً وتسعة عشر جريحاً وأربعة عشر أسيراً، وقد تمكن ستة جنود من الفرار، وعلى ذلك يبلغ مجموع قوات العدو ثلاثة وخمسين رجلاً بقيادة الملازم، الذي رفع راية الاستسلام بعد أن جُرح.

إذا علمنا أن عدد جنودنا بلغ ثمانين رجلاً وأن جنود العدو ثلاثة وخمسون لوجدنا أن المعركة دارت بين ١٣٣ رجلاً أخرج ثمانية وثلاثون منهم، أي أكثر من الربع من القتال خلال ساعتين ونصف الساعة من المعركة. وقد كانت المعركة عبارة عن هجوم مكشوف وانتحاري على رجال لا تتوافر لديهم الإمكانيات الكاملة للدفاع، ويجب الاعتراف بأن كلا الطرفين قد أتى ضروباً رائعة من البطولة.

أما نحن فقد كانت هذه المعركة نصراً ترك أثره العظيم في نفوسنا طيلة الحرب وسجل بلوغ قواتنا الغوارية سن النضج. فقد ارتفعت معنوياتنا ارتفاعاً رائعاً، وأصبحنا أشد عزماً على النصر من أي وقت مضى، وكبر في نفوسنا الأمل في النصر النهائي. وبالرغم من أننا شهدنا في الأشهر التالية ظروفاً عصيبة وشديدة، إلا أن نصرنا هذا مكننا من تحملها، بالنظر لأننا كنا نملك سر النصر على العدو. ولقد دق هذا النصر ناقوس الثكنات العدوة الصغيرة الواقعة بعيداً عن التجمعات الكبرى، وقد أبدناها في وقت قصير[1].

قطعت الرصاصات الأولى للمعركة الاتصال الهاتفي مع سانتياغو، ولذلك لم تتح الفرصة لتدخل الطيران في المعركة، وقد حلقت إحدى الطائرات مرة أو اثنتين فوق ساحة المعركة، ولكنها لم تستنجد بالطيران، ولم تصل طائرات الاستطلاع إلا بعد انتهاء المعركة والتحاقنا بالجبال. ولعله من الطريف أن أشير إلى أن من بين ضحايا المعركة ثلاث ببغاوات من بين الببغاوات الخمس التي كان الجنود يحتفظون بها داخل الثكنة. وحين تفكر في الحجم الصغير لهذا الحيوان تستطيع أن تتصور الكثافة الشديدة التي كانت النيران عليها.

(١) أخلى العدو بعد معركة أوفيرو جميع المناطق الساحلية للسييرا.

كانت عودتي إلى ممارسة مهامي الطبية من أشد لحظات عمري دقة وانفعالاً. وكان أول جريح عالجته الرفيق ثيلييروس بسبب خطورة حالته، إذ كان مصاباً برصاصة كسرت ذراعه اليمنى، ثم اخترقت رئته واستقرت في عموده الفقري فشلّت حركة رجليه. وقد أعطيته دواء مهدئاً، وأحكمت ضغط قفصه الصدري لكي يتحسن تنفسه، وبذلت قصارى جهدي لإنقاذه، ثم تركناه مع الرفيق ليال تحت رحمة العدو في رعاية الطبيب الذي وعدنا وعد شرف بالمحافظة عليهما، فلم يكن في مقدورنا اصطحاب الأسرى الأربعة عشر. وقد همست إلى الرفيق ثيلييروس بكلمات المواساة والتشجيع، فرد علي بابتسامة حزينة تحمل من المعاني ما لا يحمله الكلام، وتعبر عن اعتقاده بأن كل شيء قد انتهى بالنسبة إليه. وشعرت برغبة شديدة في طبع قبلة وداع على جبين الرفيق العزيز، غير أن هذا التصرف - من طرفي على وجه الخصوص - لم يكن ليعني غير شيء واحد هو تأكدي من مصيره المحتوم، مما جعلني أتراجع عنه، خشية أن أسيء إلى الرفيق في آخر لحظات حياته بتأكيدي للحقيقة المرة التي يدركها هو نفسه بما يشبه اليقين. وانسحبت برفق، والألم يعصف بي بسبب اضطرارنا لترك الرفيقين بين يدي العدو، بالرغم من أنهما أصرا على مرافقة الجيش لكي يموتا بين رفاقهما. فقد كان علينا أن نتحمل كل شيء للمحافظة على حياتهما، وهكذا تركناهما مع الجرحى التسعة عشر من جنود الجيش الباتيستي الذين لاقوا منّا كل عناية أتاحتها إمكانياتنا، وقد عامل العدو رفيقينا معاملة حسنة، ولكن ثيلييروس مات قبل أن يصل إلى سانتياغو، أما ليال فقد شفي من جراحه، وعاش أسيراً في جزيرة دي بينوس De Pinos بقية أيام الحرب، ولا زال إلى الآن حياً يرزق، ولكنه يحمل أبلغ الآثار من تلك اللحظة الحاسمة في تاريخ حربنا الثورية.

خرجنا من اوفيرو بعد أن حملنا إحدى عربات بابون بالمؤن والأدوية، واتجهنا إلى ملاجئنا في الجبال. وصلنا في وقت مبكر، بحيث تمكنا من بذل العناية للجرحى ومن دفن قتلانا في أحد منعطفات الطريق. وقدرنا أن العدو سيلاحقنا بأعداد ضخمة، ولذلك تقرر أن يبتعد الجيش قدر الإمكان، ليحتفظ بمسافة كبيرة بينه وبين قوات العدو، بينما أمكث أنا مع الجرحى، ويبقى معي جمع من الرفاق لمساعدتي على حمل

الجرحى ولتامين الاتصال اللازم للحصول على الأدوية. ومن بين هؤلاء الرفاق أنريكي لويث المكلف بتنظيم التنقل والبحث عن المخابىء.

كان الفجر قد أشرق والرجال مستغرقون بعد في رواية وقائع المعركة منصرفين عن النوم، وحتى أولئك الذين ناموا كانوا يهبون من نومهم في غفوة قصيرة وينضمون إلى الحلقات ليقصوا بطولاتهم أو الأعمال التي وقعت أمامهم. ودفعني الفضول إلى إحصاء عدد قتلى العدو حسبما يرويه الرفاق، فوجدت أن هذا العدد يفوق بكثير عدد أفراد الفرقة التي حاربتنا، فقد كان خيال الرفاق ينمق رواياتهم بالمبالغة. وهذه الحادثة مع كثير غيرها حملتنا على اشتراط سماع الحقائق من أكثر من شخص واحد حتى نتيقن من صحتها، بل ذهبنا إلى أبعد من ذلك فكنا نطلب من كل من يزعم أنه قتل جندياً من العدو أن يبرز دليلاً مادياً من لباس القتيل ليثبت صحة روايته. فالحقيقة والصدق سمتان أساسيتان في تعاليم الجيش الثائر، وقد عملنا دائماً على ترسيخ احترامهما في نفوس الرفاق وإقناعهم بان يتوخوهما في كل المناسبات والأوقات.

وفي الصباح ودعنا الجيش المنتصر بشيء من الحزن وبقينا مع الجرحى. كان المساعدون الذين ظلوا معي هم خويل إيغليسياس، وأونياطي، وممرض يعرف باسم سينيثيو طوريس، وفيلو أكونيا الذي أصبح اليوم رائداً في الجيش الثوري، وقد أصر على البقاء معنا لمرافقة عمه الجريح.

* * *

ـ ١٦ ـ

الاعتناء بالجرحى

انصرفنا في غداة معركة اوفيرو إلى محو الآثار التي تركناها عند دخولنا الغابة وسرعان ما امتلأت السماء بطائرات العدو، لكن الجيش كان قد مضى إلى قلب الغابة.

أما نحن فلم نكن نبعد إلا مئة متر عن طريق رئيسي تمر منه العربات. وقد لبثنا حيث كنا، ننتظر الرفيق انريكي لوبيز ليساعدنا في البحث عن مخبأ لِنَقل الجرحى إليه.

ومن بين الجرحى كان الميدا وبلينا عاجزين عن السير، ولم يكن كيكي إسكالونا بأحسن حالٍ. ومُنع مانلس المصاب في رئته عن المشي أيضاً، وكان مانويل اكونيا وهرمس إيفا وماثيو، الوحيدين الذين يستطيعون ان يمشوا بوسائلهم الخاصة. أما المكلفون بحمايتهم وعلاجهم فقد كانوا فيلو اكونيا، وسينيثيو طوريس الممرض، وخويل إيغليسياس، واليخاندرو اونياطي، وأنا. وعندما تقدم النهار جاء خبر من انريكي لوبث يفيد بانه لم يتمكن من الحضور إلينا، لأنّ ابنته مريضة وعليه أن يسافر بها إلى سانتياغو، وانه سيرسل إلينا بعض المتطوعين لمساعدتنا. وقد انتظرنا هؤلاء المتطوعين ولا نزال ننتظرهم حتى اليوم.

أصبح وضعنا في غاية الصعوبة، فجراح كيكي إسكالونا قد التهبت، وجراح مانلس غير واضحة حتى نستطيع معرفة درجة خطورتها. وقد قمنا باستطلاع الطرق المجاورة فلم نجد أحداً من جنود العدو، ثم نقلنا الجرحى إلى كوخ مهجور يبعد عنا بما لا يتجاوز الأربعة كيلو مترات

ويضم عددا كبيراً من الدجاج، وقد ساعدنا في هذه المهمة الشاقة عاملان من عمال الاخشاب، فلم يكن نقل أولئك الرجال على الفرش بالامر اليسير. وفي صباح اليوم التالي، وقد دعمت معدتنا بوجبة ممتازة من الدجاج، غادرنا المكان بسرعة خشية المفاجآت، إذ كنا قد تأخرنا كثيراً بالقرب من الطرقات التي يمكن للعدو أن يسلكها، كنا عند نهاية إحدى الطرق التي اقامتها شركة بابون بنية استثمار الغابات. نظمنا حملة بالعدد القليل من الرجال الاصحاء الذين معنا. وكان المقصود أن نهبط إلى قعر وادي دل اينديو، ثم نصعد من السفح المقابل عبر طريق ضيق ومستتر، حتى كوخ صغير من أوراق الشجر يقيم فيه فلاح صديق مع زوجته وصهره. ولقد كان نقل الجرحى في هذه الأرض الجبلية امراً شاقاً جداً، لكننا حققناه. وقدّم لنا هذا الصديق كل مساعدة، وتنازل للجرحى عن سرير الزوجية لينامو عليه.

كنا قد اخفينا في معسكرنا السابق بعض السلاح الذي ساءت حالته وكمية كبيرة من التجهيزات التي هي من غنائم الحرب، عجزاً منا عن حملها إضافة إلى الجرحى. ولما كنت اعرف مقدار إهمالنا واننا نترك دائماً آثاراً لمرورنا في الأكواخ، فقد قررت، باعتبار أنه لدي الوقت الكافي، أن أعود لاتفقد جيداً مكان سقوطنا السابق لنمحو كل أثر يدل على مرورنا منه، زيادة في الاحتياط والأمان. وفي الوقت نفسه انصرف سينيثيو باحثاً عن بعض معارفه المقيمين في بالاديرو. وبعد قليل أخبرني اكونيا وخويل إيغليسياس بانهما سمعا اصواتاً غريبة في السفح المقابل، فاعتقدنا بأنّا مقبلون على القتال في ظروفنا القاسية هذه. وقد صممنا على تادية واجبنا في الدفاع عن الجرحى، فانتقلنا من مكاننا لكي نبتعد عن الكوخ، وعثرنا على آثار اقدام حافية في نفس الطريق الذي سلكناه عند مجيئنا، فتعقبناها حتى سمعنا اصوات مجموعة من الرجال، وعند ذلك هيأت الرشاش بمساعدة خويل وفيلو ثم تقدمنا لمفاجأة المجموعة، ولكنهم لم يكونوا سوى اسرى أوفيرو الذين اطلق فيدل سراحهم فانطلقوا في الجبال بحثاً عن مخرج، وبعضهم حفاة. وكان بينهم عريف عجوز منهار القوى لم يتمالك نفسه عن أن يعبر لنا بصوت مبحوح من جراء الربو عن إعجابه بنا وبمعرفتنا الدقيقة لمنافذ الجبال. كانوا يسيرون دون دليل، وكل ما زودوا به جواز مرور موقع

من فيديل. ولما كنا في وضع متفوق، فقد استفدنا من ذلك لننصحهم بألا يدخلوا الغابات مهما كلف الأمر، وأن يتأكدوا من إنذارنا... ولما كانوا من أهل المدن، فإنهم لم يعتادوا مشاق الحياة والجبال، وكانوا يجهلون معرفة كيف يواجهونها.

وارشدناهم إلى الطريق المؤدي إلى الساحل. ولم ننس تنبيههم إلى اننا اصحاب الحق الوحيدون في داخل الغابة، وأن دوريتنا (كانت لنا مظاهر الدورية العادية في الحقيقة) ستخبر الجيش المتمركز في ذلك القطاع عن كل تحرك غريب. وبعدما قلنا ذلك، فقد كان من الأفضل بالنسبة إلينا أن نعود أدراجنا بأقصى سرعة ممكنة.

قضينا الليل في كوخ صاحبنا الفلاح، وفي الصباح، أرسلنا الفلاح وزوجته ليحضرا لنا بعض الدجاج لإطعام الجرحى، ثم تحركنا إلى مكان آخر وانتظرنا فيه عودة الزوجين دون جدوى، وقد علمنا بعد ذلك أنهما اعتقلا، وأن العدو استعملهما كدليل لتعقبنا، ولكنهما أخذاه إلى معسكرنا الذي تركناه قبل ذلك بيومين. وفي الوقت ذاته كنا نقوم بحراسة دقيقة لمواقعنا خشية الاضطرار إلى خوض قتال لا نستطيع التنبؤ بنتائجه في ظروفنا الصعبة تلك.

وفي المساء اقبل سينيثيو يصحبه ثلاثة متطوعين احدهم شيخ كبير يدعى فيليشيانو، اما الآخران فقد اصبحا فيما بعد مناضلين في الجيش الثائر، باندير اس الذي مات وهو برتبة ملازم أول في اشتباكات خيغوي، وبارودو (وهو عميد لعائلة كبيرة من المناضلين وقد اصبح نقيباً في الجيش). وقد ساعدنا المتطوعون الجدد في نقل الجرحى سريعاً إلى كوخ بعيد عن منطقة الخطر، بينما لبثنا انا وسينيثيو في المكان السابق ننتظر عودة الفلاح وزوجته بالمؤن، ولكنهما لم يتمكنا من المجيء بطبيعة الحال لانهما كانا معتقلين. اما نحن فقد خفنا من خيانة جديدة وقررنا مغادرة الكوخ في اقرب وقت بعد ان حصلنا على طعام ضئيل من الجوار.

في الغداة، الشهر السادس منذ نزولنا من غرانما، بدأنا المسير باكراً. وكانت رحلة شاقة، وقصيرة بصورة لا تصدق بالنسبة لمن اعتاد السير في الجبال. ففي الجبال، حيث المسير متعب جداً، لا بدّ من حمل الجرحى على فرش مثبتة إلى اغصان قوية تنشر اكتاف الحمالين بالمعنى

الحرفي للكلمة، بحيث لا يستطيعون المقاومة اكثر من عشر او خمس عشرة دقيقة، وبحيث يتطلب نقل الجريح الواحد ستة او ثمانية رجال يتناوبون على حمله في هذه الظروف الشاقة. وكان الميدا يتقدم متكئاً مرة وزاحفاً أخرى، فتابعنا سيرنا ببطء شديد من شجرة إلى شجرة إلى ان اكتشف دليلنا طريقاً اقصر في داخل الغابة، فجاء الحمالون ليعتنوا برفيقنا.

وقصدنا بيت عائلة باردو غير أن زخة غزيرة من المطر عرقلت سيرنا فلم نصل إلاّ عند الغروب، بعد أن قضينا مدة اثنتي عشرة ساعة لاجتياز مسافة لا تزيد عن أربعة كيلو مترات، اي اننا لم نكن نسير إلاّ كيلو متراً واحداً كل ثلاث ساعات.

كان سينيثيو طوريس هبة من السماء إلينا خلال تلك الرحلة بكاملها، فقد كان عارفاً بطرق المنطقة واهلها، فكانت مساعداته تنفعنا في كل لحظة. وقد عمل بعد ذلك بيومين على نقل مانلس إلى سانتياغو ليعالج هناك، وباشرنا في نفس الوقت بالإعداد لنقل كيكي إيسكالونا الذي ساءت حالته بصورة ملحوظة. وفي تلك الايام جاءتنا اخبار متضاربة عن ثيليا سانتشث، بعضها يقول إنها اعتقلت والبعض الآخر يقول إنها قتلت، كما سرت إشاعات عن وقوع الرفيق هرمس كالديرو في أسر فرقة من جيش العدو. ولم ندر ما نصنع، وهل نصدق تلك الشائعات المرعبة أم لا. والحقيقة أن تصديقها كفيل بأن يوقع الرعب في نفوسنا؛ فثيليا، مثلاً، كانت واسطة الاتصال الأمينة الوحيدة بالنسبة إلينا واعتقالها لا يعني إلاّ نتيجة واحدة هي انعزالنا بصورة كلية داخل الجبال. ولحسن الحظ كان خبر اعتقالها كاذباً، بينما تأكد خبر اعتقال هرمس الذي نجا من الموت بمعجزة أثناء إقامته في أقبية سجون الطاغية.

كان يعيش في الضفة الأخرى من نهر بلاديرو مديرٌ لإحدى الإقطاعات يدعى دافيد، وقد بذل قصارى جهده في مساعدتنا، فذبح لنا بقرة وجزّأها إلى قطع صغيرة ودعانا إلى حمل اللحم خفية، وفي الليل أرسلت فرقتين لجلب لحم البقرة، الأولى بقيادة باردو والثانية بقيادة بانديراس، ولكن هذا الأخير لم يكن انضباطياً ولم ينفذ مهمته، بل ترك للآخرين أمر نقل كل الكمية الكبيرة من اللحم، وغاب عنا طيلة الليل. وأمام الشعور بمسؤوليتي تجاه الزمرة الصغيرة التي كانت بإمرتي –

بحكم إصابة الميدا - فقد انذرت باندبراس إن لم يحسن سيرته فلا بد ان يتنازل عن دوره كمناضل ويكتفي بان يكون مجرد «نصير»، وقد تحسن سلوكه فعلاً. فبالرغم من انه لم يكن مثالاً في الانضباط كان رجلاً مقداماً ذا عقلية متفتحة وبسيطة، واحداً من اولئك الذين قادتهم صدمة الثورة إلى فهم الواقع بوضوح اعظم. وكان يهتم بقطعة ارض صغيرة يملكها في جانب من الغابة ويشعر بعاطفة قوية نحو الاشجار والزراعة، ويعيش في منبسط من الارض مع كلب وخنزيرين يحملان اسمه. واراني في احد الايام صورة ولديه اللذين يعيشان مع زوجته - التي انفصل عنها - في سانتياغو، واعرب عن رغبته في ان يعيش بعد انتصار الثورة في اي مكان يجد فيه عملاً جيداً، بعيداً عن هذه الارض الشحيحة المعلقة في عنان السماء. وحدثته عن التعاونيات الزراعية فلم يفهم معنى كلامي، واجاب بانه يفضل ان يفلح الارض لحسابه وبمجهوده الخاص، ومع ذلك فقد نجحت في إقناعه شيئاً فشيئاً بان الخير كل الخير في ان يعمل في الارض ضمن المجموعة، وان يستغل الآلة في تحسن مردود جهوده. لقد كان من الممكن لباندبراس ان يصبح اليوم في طليعة المناضلين في حقل الإنتاج الزراعي، إذ إنه في لاسييرا عمل جاهداً على تثقيف نفسه وتنمية معلوماته، فتعلم الكتابة والقراءة وهيا نفسه تهيئة جيدة للمستقبل المشرق، وكان مثال الفلاح المتيقظ الذي يعرف قيمة المشاركة بمجهوده الخاص في صنع التاريخ.

دار بيني وبين المدير دافيد حديث طويل في الوقت نفسه، وقد طلب مني ان ازوده بلائحة تضم اهم ما نحتاج إليه من الأمتعة والتجهيزات ليعمل هو على تامينها من سانتياغو. لقد كان مديراً نموذجياً يدين بالولاء والإخلاص لسادته الإقطاعيين، ولكنه في الوقت ذاته لا يبخل على الثورة بشيء. وقد وقع في اسر الجيش الباتيستي - الذي احيط علماً باتصالاته بنا - وتعرض على يد زبانيته لعذاب وحشي حتى ظننا انه مات، وكان اول ما قام به بعد إطلاق سراحه ان اتصل بنا واخبرنا بانه لم يعترف بشيء. اما الآن فإنني لا اعلم هل هو موجود في كوبا، ام انه لحق بأسياده القدماء الذين صادرت الثورة املاكهم. ومهما كان الأمر، فإن دافيد كان في زمن الحرب شاعراً بضرورة حدوث تغيير، وبالرغم من انه لم يتصور ما سيلحقه وما سيلحق عالمه من جراء هذا التغيير،

إلا أنه كان مؤمناً بأن لا مفر من التغيير.

لقد قام بناء الثورة بفضل المجهودات الصادقة التي بذلها عدد كبير من الرجال البسطاء. إن رسالتنا هي أن نطور الجوانب الصالحة والنبيلة في كل إنسان، وأن نصنع من كل البشر مناضلين ثوريين. إن الثورة مصنوعة من أشباه دافيد الذي لا يفهم الثورة جيداً، وأشباه بانديراس الذي سقط قبل أن تكتحل عيناه بمرأى الفجر الجديد، ومن تضحيات عمياء، من تضحيات مغفلة لا تنتظر جزاء أو شكوراً.

ويجدر بمن بقي حتى اليوم ليشهد منجزات هذه الثورة أن يتذكر أولئك الذين سقطوا على الطريق، وأن يعمل ويعمل كي يتناقص عددهم في المستقبل.

* * *

— ١٧ —

ليديا

لم يكن قد مضى على البادرة الثورية سوى ستة أشهر، على وجه التقريب، حين تعرفت إلى ليديا. وكنت في ذلك الحين قد استلمت حديثاً منصب قائد الرتل الرابع، وقد تعرفت إليها بمناسبة إحدى تلك الغارات الخاطفة التي كنا نقوم بها طلباً للمؤن. وكنا قد اخترنا تلك المرة القرية الصغيرة التي تحمل اسم سان بابلو دي يايو، قرب بايامو، فوق هضاب سييرا مايسترا، وكان أحد المنازل الأولى في المنطقة يخص عائلة من الخبازين من أفرادها ليديا. ومنذ اللحظة الأولى، كرست هذه المرأة نفسها جسماً وروحاً، بحماسة وهوى نموذجيين، لعمل الثورة، وكانت تبلغ الخامسة والاربعين من العمر، كما كان ولدها الوحيد في عداد رتلنا.

إن هذه المرأة الثورية الخالية من العيب توحي إليّ بما هو أكثر من الحب حين أذكر اسمها. وبالفعل، فقد تعلقت بي بصورة أخص، وكانت تفضل أن تعمل تحت إمرتي، مهما يكن نوع العمل المسند إليّ. ولا يمكننا أن نحصر عدد المرات التي قامت ليديا فيها بدور الرسول الخاص، من طرفي أو من طرف الحركة. لقد نقلت من سانتياغو دي كوبا إلى هافانا الأوراق الاشد خطورة، وجميع ملاحظات واخبار رتلنا، وأعداد جريدة «الكوبي الحر»، إلخ. وكانت تعود إلينا بالورق، والادوية، وباختصار، بكل ما نحن بحاجة إليه، وفي كل مرة نحتاج إليه فيها.

كانت بسالتها عظيمة بحيث كان الرسل يتفادون رفقتها. وإني لأحفظ في ذاكرتي تقديرات واحد من هؤلاء الرسل، حيث يمتزج الإعجاب بشيء

من اللوم. كان يقول لي: «هذه المراة... إنها أشد إقداماً من ماثيو[1]. لكنها ستنتهي إلى الإيقاع بنا جميعاً. يجب أن يكون المرء مجنوناً كي يسلك سلوكها، إذ يخيل إليك أنها تتسلى». وكانت ليديا، دون أن يطرف لها جفن، تواصل عملها، وتجتاز الخطوط المعادية ذهاباً وإياباً دون انقطاع.

نقلت إلى منطقة لامينا دل فريو، في لاس فيغاس دل جيباكوا. وكان هذا كافياً كي تقرر مغادرة المعسكر الإضافي الذي كانت آمرة له، والذي سيَّرته خلال فترة من الزمن، والرجال الذين قادتهم بجرأة لا مثيل لها ـ وربما بشيء من الطغيان ـ الأمر الذي أثار حتى درجة ما حفيظة الكوبيين، هؤلاء الذين لم يعتادوا أن يكونوا تحت مقرعة امرأة. كان معسكرها النقطة الأكثر تقدماً، وكان موقعه في المكان المسمى لاكويفا (المغارة) بين ياو وبايامو. واضطررت لأن أسحب قيادة الموقع منها، إذ كان مركزها معرَّضاً جداً، وبالفعل، فقد اضطر شبابنا، حين اكتُشف الموقع، أن يشقوا طريقهم أكثر من مرة بضربات البنادق كي يخرجوا من المكان. وحاولت أن أسحب ليديا من هذا القطاع بصورة نهائية، لكنها لم تقبل بذلك إلا كي تتبعني نحو جبهة قتالية جديدة.

وأتذكر قصة تشهد جيداً على خلق ليديا: كان ذلك يوم استشهد واحد من مقاتلينا الكبار، وهو فتى أجرد الذقن يدعى خيلين، من مواليد كارديناس، وكان قد التحق بموقعنا الأمامي حين كانت ليديا فيه بعد. وكانت تتجه نحوه بعد عودتها من مهمة كلفت بها، حين شاهدت الحرس يتقدمون بخطوات الذئب نحو الموقع، في أعقاب «وشاية»، دونما ريب. وكان رد فعل ليديا فورياً: أخرجت مسدسها الصغير كي تعطي الإنذار بطلقتين في الهواء، لكن أيدي صديقة منعتها عن ذلك في الوقت المناسب، لأن مثل هذه الحركة كانت تكلفهم الحياة جميعاً. وهكذا استمر الجنود يتقدمون حتى فاجأوا حرس المعسكر. ودافع غيلومو خيلين عن نفسه بشجاعة، لكنه جرح مرتين، وإذ كان عارفاً بما سيلحق به إذا وقع حياً بين أيدي الأعداء، فقد انتحر. وصادفت ليديا في الغداة، كان مرتسماً على محياها أعمق الأسى على استشهاد المقاتل الفتى، وفي

---

(1) جنرال شهير خلال حروب الاستقلال، وهو من مواليد المقاطعة الشرقية في كوبا.

الوقت نفسه الاستياء من ذلك الذي منعها من إعطاء الإنذار بمسدسها. قالت لي: «كانوا يقتلونني، لكن الصغير كان يبقى إذاً على قيد الحياة. إني عجوز، أما هو فلم يتجاوز العشرين من العمر» وراح حديثها يدور حول هذا الموضوع. أكان في هذا الازدراء الشفهي الذي تبديه باستمرار حيال الموت شيء من الصلف والادعاء؟ مهما يكن من أمر، فقد نفذت على الدوام، بكل بساطة، جميع المهمات التي كلفت بها.

كانت تعرف حبي للكلاب وتعدني دائماً بأن تجلب لي كلباً من هافانا. وكان الوفاء بهذا الوعد من أصعب الأمور. لكن ليديا نجحت في الوفاء به مع ذلك، الأمر الذي وقع في فترة الهجوم الباتيستي الكبير. كانت ليديا في ذهاب وإياب دائمين بين سييرا والسهل، تذهب سعياً وراء وثائق من المرتبة الأولى في الأهمية وتعود بها، وتضعنا على اتصال مستمر بالعالم الخارجي، وذلك دون راحة على الإطلاق، برفقة مقاتلة أخرى من طينتها لم أعد أذكر سوى اسمها، مثل جميع رفاقي في الجيش الثائر الذين يعرفونها ويحترمونها: كلودوميرا. إن ليديا وكلودوميرا قد أصبحتا ملتصقتين في الخطر، تذهبان وتأتيان في هذه الجهة وتلك، سوية، دائماً وأبداً.

تلقت ليديا الأمر بالاتصال بي حال وصولي إلى لاس فيلاس، بعد الغزو. وكانت مهمتها في واقع الأمر تأمين الارتباط مع هافانا والقيادة العامة في سييرا مايسترا. ووجدت كلمة صغيرة تركتها لي بعد وصولي بوقت قليل، تعلن لي فيها أنها نجحت في الحصول على كلب صغير تهديني إياه، وأنها ستجلبه إلي في رحلتها القادمة. ولم تقم ليديا وكلودوميرا بهذه الرحلة مطلقاً. فقد نجح جيش العدو في تحديد موقع فئة من مجموعتنا، من بينهم ليديا وكلودوميرا، وكان ذلك بوشاية رجل كان دونهم ألف مرة كرجل، وكمقاتل، وكثوري، وككائن إنساني. وقاتل رفاقنا حتى الموت. وكانت ليديا جريحة حين ساقها العدو، ولم نعثر على جسديهما. ومما لا شك فيه أنهما ترقدان رقدتهما الأخيرة، جنباً إلى جنب، كما كانتا في الأيام الأخيرة من المعركة الكبرى من أجل الحرية...

ولعلنا نعثر في يوم من الأيام على رفاتهما في أحد الحقول المنعزلة من المقبرة الكبرى التي تحولت إليها الجزيرة بأسرها في ذلك الحين. ومهما يكن من أمر، فإن أولئك الذين قاتلوا وضحّوا بأنفسهم، من

صفوف الجيش الثائر، في تلك الأيام الرهيبة سوف يحتفظون إلى الأبد بذكرى أولئك النساء اللواتي حققن الاتصال من طرف الجزيرة الواحد إلى طرفها الآخر، وحياتهن عرضة للخطر في كل يوم وكل ساعة. وإن ليديا لتحتل من بينهم مكاناً ممتازاً بالنسبة إلينا نحن رجال الجبهة الأولى، وبالنسبة إلي شخصياً. ولذا فإنني أصوغ اليوم هذه الكلمات من الذكرى تكريماً لها، واضعها مثل زهرة متواضعة أمام هذا القبر المتعدد الذي فتح آلاف فوهاته في جزيرتنا، هذه الجزيرة التي كانت فيما مضى تلفح بالفرح وتفيض بالهناء.

• • •

ـ ١٨ ـ

في طريق العودة

قضينا كل شهر حزيران ١٩٥٧ في علاج جرحى معركة اوفيرو، وتنظيم فرقتنا الصغيرة، استعداداً للالتحاق بالجيش الاصيل بقيادة فيديل. وقد اعتمدنا على مدير الاعمال دافيد في تحقيق الاتصال بالعالم الخارجي، كما استعنا بتوجيهاته ومعلوماته في تحسين اوضاعنا، فضلاً عن الاغذية التي كان يؤمنها لنا.

ولا يمكننا أن ننسى المعونة القيمة التي قدمها لنا بانتشو تامايو الفلاح العجوز الذي انضم إلينا وقام في نفس الوقت بدور عضو الاتصال. وقد انتهى به الامر بعد الحرب إلى الموت غيلة على يد عصابة لوس بيباتون. لكننا لم نكن نستطيع بعد في تلك الايام الاعتماد على هذه المعونة التي لم تكن قد توافرت لنا بعد.

بدأ سينيثيو، هذا العصي على الأخلاق الثورية، يتجاوز كل الحدود. كان يسكر بأموال الحركة الثورية، ويأتي اثناء سكره اعمالاً شائنة، ويتخلى عن تنفيذ الاوامر فضلاً عن ذلك، كما انه عاد إلينا بعد إحدى جولاته تلك مع أحد عشر رفيقاً مجردين من السلاح تماماً وكان الامر الساري المفعول هو عدم قبول الرجال غير المسلحين، لكن تجنيد الرجال في فرقتنا الفوارية الفتية كان يتم كيفما اتفق، دون أي اعتبار للحس السليم. وكان الفلاحون الذين يعرفون المكان الذي نعسكر فيه يأتوننا كل يوم برفاق جدد راغبين في الانضمام إلينا. ولقد انضم إلينا ما لا يقل عن أربعين رجلاً فاضطررنا إلى تسريح تلك المجموعة، ولكن

عمليات الانفصال عن الفرقة - في الوقت ذاته - كانت مستمرة، تارة بشكل تسريح وأخرى بشكل فرار، وهكذا لم يتجاوز عدد أفراد الفرقة الخمسة والعشرين حتى الثلاثين رجلاً.

تفاقم مرض الربو الذي اشكو منه في تلك الايام، ووضعتني ندرة الدواء في حالة من الجمود مثل بقية الجرحى، ولكنني استعنت بتدخين بعض أعشاب لاسيبرا البرية على التخفيف من حدة المرض في انتظار وصول الادوية الصيدلية من مراكز الحضارة، فاصبحت مستعداً للرحيل بعد أن كنا نؤجل رحيلنا من يوم لآخر. وأخيراً أرسلنا دورية للبحث عن الاسلحة التي استغنينا عنها بعد معركة أوفيرو بقصد تسليح الرجال بها. كانت تلك الأسلحة البالية الفاسدة - بما فيها الرشاش عيار ٣٠ الذي تنقصه الإبرة - في نظرنا كنوزاً ثمينة كرسنا انفسنا للبحث عنها ليلة كاملة، وبعد العثور عليها عُيِّن يوم ٢٤ حزيران موعداً للرحيل. وكانت فرقتنا آنذاك تضم ستة وعشرين رجلاً، منهم خمسة جرحى في طور النقاهة يقوم بشؤونهم خمسة من الرفاق، كما تضم عشرة مستجدين من باياموا ومستجدين آخرين أتيا «من مكان ما»، واربعة غيرهم من نفس المنطقة التي كنا فيها. نظمنا مسيرتنا بحيث سار في المقدمة فيلو اكونيا كطليعة، تتبعها ما يمكن أن تسمى القيادة التي كنت مسؤولاً عنها - كان الميدا يشفى من الجرح الذي اصابه في فخذه، لكن مجرد المشي كان يضايقه جداً - وأخيراً زمرتان صغيرتان يقودهما الملازمان ماتيو وبينا.

لم نتمكن من الرحيل في الموعد المحدد - ٢٤ حزيران - بسبب بعض العراقيل الصغيرة، كانتظارنا لاحد الادلاء مع متطوعين جدد، أو لشحنة جديدة من الادوية والغذاء. وكان العجوز تايامو لا يتوقف عن الحل والترحال مصطحباً معه كل مرة أخباراً جديدة وشحنات الطعام المحفوظة والألبسة. وجاءنا دافيد يوماً، بعد تحقيق الاتصال بسانتياغو، بحمولة كبيرة من الاغذية، مما دعانا إلى إخفاء كل هذه المؤن في كهف صغير عجزاً منا عن حملها، باعتبار شروط مسيرة فرقتنا المشكلة من الناقهين والمستجدين.

في السادس والعشرين من حزيران بدأت أعمالي كطبيب اسنان، ويجب أن اعترف بان الرفاق في سييرا قد اطلقوا عليّ لقباً أكثر تواضعاً، إلا

وهو «خالع الأسنان». وكان باردو - وهو الآن نقيب في الجيش - أول ضحاياي، أما الضحية الثانية فكان خويل إيغليسياس الذي ذهبت جميع جهودي معه أدراج الرياح، ولم يعد أمامي إلاّ أن أفجر كمية من الديناميت في نابه لأتمكن من خلعه، وها إنَّ الحرب قد انتهت والناب القوي لا يزال في مكانه. كنت أفتقر إلى التجربة، لكنني كنت أفتقر في الوقت نفسه إلى المخدرات التي كنت أوفرها وأعتمد بصورة رئيسية على «التخدير النفسي»، ويعني أنني كنت أنعت الرفاق بأقبح النعوت كلما تململوا من العمليات الدائرة داخل أفواههم.

لم نكد نعطي إشارة المسير حتى فشَّ بعض الرجال وغادروا الصفوف، ومن حسن الحظ أن رجالاً جدداً حلوا مكانهم. وقد جاءنا تامايو بمجموعة جديدة من أربعة رجال كان من بينهم فيليكس مندوثا الذي كان مسلحاً ببندقية، وأخبرنا أن فرقة الجيش الباتيستي فاجأته مع رفيق له، فاسرت هذا الأخير بينما تمكن هو من القفز خلف الصخور والهرب بأقصى سرعة سالماً. وقد تبين لنا بعد ذلك أنَّ «الجيش الباتيستي» الذي داهم الرفيق لم يكن سوى دورية من فرقة فيديل يقودها لالو سارديناس، وقد التحق الرفيق بفرقة فيديل مع هذا اللقاء وانضم إلينا أيضاً افيليو سابوريت الذي أصبح اليوم رائداً في الجيش الثائر، وهكذا ارتفع عددنا إلى ستة وثلاثين. وقد أخذ عددنا بالهبوط أثناء سيرنا البطيء في سفوح بلاديرو.

كان الراديو يعرض أمام أعيننا مشهداً من العنف يعم الجزيرة بأسرها، وسمعنا في أول تموز عن موت خوسوي بايس شقيق فرانك بايس مع مجموعة من الرفاق في وسط المعركة الدائرة باستمرار في مدينة سانتياغو.

بالرغم من قصر المسافات التي كنا نقطعها، فقد انخفضت حماسة الرفاق، وطلب بعض المستجدين الانسحاب والتفرغ لأداء «مهام أكثر فائدة» في المدن. وحين هبطنا في سفح جبل بوتيلا مررنا ببيت بنيثو مورا الذي استقبلنا وآوانا في بيته المتواضع المعلق في مرتفعات تلك المنطقة من لاسييرا. وكنت قبل أن نصل بقليل قد جمعت الرجال (كانت المعنويات في الحضيض)، وألقيت عليهم خطاباً صغيراً: وقلت للجنود إننا قريبون من حشد كبير للعدو، وإننا مقبلون على ظرف مشحون بالخطر،

وقد نضطر إلى البقاء أياماً بدون طعام وإلى الاستمرار في المشي دون توقف، فإذا كان بينكم من لا يستطيع احتمال ذلك، فالأفضل أن يصرح بذلك الآن. ووجد البعض الشجاعة على التعبير عن مخاوفهم وغادروا الصفوف، لكن رجلاً يدعى تشيكو أكد باسم جماعة من الرجال وبصوت يملؤه العزم والتصميم بأنهم مستمرون، من جهتهم، «حتى الموت». ولشدّ ما كانت دهشتنا بعدما غادرنا منزل بنيتو مورا حين طلبت منا نفس هذه المجموعة أن نسمح لها بالانسحاب من الجيش، وكان ذلك قبل أن ننتهي من إقامة المعسكر الجديد عند الجدول الصغير. فأفسحنا لهم مجال الذهاب، وعمّدنا المكان، مازحين، باسم «جدول الموت»، ففيه مات حماس تشيكو ومجموعته. وقد بقي هذا الاسم ملازماً لذلك المجرى طيلة فترة الحرب.

أصبحنا بعد ذلك ثمانية وعشرين رجلاً، ولكننا ما ان خرجنا في اليوم التالي حتى انضم إلينا متطوعان جديدان هما خيلبرتو كابوتي ونيكولاس، وهما عسكريان سابقان جاءا إلى لاسييرا ليناضلا من أجل الحرية، وقد جاء بهما أحد أعضاء الاتصال وهو أريستيدس غيرا الذي كنا نلقبه «بملك الزاد»، والذي لم يألُ جهداً أيام الحرب في تأدية أعظم الخدمات وأجلّها خطراً لجيشنا، خدمات تفوق في خطرها مواجهة العدو في ساحة القتال، فكثيراً ما كان يسوق قوافل البغال المحملة بالتجهيزات من منطقة بايامو حتى منطقة العمليات الحربية.

عملنا أثناء مراحل سيرنا على تدريب المستجدين على الرمي، وكلفنا العسكريين السابقين بتعليمهم بعض المبادىء عن البندقية والرمي على الفراغ. ولسوء الحظ طاشت رصاصة من أحد المدربين في مستهل الدرس، الأمر الذي جعلنا نعزله من منصبه ونحن ننظر إليه بعين الشك في معارفه العسكرية. غير أن الذعر اجتاح قسماته بشدة، بحيث لم نكن نستطيع أن نعتقد أنه يتحايل علينا إلا إذا افترضنا أن لديه قوة هائلة على التمثيل. ولم يستطع هذان العسكريان تحمل المسير فذهبا من جديد يرافقهما أريستيدس، ولكن أحدهما وهو خيلبرتو عاد إلينا، ومات بعد ذلك ببطولة في معركة بينو دل اغوا برتبة ملازم أول.

تركنا معسكرنا السابق - بيت بولوطريس في جبل ميسا الذي أصبح فيما بعد أهم مناطق نشاطنا - وتوجهنا نحو بيت فلاح آخر يدعى توتو

الميدا. وكان قصدنا أن نذهب إلى جبل نيڤادا لنلتحق بعد ذلك بفيديل وفرقته مروراً بالشلال الشمالي في توركينو. وبينما نحن سائرون في هذا الاتجاه إذا بنا نلمح من بعيد شبح فلاحين ما إن رآيانا حتى فرّا من وجهنا، فركضنا وراءهما حتى أمسكنا بهما، فوجدنا أنهما فتاتان زنجيتان تحملان اسم مويا كاسم عائلي، وقد كانتا مفرقتين في التديُّن، ولكنهما بالرغم من معارضتهما الدينية لجميع أشكال العنف دعمتا ثورتنا بكل جهودهما، على الفور، وطوال الحرب بأسرها.

أوقفنا تحركنا ريثما نتناول وجبة شهية، ثم سرنا نحو مالفيردي لنمر منها إلى نيڤادا. ولكننا وجدنا مالفيردي ملأى بجنود العدو، فعقدنا اجتماعاً لهيئة أركاننا الصغيرة وللمرشدين وقررنا التراجع وسلوك الطريق المباشر إلى توركينو، وهو طريق في غاية الوعورة ولكنه أكثر أماناً في هذا الظرف. كنا نلتقط بواسطة الراديو الذي نحمله بعض الأنباء المزعجة، فقد قيل إنَّ معارك طاحنة تدور في منطقة ايسترادا بالما وإنَّ راوول أصيب بجروح بليغة (إنه ليصعب عليّ الآن، مع الزمن، أن أقول ما إذا كانت إذاعتنا أم الإذاعة المزيفة هي التي أذاعت هذا النبأ). ولم ندر هل نلقي بالاً إلى معلومات العدو - التي أثبتت لنا التجارب السابقة زيفها - أم لا، وكل ما استطعنا عمله هو الإسراع في المسير ضمن الإمكانيات لنصل إلى مكان فيديل.

استأنفنا سيرنا في الليل وسهرنا في بيت فلاح عازب يدعى فيتكابينو في مشارف توركينو. وكان فيتكابينو يعيش منفرداً في كوخه الصغير مختلياً إلى مجموعة من الكتب الماركسية التي يحتفظ بها بعناية في ثقب تحت إحدى الصخور قريباً من كوخه. وقد أعرب لنا باعتزاز عن معتقداته الماركسية وتكريسه كل جهوده من أجلها، وبفضل مساعدته عرفنا الطريق الذي يجب علينا اتباعه، ثم واصلنا سيرنا البطيء.

كان سينيثيو يعرف جيداً أننا نبتعد أكثر فأكثر عن مركز عملياته، وكانت هذه الحال تبعث القلق في نفسه البسيطة، بوصفه فلاحاً يحيا على هامش القانون إلى درجة ما.

وفي يوم جميل الطقس جلسنا للاستراحة في مرتفع من الطريق، ووضعنا في مركز الحراسة أحد المستجدين ويدعى كويرفاس (وكان مسلحاً ببندقية رمنغتن بالنظر لحسن سلوكه). ولم تمض برهة حتى

انضم إليه خفية سينيثيو الذي كان مسلحاً ببندقية هو الآخر. وحين بلغني الخبر، بعد نصف ساعة تقريباً، ساورتني الشكوك وذهبت إلى مركز الحراسة خلفه لانني لم اكن كبير الثقة بسينيثيو، فضلاً عن أن البنادق شيء ثمين جداً ولكنني لم أجد هنالك أحداً، فقد هرب الاثنان وتركا مركز الحراسة مكشوفاً، فارسلنا يانديراس وباردو في أثرهما، مدركين عدم فعالية مسدسيهما الخفيفين تجاه بندقيتي الهاربين الطويلتين. ولم نعثر على الهاربين هذه المرة.

لقد ما كان عسيراً أمر المحافظة على معنويات هذه الفرقة الرديئة السلاح والمحرومة من الاتصال المباشر بقائد الثورة. وقد سرنا نتلمس طريقنا تلمساً، دونما ادنى حيرة، تحيطنا حشود العدو التي تضخم امرها حكايات الفلاحين، كما أن عجز المجندين القادمين من السهول عن تحمل الصعوبات الكثيرة التي وجدوها في الجبال تخلق لنا مشاكل معنوية متعاقبة. وكان من أبرز هذه المشاكل محاولة فرار واسعة تزعمها رجل يدعى «المكسيكي» - الذي ارتقى حتى رتبة نقيب، لكنه خان الثورة والتجأ إلى ميامي بفلوريدا -، وقد أخبرني بهذه المحاولة الرفيق هرمس ليفا ابن عم خويل إيغليسياس، فدعوت إلى جلسة لوضع الأمور في نصابها. ولقد اعترف «المكسيكي» بانه فكر في تشكيل عصبة على حدة، لكنه اقسم بجميع آلهته ان ذلك لم يكن بنية الفرار، بل كان ينوي تنظيم عمليات لقتل الخونة والجواسيس مدفوعاً بما رآه من قلة العمليات التي تقوم بها فرقتنا. والحقيقة أن «المكسيكي» كان يفكر فعلاً في ذلك، ولكن الدافع الذي يدفعه لم يكن حب القضاء على الخونة بقدر ما كان الرغبة في سلب أموالهم. كان عمله ينتسب إلى اللصوصية الخالصة إذاً. وفي إحدى المعارك التالية - معركة أوميريتو - كان هرمس ليفا الخسارة الوحيدة التي منينا بها، وقد شككنا في أن يكون «المكسيكي» وراء هذه العملية انتقاماً من الرجل الذي كشف نواياه. ومع ذلك لم أستطع حتى الآن أن أتوصل إلى اليقين التام بشأن هذه المسألة. ومهما كان الامر فقد استمر «المكسيكي» معنا ووعدنا بشرفه كرجل وكثوري الا يعمد إلى الهرب بعد ذلك والا يحرض احداً عليه.

بعد مسيرات شاقة وقصيرة وصلنا إلى منطقة بالما موتشا بعد المسقط الغربي لتوركينو، واستقرينا في مكان منها يدعى لاس كويفاس، وقد استقبلنا الفلاحون هناك بحرارة، وعدت بحماس شديد لممارسة مهنتي الجديدة «كخالع للأسنان». وبعد أن أكلنا واستعدنا قوانا تحركنا بسرعة نحو معارفنا القدماء في منطقتي بالما موتشا وإينفيرنو. وقد وصلنا إلى هذه المنطقة في ١٥ حزيران، وهناك أخبرنا الفلاح اميليو كابريرا بان لالو ساردينياس رابض مع قواته في كمين قريب من ذلك المكان، وقد أعرب عن قلقه الشديد لذلك، نظراً لأنه يعرض بيته للخطر في حالة الاشتباك مع العدو.

في ١٦ حزيران تم الاتصال بلالو ساردينياس الذي يقود زمرة تابعة لقوات فيديل، وقصّ علينا هذا الرفيق كيف اضطر للالتحاق بالجيش، وانه كان تاجراً يجلب المؤن لجيشنا من السهول ففاجاه بعض الجنود فقتل احدهم. ومن بعد اضطر ان يسلك طريق الغابات... وكانت التعليمات تقضي عليه بان ينتظر حيث هو، مجيء كتائب سانتشز موسكيرا. وهكذا فإن سانتشز موسكيرا، في عناده، قد تغلغل مرة أخرى في أرضنا، ومن ناحية قطاع موتشا، وكاد أن يقع في حصار قوات فيديل ولكنه أفلت من الطوق، واخترق جبل توركينو مسرعاً نحو السفح الآخر من الجبل.

كنا نعرف من جهتنا أن العدو في الجوار، فقد وجدنا في العشية، حين وصلنا إلى الأكواخ، خنادق كان الجنود يحتمون مؤخراً فيها. ولكن تلك الاستحكامات التي ظنناها استعداداً لهجوم كاسح علينا لم تكن سوى آثار القوات التأديبية الهاربة. لقد كشفت هذه العملية عن تحول جوهري في العمليات الحربية الدائرة في مرتفعات لاسييرا، إذ اصبحنا قادرين على الاقتراب من العدو وتهديده بالإبادة، ثم إجباره على الفرار أمامنا. وقد أدرك العدو هذا التحول فلم يجرؤ على الهجوم المباشر، واكتفى بالغارات الجانبية الخاطفة. ولكن أكثر قادة العدو وحشية وعناداً هو موسكيرا الذي كان ملازماً أول في عام ١٩٥٧، ثم ارتقى بسرعة مدهشة حتى نال رتبة عقيد بعد الهزيمة النهائية التي لحقت بالهجوم العام الذي

شنه العدو في شهر حزيران من العام التالي. لقد كان سريعاً كالشهاب في مجال الترقية، كما كان اقتصادياً بارعاً في مجال السلب والنهب، إذ كان يسرق كل ما يقع تحت يده من أملاك الفلاحين دونما رادع ولا رحمة كلما حلت قواته في مسالك سييرا مايسترا.

• • •

ـ ١٩ ـ

خيانة قيد التحضير...

يا لفرحة لقاء الرفاق القدامى، ولشد ما كان استقبالهم لنا رائعاً! وإنه لمن دواعي السرور أيضاً أن تجد الجيش قد اكتمل، وتعداده حوالي مائتين من الرجال. كان الانضباط أشد، والمعنويات ارفع، وكان هناك، فضلاً عن ذلك، بعض الأسلحة الجديدة، والحقيقة أن التحول الكيفي الذي سبق أن تحدثنا عنه يتحقق الآن بوضوح في سييرا مايسترا. فقد أصبحنا في غنى عن الاحتياطات المبالغ فيها، بل أصبحت لنا بعض الحرية للمناقشة في الليل، كما أنه أصبح بإمكاننا أن نتأخر في النوم، وأن ننتقل بحرية بين القرى المجاورة عاقدين عرى الصداقة والمودة مع أهاليها. وقد كان يسعدنا أكثر من ذلك أن نجد الترحاب الحار من أصدقائنا القدامى.

كان من أبرز «النجوم» التي زارتنا في تلك الليلة فيليبي باثوس وراوول تشيباس اللذان كانا شخصيتين مختلفتين تمام الاختلاف. فقد كان راوول تشيباس يعيش بصورة رئيسية على سمعة أخيه الذي كان رمزاً صادقاً لفترة من حياة كوبا، ولكنه لم يكن يتصف بأية مزية من مزاياه. لا أريحيته، ولا تفكيره، ولا حتى ذكاؤه، بل إن تفاهته المطلقة هي التي أبرزته كوجه رمزي في الحزب الأرثوذكسي. كان قليل الكلام ولا يخفي رغبته في مغادرة المايسترا بسرعة.

أما فيليبي باثوس فلم يكن يفتقر على الأقل إلى الشخصية، يضاف إلى ذلك سمعته كاقتصادي كبير وشهرته العطرة التي اكتسبها من تورعه

عن اختلاس أموال الخزينة العامة عندما كان رئيساً للمصرف الوطني أثناء حكومة بريبوسو كاراس القائمة على النهب والسرقة. قد يعتقد البعض أن أروع المناقب أن يحافظ المرء على نقاوة يده في تلك الظروف، وخاصة إذا كان موظفاً كبيراً استطاع متابعة أعماله الإدارية دون أن يغرق نفسه في المشاكل الخطيرة التي تتخبط فيها البلاد، ولكن، كيف يمكن أن يكون الإنسان ثورياً إذا لم يفضح حقيقة المخازي التي تجري أمام أنفه صباحاً ومساءً؟ هذا هو شأن باثوس، إنه لم يحرك ساكناً أمام الفضائح التي عاشها، بل ترك رئاسة المصرف الوطني - بعد انقلاب باتيستا - تكلله أوصاف الأمانة والشرف والذكاء والاطلاع على خفايا علم الاقتصاد.وإذ لم يستطع سبيلاً إلى المقاومة، فقد سلك طريق سييرا بحدوه الأمل الحازم في تصريف شؤون الثورة بنفسه. ذلك أن عقله المكيافيلي الصغير صوّر له أنه الشخص الوحيد المهيا لتقرير مصير البلاد. ولعله كان ينطوي منذ ذلك الحين على فكرة خيانة الثورة، ولعل هذه الفكرة ولدت لديه فيما بعد. وعلى أية حال فإن سلوكه لم يتآلف بالصراحة مطلقاً.

احتمى خلف البيان المشترك (الذي سنحلله)، فسمّى نفسه ممثلاً لحركة ٢٦ تموز في ميامي، وكان يطمع في رئاسة الجمهورية المؤقتة. وكانت تلك وسيلة صالحة للسيد بريو كي يطمئن إلى وجود رجل موثوق على رأس الحكومة المؤقتة.

لم تسنح لنا الفرصة الكافية للمناقشة في تلك الأيام، ولكن فيديل أخبرني بأنه يبذل مجهوداً كبيراً ليجعل من الوثيقة بياناً نضالياً يوضح أسس مبادىء الثورة. وقد كانت محاولة شاقة تصطدم بعقليتي باثوس وشيباس المتقوقعتين البعيدتين عن نداءات النضال الشعبي.

ألح هذا البيان[1] قبل كل شيء على «ضرورة قيام جبهة مدنية ثورية واسعة تضم كل الأحزاب السياسية المعارضة، وكل المؤسسات المدنية وجميع القوى الثورية»، وقد وردت فيه عدة اقتراحات: «خلق جبهة نضالية مشتركة انطلاقاً من الجبهة الشعبية»، «تعيين شخصية مدعوة لرئاسة الحكومة المؤقتة»، وأوضح البيان أن الجبهة ترفض أن

(1) وهو معروف باسم «بيان لاسييرا» أو «رسالة لاسييرا» (١٢ تموز ١٩٥٧).

تطلب او توافق على تدخل اية دولة أخرى في الشؤون الداخلية لكوبا. وأكّد ان الجبهة «لن تقبل ان تتولى الرئاسة المؤقتة للجمهورية اية شخصية عسكرية»، وأعلن عن تصميم الجبهة على إبعاد الجيش عن السياسة وضمان سلامة المؤسسات العسكرية، وإجراء انتخابات خلال عام واحد.

أما البرنامج الذي يجب أن تسير عليه الحكومة المؤقتة فقد نصّ على إطلاق سراح المعتقلين السياسيين من عسكريين ومدنيين، وضمان حرية الصحافة ووسائل الإعلام، وضمان جميع الحقوق الشخصية والسياسية التي يحميها الدستور، وأكّد أن تسمية الرؤساء المؤقتين لجميع البلديات يجب أن يتم بعد استشارة المؤسسات المدنية المحلية، كما أشار إلى قمع السرقة بكافة أشكالها، واتخاذ الإجراءات الكفيلة بمضاعفة الفعالية والكفاءة في كل مرافق الدولة، وذلك باستحداث الدراسات الإدارية، كما ضمن ديمقراطية السياسة النقابية بفضل الانتخابات الحرة في كل النقابات والاتحادات الصناعية، وأعلن عن شن حملة واسعة لمكافحة الأمية تدعمها حملة للتثقيف المدني تهدف إلى توضيح الحقوق والواجبات المترتبة على كل مواطن تجاه مجتمعه ووطنه. وحدد البيان أخيراً أنه يجب «وضع الأسس لإصلاح زراعي يهدف إلى توزيع الأراضي البور، وتحويل العمال الزراعيين، والشركاء، والمستاجرين، والمزارعين غير القادرين الذين يملكون قطعاً صغيرة من الأرض إلى مُلاّك أراض، سواء أكانت هذه الأراضي الموزعة من أراضي الدولة أم ملكيات خاصة، وذلك مقابل تعويضات للمُلاّك السابقين». وتطرق لمجال الاقتصاد والمال، فتبنى سياسة مالية سليمة تضمن استقرار النقد وتعمل على توظيف أموال الدولة في مشروعات منتجة، كما تبنى توسيع حركة التصنيع وخلق مجالات عمل جديدة للمواطنين.

وكان ثمة نقطتان أساسيتان تبرزان بشدة في مجموع البيان:

النقطة الأولى: ضرورة الاتفاق على شخص رئيس الجمهورية المؤقتة منذ الآن، لكي نثبت للعالم أن الشعب الكوبي قادر على الالتفاف حول شعار الحرية، وقادر على دعم الشخصية المؤهلة لتجسيد هذا الشعار لما تتمتع به من صفات الحياد والنزاهة والمقدرة، وكوبا زاخرة بهذا النوع من الرجال القادرين على ترؤس الجمهورية (ومن المفروغ منه أن

أحد موقعي البيان على الأقل، فيليبي باثوس كي لا نتكلم عن أحد سواه، كان يعلم في قرارة نفسه أنه لا توجد كوكبة من الرجال من هذه الطينة، بل هناك رجل واحد فقط، وهذا الرجل هو بالذات).

النقطة الثانية: كان البيان يصر على أن هذه الشخصية ستشترك في تعيينها جميع المؤسسات المدنية، ولما كانت هذه المؤسسات غير سياسية، فإن من شأن دعمها أن يحرر الرئيس المؤقت من أي التزام أو مساومة حزبية وأن يجعل في الإمكان إجراء انتخابات حرة ونزيهة.

وقد أعلن البيان أنه «ليس ضرورياً أن يأتي أحد إلى لاسييرا لمناقشتنا، فنحن مستعدون لإرسال من يمثلنا إلى هافانا أو المكسيك أو أي مكان آخر».

ولقد سعى فيدل جهده كي يُضمِّن بعض التصريحات عن الإصلاح الزراعي معنى أكثر جذرية. لكنه تبين أنه من الصعوبة بمكان عظيم تحطيم المقاومة الصخرية للشخصيتين الرجعيتين. «وضع الأسس لإصلاح زراعي يهدف إلى توزيع الأراضي البور»، ذلك هو التدبير الوحيد الذي يمكن، بأقصى الصعوبة، أن تقبل به «دياريو دي لامارينا»[1]، وبخاصة إذا أضيف إليه هذا الإيضاح على البيعة: وذلك مقابل تعويضات للملاكين السابقين».

لم تنفذ الثورة بعض البنود بصورة حرفية، إذ تجب الإشارة إلى أن العدو هو الذي خرق الاتفاق، المعبر عنه ضمنياً في البيان، إذ رفض الاعتراف بسلطة لاسييرا وحاول أن يقيد مسبقاً الحكومة الثورية المنتظرة.

وبالرغم من أننا لم نكن مقتنعين بتلك المواطأة، إلا أنها كانت ضرورية. كانت خطوة إلى الأمام في تلك الظروف، ولكنها لم تكن تستطيع الاستمرار إلى ما بعد اللحظة التي أصبحت فيها قيداً يعوق تطور الثورة، ولكننا كنا مستعدين لتنفيذها. وإن العدو هو الذي ساعدنا، بخيانته، على تحطيم تلك الروابط المزعجة، وكشف النقاب عن حقيقة نواياه أمام الشعب.

(1) جريدة يومية رجعية جداً، وقد احتلت مكاتبها الجريدة اليومية الشيوعية بعد انتصار الثورة. ولا تزال الجريدة الرجعية تصدر حتى اليوم في ميامي.

كنا نعلم ان البيان لم يكن إلا برنامجاً أدنى يحد من انطلاقنا، ولكننا كنا نعلم - في الوقت ذاته - أنه ليس في إمكاننا فرض إرادتنا عن طريق سييرا مايسترا، وأنه يجب علينا أن ناخذ بعين الاعتبار - خلال حقبة طويلة - مجموعة كاملة من «الأصدقاء» الذين ينوون استغلال قوتنا العسكرية والثقة العظيمة التي يضعها الشعب في شخص فيديل كاسترو من أجل أغراضهم الدنيئة، والتكريس لسيطرة الامبريالية في كوبا عن طريق البورجوازية التجارية المستوردة ذات الارتباط الوثيق بالسادة الأميركيين الشماليين.

لقد اشتمل البيان على جوانب إيجابية فتحدث عن سييرا مايسترا بوضوح وجلاء وقال: «لا يستجيب احد إلى الدعاية الحكومية حول الأوضاع السائدة في لاسييرا، فقد أصبحت سييرا مايسترا معقلاً حصيناً للحرية، التي مدت جذورها في قلوب مواطنينا. ونحن هنا سوف نكون عند إيمان شعبنا وثقته بنا». لقد كانت عبارة «نحن هنا» تقصد فيديل وحده، أما شريكاه في وضع البيان فلم يكن في استطاعتهما أن يتابعا - حتى كمتفرجين - تطورات نضال لاسييرا مايسترا، ولذلك نزلا فوراً منها، وقد استقبلت الشرطة الباتيستية أحدهما، تشيباس، بل أساءت معاملته، وانتهى الأمر بهما إلى الارتماء في أحضان الولايات المتحدة الاميركية.

كان البيان ضربة محكمة للعدو، إذ ان جماعة من أبرز وجوه الأوليغارشيا الكوبية صعدت إلى لاسييرا «دفاعاً عن الحرية»، ووقعت بياناً مشتركاً مع الزعيم المحارب المحصور في جبال مايسترا، ثم خرجت بحرية إلى ميامي حيث لعبت ورقتها الجديدة. ويبدو أن هؤلاء السادة قد نسوا أن هناك حدوداً لمجال كل مناورة سياسية، وأن هذه الحدود هي، بالمناسبة، أسلحة الشعب.

إن العمل السريع الذي قام به قائدنا، الطافح ثقة، في جيش قد منع الخيانة من الاتساع. كما أن رده الخاطف بعد ذلك بشهور، عندما افتضح اتفاق ميامي، أدى إلى شل العدو عن العمل والحركة. ولقد اتهمونا بالانقسامية وباننا اردنا فرض إرادتنا منذ سييرا مايسترا، ولكنهم اضطروا أخيراً إلى تغيير مخططهم واعتماد حيلة جديدة، ألا وهي معاهدة كاراكاس.

كان البيان يحمل تاريخ ١٢ تموز ١٩٥٧ وقد نشر آنذاك في الصحف، ولم يكن هذا البيان في نظرنا سوى وقفة قصيرة في الطريق، وكان علينا أن نتابع مهمتنا الاساسية في كسر الجيش الغاشم في ساحة المعركة. ففي تلك الايام شكلت كتيبة جديدة عُهد إليّ بقيادتها برتبة نقيب، كما حدثت ترقيات أخرى، فرقي راميرو فالديس إلى رتبة نقيب، وانضمت سريته إلى كتيبتي، كما رقي ثيثرو ريدوندو إلى رتبة نقيب هو الآخر، وتسلم قيادة سرية أخرى ضمن كتيبتي. وهكذا أصبحت الكتيبة تضم ثلاث سرايا يقود الأولى لالو ساردينالس الذي كان على رأس الطليعة، ويستلم مهمة الرئيس الثاني للكتيبة، ويقود السريتين الاخريين كل من راميرو فالديس وثيرو ريدوندو. وقد كانت الكتيبة - التي درج الرفاق على تسميتها «هجرة الفلاحين» - مؤلفة من خمسة وسبعين رجلاً مختلفي اللباس والسلاح، ومع ذلك فقد كنت اعتز بهم كثيراً. وقد شعرت في الأيام التالية «مزيد من الفخر، وبتعلق اعظم بالثورة إذا كان ذلك ممكناً، وبرغبة شديدة في ان اثبت استحقاقي للرتبة التي رقيت إليها.

كنا منهمكين في كتابة لائحة تهنئة وامتنان إلى «كارلوس» (الاسم السري لفرانك بايس) الذي كان يعيش أيامه الأخيرة. وقد وقع الخطاب جميع الضباط الذين يجيدون التوقيع (لم يكن فلاحو لاسييرا عريقين في هذا الفن، ومع ذلك فقد كانوا يشكلون جزءاً هاماً من الجيش المحارب). ووقع أفراد الرتل الاول، وكل واحد يشير إلى رتبته بجانب اسمه. وعندما جاء دور رتلنا هتف فيديل بكل بساطة «سجله رائداً»، وذلك حين كنت أهم أن أسجل رتبتي بجانب اسمي وهكذا، بهذه الطريقة الاليفة، وبدون احتفالات أصبحت رائداً للكتيبة الثانية في الجيش الثائر التي ستصبح الرابعة فيما بعد.

حررنا رسالتنا الحارة تلك في بيت أحد الفلاحين (ولا اذكر اي بيت كان)، ثم ارسلناها إلى أخينا المدني الذي كان يناضل في سانتياغو نفسها ببطولة كي يزودنا بكل ما نحتاج إليه ويخفف الضغط عنا من قلب سانتياغو.

لقد جعلتني روح الاعتزاز والخيلاء التي سيطرت على مشاعرنا جميعاً أشعر كأنني أكثر أهل الارض فخراً، فقد استلمت رمز ترقيتي وهو

نجمة صغيرة من الرفيقة ثيليا، بالإضافة إلى ساعة يد كنا قد أوصينا على عدد منها من مانثانيليو. وكانت أولى مهام كتيبتي الحديثة التكوين تطويق سانتشت موسكيرا، ولكن هذا الوغد كان قد ابتعد عن المنطقة. وكان علينا أن نفعل شيئاً لملء حياتنا الجديدة نصف المستقلة بين هذه المنطقة وبين إقليم أومبريتو نقطة تجمعنا. كنا نريد أن نظهر أهليتنا بعمل لامع نقوم به، ولم تكن الأفكار تنقصنا...

كان يجب أن نهيأ للاحتفال كما ينبغي بذكرى ٢٦ تموز القريبة، فاطلق فيديل حريتي لكي أشرف على الاحتفال بهذه الذكرى ضمن حدود التعقل. واذكر أن اجتماعنا الأخير عقد بحضور طبيب شاب انضم إلى الجيش حديثاً، وهو سيرفيو دل فايي (الرئيس الحالي لهيئة أركان جيشنا الثوري)، وقد باشر مهامه كطبيب حسبما تسمح بذلك ظروف لاسييرا.

شعرنا بضرورة التحرك لنبرهن على وجودنا، فقد تلقينا بعض الضربات القاسية في السهل إذ وقعت الأسلحة المرسلة لفتح جبهة جديدة في سنترال ميراندا، في ايدي الشرطة واعتُقل كثير من كبار المنظمين ومن بينهم فاوستينو بيريز وقد كان فيديل يعارض توزيع القوات ولكنه تراجع عن نيته امام إلحاح رفاق السهل، أما الآن فقد ثبت صواب رايه، فتفرغنا لتقوية مراكزنا في سييرا مايسترا كخطوة مبدئية نحو امتداد الجيش الثائر.

* * *

ـ ٢٠ ـ

الهجوم على بييسينو

بدأت المشاكل تظهر بمجرد ما تنسمنا أولى نسائم الحياة المستقلة الجديدة، إذ أصبح علينا أن نضع جيشنا تحت نظام صارم، وأن نشكل القيادات ونؤسس نوعاً من هيئة أركان الحرب حتى تتسنى لنا النجاحات في المعارك المقبلة، ولا شك أن القيام بهذه الأعمال يعتبر شاقاً بالنظر لضعف النظام والانضباط بين المناضلين. وبعد اكتمال تنظيم الجيش، فقدنا رفيقاً عزيزاً هو الملازم الأول ماثيو Maco الذي أوفد في مهمة إلى سانتياغو فسقط هنالك وهو يقوم بواجبه ولم نره منذ ذلك الحين.

جرت ترقيات جديدة تناولت وليم رودريغس وراوول كاسترو ميركادر Raul Castro Mercader اللذين رقيا إلى رتبة ملازم أول، وهكذا استمرت عمليات تنظيم الجيش الثوري المحارب، وفي صباح أحد الأيام اكتشفنا هرب أحد الرجال آخذاً معه بندقية من عيار ٢٢ تعتبر من أثمن أسلحتنا في ذلك الوقت. كان الرجل يلقب بـ «وونغ الصيني El Chino Wong». وكان أحد أفراد الطليعة الكشافة. وقد توقعنا أنه سيتجه بعد فراره إلى حيه في إحدى نواحي سييرا مايسترا فأرسلنا رجلين في أثره، ولكن أملنا في العثور عليه كان ضعيفاً لأن الرفيقين باندبراس وباردو الخبيرين في تعقب الفارين تخليا عن عملهما ذاك وتفرغا للقتال بعد أن فشلا في القبض على الفارين السابقين، وقد انضم باردو إلى كتيبتي للقيام بأعمال خاصة تؤهله لها معرفته بمسالك المنطقة ولياقته البدنية

الرائعة.

بدأنا بوضع خطة جريئة وطموحة تتلخص في الإغارة على إستردادا بالما أولاً في منتصف الليل والتوجّه إلى قريتي يارا Yara وفغيتاس Veguitas المجاورتين للقضاء على حاميتيهما الصغيرتين ثم العودة إلى الجبال من نفس الطريق، بهذه الطريقة نستولي على ثلاثة مخافر في غزوة واحدة بفضل المباغتة. وبدأنا بالتمرن على الرمي - مع الاقتصاد في الطلقات - فوجدنا أن جميع الأسلحة في حالة جيدة عدا الرشاش المادزين العتيق الوسخ. ثم أرسلنا إلى فيدل شرحاً لخطتنا طالبين أن يكتب لنا بموافقته أو اعتراضه عليها ولكننا لم نتلق منه أي رد إلى أن كان السابع والعشرون من تموز حيث استمعنا إلى بلاغ رسمي أذاعه الراديو عن وقوع هجوم على إستردادا بالما من طرف مئتي رجل يقودهم راوول كاسترو. وقد نشرت مجلة «بوهيميا»، في العدد الوحيد الذي لم يخضع للمراقبة في تلك الفترة، تحقيقاً صحفياً عن الأضرار التي ألحقتها قواتنا بإستردادا بالما. لقد أحرقنا الثكنة، لكننا بالمقابل فقدنا فيدل كاسترو وثيليا سانشز وكوكبة كبيرة من الثوريين في تلك المعركة. لقد كان الحق والباطل يمتزجان بشدة كما هي العادة دائماً في هذه الأحوال، بحيث أن الصحافيين لا يبينون الحقيقة. والواقع أن الهجوم لم يشنه منا رجل بل أقل من ذلك بكثير، كما أن قائد الهجوم الحقيقي هو الرائد غييرمو غارثيا (وكان نقيباً آنذاك). وقد استحال عليه، بكل بساطة، أن يخوض القتال. وبالفعل كان باريراس، الذي اعتقد أن يوم ٢٦ تموز قد يتميز ببعض الهجمات العنيفة، لم ينتظرنا كي ينسحب، ولعله لم يكن يملك إلا ثقة ضئيلة بمركزه أيضاً. وهكذا كانت حملة إستردادا بالما ضربة فاشلة، الأمر الذي لم يمنع العدو من مطاردتنا في الغداة، ولما كنا نعاني عيب نقص التنظيم بعد، فقد أسر لنا رجل كان لا يزال نائماً قريباً من سان لورنزو إذا لم تخطئني ذاكرتي.

بعد أن بلغتنا هذه المعلومات قررنا أن نتحرك بسرعة لشن هجوم على أي موقع للعدو، كيما نحافظ حول يوم ٢٦ تموز على جو ملائم للثورة. وعندما وصلنا إلى المكان المعروف باسم لاخرينغا La Jeringa لحق بنا أحد الرجلين اللذين أرسلناهما في اثر «وونغ الصيني»، وأخبرنا هذا القادم بأن زميله الآخر في المهمة قال بأنه صديق حميم لوونغ وأنه

لا يستطيع خيانة الصداقة، ثم دعاه للفرار معه، ولما امتنع هذا الرفيق عن الفرار تركه الأخر ومضى في سبيله، ولكن الرفيق أمره بالتوقف فلم يطعه فأطلق عليه النار فأرداه قتيلاً.

دعوت الرجال للتجمع فوق قمة الجبل الذي كان يفصلنا عنه مسرح هذه المأساة وشرحت لهم ما سيرونه وما يؤديه من معان، ثم تحدثت عن موجبات إعدام الفارين ولماذا ينبغي دونما تردد إدانة كل من يحاول خيانة الثورة، ثم مررنا في صف طويل وبصمت مطبق أمام جثة الرجل الذي أراد التخي عن المهمة الموكولة إليه. وقد كان بعض الرجال يقفون لأول مرة أمام هذا الدرس القاسي، ويبدو أنهم كانوا متأثرين بعواطف شخصية تجاه الهارب ونتيجة لضعف سياسي كانوا يعانون منه في تلك الحقبة، ولا أستطيع أن أؤكد أن تأثرهم كان ناتجاً عن غضبهم العادل على ذلك الخائن للثورة. لقد كانت الأوقات صعبة بطبيعة الحال، وكانت العقوبة درساً قاسياً. وليس يهمنا ذكر الأسماء هنا بقدر ما تهمنا الوقائع، وكل ما نقوله إن الهارب القتيل كان فلاحاً شاباً فقيراً من أهالي تلك المنطقة نفسها.

مررنا أثناء سيرنا بمناطق لنا بها سابق معرفة، حتى كان اليوم الثلاثون من تموز عندما التقى لالو سارديناس بأحد أصدقائه القدامى ـ وهو تاجر من منطقة المناجم يدعى ارماندو اوليفر Armando Oliver ـ واتفقنا معه على موعد للاجتماع به في أحد البيوت القريبة من منطقة كاليفورنيا. وتمّ الاجتماع بحضور رجل يدعى خورخي أبيش Jorge Abich، وقد أفصحنا له عن نيتنا في الهجوم على لاس ميناس وبوبييسيتو. كان في ذلك خطر تعرض أنفسنا له، لكن لالو سارديناس كان يعرف الرجلين ويثق بهما ثقة كاملة.

أخبرنا ارماندو بأن كاسيلاس يزور تلك المنطقة في أيام الأحد. وبالفعل، فقد كانت له، بوصفه عسكرياً يحترم نفسه، صديقة صغيرة هناك. وقد كنا مستعدين للقيام بهجوم خاطف ينتهي قبل أن ينتبه العدو لوجودنا، أكثر من استعدادنا لاختطاف ذلك العسكري ـ الشهير بدناءته ـ في هجوم عشوائي. وتعهد ارماندو بإعداد عربات النقل والمرشدين وبإحضار مختص بنسف الجسور التي تربط ما بين بوبييسيتو وبين طريق مانثانيليو ـ بايامو. وتحركنا في الثانية من بعد ظهر اليوم التالي،

حتى وصلنا بعد ساعتين إلى قمة لامايسترا حيث اخفينا حقائبنا الحربية، ثم تابعنا السير حاملين عتاد المعركة. ولم يكن لنا مناص من سلوك طريق طويل مارين بمجموعة من البيوت، من بينها بيت اقيمت فيه حفلة كبيرة. فلفتنا نظر المحتفلين جميعاً، بحيث اضطررنا إلى وضع النقاط على الحروف وتنبيههم إلى اننا نحملهم المسؤولية كاملة فيما إذا عرف العدو شيئاً عن مرورنا، ثم اسرعنا بالرحيل. وبالطبع لم يكن خطر مثل هذه اللقاءات كبيراً لأن المنطقة خالية من اي هاتف ومن اية وسيلة للاتصال، وكان على من يريد الإبلاغ عنا ان يبادر إلى العدو ركضاً.

وصلنا إلى بيت الرفيق سانتيستبن Santiesteban فوجدناه قد اعد لنا شاحنة صغيرة، كما وجدنا عنده شاحنتين ارسلهما ارماندو اوليفر، فركب لالو سارديناس في الشاحنة الاولى، وركب داميريتو معي في الشاحنة الثانية، وركب ثيرو مع سريته في الشاحنة الثالثة، ثم تحركت الفرقة باكملها حتى وصلنا إلى بلدة لاس ميناس بعد ثلاث ساعات، وكان العدو قد رفع الحراسة عن هذه البلدة بحيث كان كل ما يلزمنا هو اتخاذ الاحتياطات الضرورية لتجنب اية حركة نحو بوبيسيتو. وتركنا في لاس ميناس فصيلة المؤخرة بقيادة الملازم الاول فليو اكونيا (الذي اصبح اليوم رائداً)، وتحركنا إلى مشارف بوبيسيتو.

وفي مدخل البلدة اوقفنا شاحنة فحم، وارسلنا معها احد رجالنا ككشاف ليرى ما إذا كانت هناك حراسة في المدخل أم لا، فمعلوماتنا تشير إلى أن الجيش في بعض الاحيان يضع هنالك حراسة للتدقيق في كل ما يخرج من لاسبيرا، ولكن الرجل لم يجد اية حراسة لان جميع الجنود كانوا مستسلمين لنوم هانيء وديع.

وضعنا خطة بسيطة رغماً عن جراتها، وكانت تقضي بأن يهجم لالو سارديناس من الجهة الغربية للثكنة، بينما تطوقها سرية راميرو من كل الجهات، وعند ذلك يبدأ هجوم ثيرو على واجهة الثكنة بواسطة رشاش السرية التابعة للقيادة، اما ارماندو اوليفر فمهمته ان يتحرك بسيارته تحركاً عادياً ثم يسلط اضواءها على الحراس المدهوشين، وعند ذلك يداهم راميرو ورجاله الثكنة ويقبضون على الحراس. وفي نفس الوقت كان علينا ان نعتقل جميع الحراس النائمين في بيوتهم. وقد كلفت سرية

الملازم الاول نودا Noda، الذي مات بعد ذلك في معركة بينو دل اغوا، بمراقبة الطريق ومنع المرور منه إلى ان يبدأ إطلاق النار، كما ارسل وليم لنسف الجسر الواصل بين بويبيسيتو والطريق الرئيسي ليعطل وصول قوات العدو.

ولكن خطتنا لم تطبق كما يجب، لانها كانت بالغة التعقيد بالنسبة إلى رجال لا يعرفون المنطقة ويفتقرون إلى التجربة والخبرة. فقد اضاع راميرو بعض رجاله اثناء الليل ووصل متأخراً قليلاً، كما ان محرك السيارة تعطل، وبالإضافة إلى ذلك كان نباح الكلاب يملأ الدنيا بينما نحن منهمكون في توزيع الرجال على مراكزهم.

وبينما كنت اعبر الشارع الرئيسي للبلدة خرج رجل من احد البيوت فصحت فيه: «قف!... من هناك؟»... فاجاب وهو يحسب انني واحد من رفاقه: «الحرس القروي»، وعندما لقمت بندقيتي لاقتله قفز إلى داخل البيت واغلق الباب بسرعة ثم سمعت صوت انكسار الكراسي والطاولات والزجاج داخل الدار، بينما كان شخص ما يقفز من الخلف دون ضوضاء، وتم نوع من الاتفاق السري بيني وبين الحارس، فلم اطلق عليه النار لانني - من جهة - كنت اهتم اكثر بالاستيلاء على الثكنة، ولانه - من جهة اخرى - لم يقم باية محاولة لتنبيه رفاقه.

انتهينا من وضع آخر دفعة من الرجال في مراكزهم حين تحرك حارس الثكنة الذي اقلقه نباح الكلاب والاصوات الحاصلة من جراء لقائي مع ذلك الجندي، فإذا بي وجهاً لوجه معه لا تفصلنا سوى امتار قليلة عن بعضنا، وكنت احمل بندقية طومبسن ملقمة اما هو فيحمل بندقية غارانت. وكان يرافقني آنذاك باردو كوصيف. وامرت الرجل بالوقوف ولكنه قام بحركة وهو على اهبة إطلاق النار. وكان ذلك كافياً بالنسبة إليّ، فضغطت على الزناد ونيتي ان افرغ رصاصي في جسده، ولكن الطلقة الاولى لم تخرج فبقيت مكشوفاً امام الغارانت وحاول باردو ان يطلق النار من بندقيته العتيقة ذات العيار ٢٢، لكن البندقية الصغيرة رفضت ان تطيعه. ولست اعلم كيف استطاع باردو ان ينجو بحياته من تلك الورطة، اما انا فقد ركضت تحت عاصفة من رصاص الغارانت بسرعة لم يسبق لي ان عدوت بها، وقفزت في الهواء منثنياً بجسمي ثم سقطت في شارع فرعي حيث اصلحت الاستعصاء الطارئ على رشيشي.

ومع ذلك فقد أعطى ذلك الجندي إشارة البدء بالهجوم من حيث لا يشعر، فتعالت أصوات الطلقات من كل جانب. واختبأ الجندي المرتعب خلف عامود في الشارع وبقي هناك حتى عثرنا عليه بعد انتهاء المعركة التي لم تدم إلا دقائق قليلة.

لم يكد باردو يلحق بي حتى توقف إطلاق النار. لقد استسلمت الثكنة. وكان رجال راميرو لدى سماعهم الطلقات الأولى قد هجموا على الثكنة من الخلف وفتحوا عليها ناراً حامية من فوهة باب خشبي.

كان في الثكنة اثنا عشر حارساً جرح ستة منهم. أما نحن فقد تكبدنا خسارة بمصرع الرفيق بيدرو ريفيرو Pidro Rivero الذي التحق حديثاً بالجيش الثوري، بسبب رصاصة اخترقت صدره، كما جرح ثلاثة من رجالنا. وحملنا من الثكنة كل ما نحتاجه من متاع ثم أضرمنا النار وعدنا إلى العربات ونحن نسوق معنا أسيرين أحدهما برتبة رقيب، والثاني جاسوس يدعى أوران Oran.

وفي الطريق ومع إطلالة الصباح قدم لنا الأهالي أقداح الجعة والمرطبات. وكان الجسر الخشبي الصغير القريب من الطريق الرئيسي قد نسف، ونسفنا نحن أيضاً جسراً خشبياً آخر يقوم على مجرى مائي صغير بعد أن مرت منه عرباتنا، وقد أصبح المختص الذي أرسله إلينا أوليفر وبطل هذه العمليات فرداً من جيشنا واسمه كريستينو نارانخو Gristion Naranjo الرائد الذي اغتيل غدراً بعد انتصار الثورة.

وصلنا أخيراً إلى لاس ميناس، حيث توقفنا لتنظيم اجتماع شعبي صغير، كما أخرجنا نوعاً من فصل تمثيلي أيضاً: فقد طلب منا أحد السكان، وهو تاجر صغير، باسم القرية أن نطلق سراح الرقيب والجاسوس الأسيرين، فأجبنا بأننا أخذناهما رهينتين لضمان عدم قيام الجيش بأعمال زجرية ضد الأهالي، ولكننا نوافق على تحريرهما أمام إلحاح هؤلاء السكان. وهكذا أعيد الأسيران، وضمنا في نفس الوقت سلامة الأهالي.

دفنا رفيقنا القتيل في مقبرة البلدة، ثم اتجهنا نحو لاسبيرا. ولما كانت طائرات الاستطلاع تحلق على ارتفاع كبير فوق رؤوسنا، فقد قررنا أن نتوقف في دكان على الطريق لمداواة جرحانا، وقد كان أحدهم مصاباً بجرح جانبي ممزق في مرفقه، وكان الآخر مصاباً بجرح بسيط

في يده من سلاح صغير العيار، اما الثالث فكان مصاباً برضوض في راسه بسبب رفس البغال له عندما اجفلت او جرحت برصاص المعركة فاخذت توجه ركلاتها في كل الاتجاهات واصابت الرفيق بقطعة آجرّ في راسه.

وزعت الاسلحة الماخوذة من الثكنة على الرجال في مرتفع كاليفورنيا، وبالرغم من ان دوري في المعركة لم يكن بطولياً ولا كبيراً - إذ واجهت الرصاصات القليلة الموجهة إليّ بالجزء الخلفي من جسمي - بالرغم من ذلك فقد اصبت من التوزيع رشاشة براوننغ كانت جوهرة الثكنة، وتركت الطومبسن العتيقة ورصاصاتها الخطيرة التي لا تنطلق ابداً في الوقت المناسب. وُزّعت الاسلحة الجيدة على افضل المحاربين، كما سرح اولئك الذين تصرفوا بطريقة سيئة اثناء المعركة، وفي عدادهم «المبتلون»، وهم جماعة سقطوا في الماء اثناء هربهم المجنون بمجرد ان سمعوا اولى طلقات المعركة. واستطيع ان اضع من بين افضل المحاربين في تلك المعركة النقيب راميرو فالديس الذي قاد الهجوم، والملازم الاول راوول كاسترو ميركادير الذي لعب مع رجاله دوراً حاسماً في تلك المعركة الصغيرة.

عندما وصلنا إلى الجبال من جديد علمنا ان الاحكام العرفية قد فرضت، وكذلك الرقابة، كما جاءنا نبأ الخسارة الكبرى التي اصابت الثورة باغتيال فرانك بايس في شوارع سانتياغو، وبذلك انتهت حياة رجل يعتبر من اطهر وامجد رجال الثورة الكوبية. وقد هب اهالي سانتياغو وهافانا وكل كوبا إثر ذلك إلى الشوارع في إضراب آب العفوي، ووقعت الحكومة في دوامة من السخط والانتقاد. كما كان ذلك بداية فترة ميزها الصمت المطبق الذي سيطر على ببغاوات المعارضة المزيفة والاغتيالات الوحشية التي كان يرتكبها الباتيستيون في كل أنحاء كوبا التي اشرعت - كلها - سلاح الحرب.

لقد خسرنا في فرانك بايس مناضلاً مقداماً، لكن اغتياله ادى إلى تظاهرات جبارة، وكان ذلك برهاناً على ان قوى جديدة تنهض ضد النظام وتنزل إلى ميدان الكفاح، وان الروح النضالية عند الشعب تستيقظ.

* * *

ـ ٢١ ـ

معركة الأومبريتو

لم يمض على تشكيل الرتل إلا شهر واحد حتى شعرنا بأخطار حياتنا الرتيبة في سييرا مايسترا تشد علينا. كنا في الوادي المسمى بالاومبريتو El Hombrito، أي الرجل الصغير، وسبب هذه التسمية أن الناظر إلى سييرا مايسترا من السهل المجاور يرى في ذلك المكان بلاطتين صخريتين عظيمتين في نهايتيهما مشكلتين ما يشبه صورة رجل صغير.

كانت الكتيبة لا تزال مستجدة ينقصها الإعداد والتدريب قبل الإلقاء بها في حومة العمليات القاسية، ولكن ظروف حربنا الثورية تستوجب أن نكون على اهبة القتال في كل لحظة، فقد كان لزاماً علينا أن نقف في وجه كل قطعة عسكرية تهاجم ما اصبح الآن «التراب الحر من كوبا»، هذا التراب الذي يضم جزءاً هاماً من سييرا مايسترا.

وفي التاسع والعشرين من آب، أو بعبارة أدق في ليل ذلك اليوم، اقبل علينا فلاح يخبرنا أن فرقة كبيرة تتجه نحو المايسترا وتعتزم بالتأكيد المرور باومبريتو ثم تتبع الطريق النازل نحو الوادي أو المتجه نحو جبل التو دي كورنادو Alto de Cornado لتعبر المايسترا. وقد كان هذا الفلاح معروفاً بجلب الاخبار الكاذبة التي وهبتنا مناعة ضد الذعر فقبضت عليه كرهينة لاحمله على قول الحقيقة وتوعدته باشنع العقوبات إذا اتضح كذبه، ولكنه اقسم باغلظ الإيمان على صدق بلاغه، وذكر بأن الحراس موجودون في مزرعة خوليو زاباتيرو Julio Zapatero على بعد

كيلو مترين من المايسترا.

تحركنا واخذنا بالتمركز. كان على لالو سارديناس ورجاله أن يحتلوا الجهة الشرقية من الموقع في مكان مليء بالاعشاب القصيرة، وكانت مهمته ان يطلق النار بمجرد ما تنحبس فرقة العدو بينه وبين بقية الرتل. اما راميرو فالديس فكان على رأس الرجال الأضعف سلاحاً: ومهمته إحداث «حرب صوتية» لإرهاب العدو. وبالرغم من ضعف نيرانه، فقد كان محصناً بجرف عميق يفصل بينه وبين مكان مرور العدو بحيث لم يكن عرضة لخطر كبير. كان الطريق الذي سيمر منه العدو يصعد مع الجبل من السفح الذي يكمن فيه لالو، اما ثيرو فكانت مهمته أن يهاجم العدو هجوماً منحرفاً. واما انا فتراست مفرزة صغيرة من خيرة الرماة المدججين بالسلاح، وكانت مهمتي ان ابدا المعركة بإطلاق اول رصاصة. كانت افضل سرية هي تلك التي يترأسها راوول ميركادير ضمن كتيبة راميرو، وقد جعلت كقوة صدام لتجني ثمار النصر.

كانت خطتنا في غاية السهولة وتقوم على انتظار وصول الفرقة إلى منعطف صغير من الطريق يميل بزاوية قريبة من ٩٠ درجة كي يلتف حول صخرة كبيرة، وكان علي أن اسمح لما يقرب من اثني عشر جندياً باجتياز منطقة الصنوبر التي ينعطف عندها الطريق، ثم اطلق النار على آخر جندي بالضبط حين يجتاز الصخرة في مكان انعطاف الطريق بحيث نفصلهم عن بقية الرتل، وعند ذلك يجب أن يُباد السابقون جميعاً بسلاح رماتنا، ثم تتقدم سرية راوول ميركادير لاخذ اسلحة القتلى، ثم ننسحب جميعاً على أن تغطينا فصيلة المؤخرة التي يقودها الملازم الاول فيلو اكونيا.

وعند الفجر، ومن بين أشجار البن عند الموقع المقرر لراميرو فالديس، كنا نشخص بثبات إلى دار خوليو ثياتيرو القائمة في اسفل السفح، ولما أشرف الشروق شاهدنا رجالاً يتحركون دخولاً وخروجاً من الدار بعد استيقاظهم من النوم، ولم يمض وقت قليل حتى بدأوا بارتداء خوذاتهم العسكرية، فتأكد لنا صدق الفلاح الذي نقل الخبر، وكان رجالنا جميعاً في تلك الاثناء قد التحقوا بمراكزهم، وفعلت مثلهم فالتحقت بمركزي بينما شوهدت مقدمة الفرقة تجهد نفسها في صعود

الجبل. وكان انتظاراً طويلاً داعبت خلاله زناد بندقيتي البراونتغ الجديدة وانا اتحرق شوقاً لإطلاقها لاول مرة في صدور العدو. واخيراً وصلت اصواتهم إلينا: كانوا قريبين منا بحيث سمعنا اصواتهم اللامبالية وصياحهم الصاخب. ومر اولهم من منطقة الصنوبر، ثم مر الثاني، فالثالث، ولكنهم للأسف كانوا متباعدين، بحيث ما كان يمكن انتظار مرور اثني عشر جندياً على هذا النسق، كما كان مقرراً. وعندما مر الجندي السادس سمعت صيحة تعجب ثم رأيت احد الجنود يرفع راسه مندهشاً، وبسرعة فتحت النار فسقط الجندي السادس، وتعمم إطلاق الرصاص في مثل لمح البصر، وحين افرغت بندقيتي الاوتوماتيكية للمرة الثانية كان الجنود الخمسة الآخرون قد اختفوا عن انظارنا، وعند ذلك اعطيت امراً بهجوم سرية راوول ميركادير بينما نزل بعض المتطوعين إلى ساحة المعركة، ثم أطلقت النار من الجهتين على العدو، وتقدم الملازم الاول اوريستس Orestes من المؤخرة بصحبة راوول ميركادير نفسه والفرنسو زاياس Alfonso Zayas والتيبيادس برموديز Alcibiades Bermudez ورودولفو فاسكيز Rodolfo Vazquez واطلقوا النار من الصنوبر على فرقة العدو التي كان يقودها ميروب سوسا Merob Sosa. وجرد رودلفو فاسكيز الجندي الذي اصيبه من سلاحه، ولشد ما خاب املنا في تلك البرهة حين وجدنا ان الجريح لم يكن إلا ممرضاً صحياً يحمل مسدساً كمسدسات الحرس القروي مع عشر او اثنتي عشرة طلقة، أما الخمسة الآخرون فقد فروا إلى يمين الطريق ثم اتجهوا في طريق مجرى النهر حيث اتوا. وبعد قليل بدات قذائف البازوكا بالانفجار، إذ كان العدو قد استعاد رباطة جاشه بعد المباغتة الهائلة - حين بدا المسير لم تخطر في باله مطلقاً فكرة الاصطدام باية مقاومة.

كان سلاحنا «الثقيل»، الوحيد هو رشاشة ماكسيم Maxim ولكنها لم تشترك في المعركة لان المكلف بها خوليو بيريز فشل في استعمالها. وعند ذلك هجم راميرو فالديس وباردو وخويل إيغليسياس باسلحتهم شبه الصبيانية بينما كانت بنادق الصيد تطلق اصواتاً جهنمية موقعة الفوضى في صفوف العدو. واعطيت الامر بانسحاب الكتيبتين الجانبيتين ثم انسحبنا بعدهما، بينما تابعت فصيلة المؤخرة إطلاق النار إلى ان انسحب لالو سارديناس ورجاله.

لحق بنا فيلو اكونيا بعد إتمام مهمته وأخبرنا بمصرع هرمس ليفا ابن عم خويل إيغليسياس، ثم تابعنا الانسحاب حتى قابلتنا كتيبة بقودها النقيب إيغناسيو بيريز، أرسلها فيديل لتعزيزنا عندما علم بخطة لقائنا مع قوات تفوقنا عدداً وعدة. ابتعدنا عن مسرح المعركة بحوالي ألف متر، وفي مكاننا نصبنا فخاً جديداً للعدو. ورأينا قواته تصعد إلى التل الصغير الذي شهد المعركة، وتمد يدها المجرمة إلى جثة هرمس ليفا وتضرم فيها النار، فهذه الطريقة هي السبيل الوحيد لانتقامهم. ولم نتمكن من عمل شيء في غمرة غضبنا، فقد كانت طلقاتنا ورشاشاتنا تنصب من بعيد على العدو، فيجيبها بقذائف البازوكا.

دلّت هذه المعركة على ضعف تدريب رجالنا الذين لم يستطيعوا إصابة العدو بالرغم من مروره أمامهم وعلى بعد قريب جداً كما حدث عندما كان البعد بيننا وبين طليعة العدو لا يتجاوز العشرة أو العشرين متراً. ولكنه بالرغم من ذلك كان نصراً عظيماً لنا إذ أوقفنا فرقة ميروب سوسا وأجبرناها على التراجع في الليل، وغنمنا منها مغنماً صغيراً بأخذنا سلاحاً فردياً، وإن كان هذا المغنم قد كلّفنا حياة مناضل شجاع. وقد حققنا كل ذلك بأسلحتنا الخفيفة غير الفعالة مقابل فرقة كاملة يبلغ تعدادها ١٤٠ رجلاً على أقل تقدير وتحمل تجهيزات حربية حديثة وتقذف بحمم البازوكا وربما قذائف المورتر على مواقعنا، ولكن قذائفها هذه لم تكن أدق تصويباً من طلقات رجالنا على طليعة العدو.

صدرت بعد هذه المعركة قائمة من الترقيات لا أذكر منها إلا ترقية ألفونسو ثاياس إلى رتبة ملازم أول لدوره البطولي في المعركة. وفي مساء ذلك اليوم أو في اليوم التالي على ما أظن ابتعدت فرقة العدو، واجتمعنا بفيديل حيث قص علينا منشرحاً قصة هجومه على القوات الباتيستية في منطقة لاس كويفاس، وأخبرنا بمصرع مجموعة من الرفاق الشجعان أثناء الهجوم ومن بينهم خوفنتينو الركون Juventino Alarcon مواطن مانثانيليو، وأحد قدامى الجيش الثوري، وباستور Pastor وجاجو كاستيليو Gayo Castilo وأوليفا Oliva وهو ابن لملازم في الجيش الباتيستي وشاب مناضل رائع كبقية الرفاق.

كان للهجوم الذي شنه فيديل أهمية أبعد مدى من هجومنا لأنه لم يكن مجرد كمين بل هجوماً جريئاً على معسكر مجهز باستحكامات

دفاعية قوية. وبالرغم من أن الهجوم لم يكن يقصد إبادة العدو، فقد كان عدد قتلاه مرتفعاً. وكان من أبطال ذلك اليوم «بيلون الأسود» الرفيق الشجاع الذي دخل أثناء المعركة إلى كوخ صغير فوجد فيه - على حد تعبيره - «عدداً كبيراً من الأنابيب العجيبة وبجانبها بعض الصناديق»، ولم تكن هذه الأنابيب سوى مدافع البازوكا التي تركها العدو، ولكننا لم نكن نعرف عن هذا السلاح إلا اسمه، ولذلك تركه فيليكس (بيلون الأسود) وانسحب مجروحاً في ساقه. وهكذا خسرنا فرصة الحصول على سلاح قوي وفعال في الهجوم على التحصينات الصغيرة للعدو.

كان لمعركتنا ذيول جديدة. فبعد يومين جاءتنا أنباء عن تقرير رفعه الجيش يتحدث عن خمسة أو ستة قتلى؛ ثم علمنا أنه بالإضافة إلى إساءة العدو الوحشية لجثة رفيقنا، فقد عمد إلى قتل خمسة أو ستة فلاحين اعتبرهم المجرم ميروب سوسا مسؤولين مباشرة عن وقوعه في الكمين لأنهم تستروا على وجودنا في المنطقة، ولا زلت أذكر من أسماء هؤلاء إبيغاييل Abigail وكاليكستو Calixto وبابليتو ليبون Pablito Lepon وجميعهم من أنصار الثورة أو متعاطفون معها على أقل تقدير لأنهم كانوا يعلمون بوجودنا في المنطقة فتضامنوا عاطفياً مع قضيتنا كما تضامن كل الفلاحين، ولكنهم كانوا أبرياء بعيدين كل البعد عن الاشتراك في تلك العملية، إذ أننا اعتدنا إخفاء خططنا عن الفلاحين علماً منا بأننا لو أشركناهم فيها إنما نعرضهم لانتقام رخيص من قبل قادة الجيش الباتيستي. وإذا صادف أن مر بعض الفلاحين بالأمكنة التي نكمن فيها فقد كنا نحتجزهم حتى تنتهي العملية. أما هؤلاء المساكين فقد قتلوا داخل أكواخهم ثم أُحرقت هذه الأكواخ بعد موتهم.

لقد أثبتت هذه المعركة سهولة الإغارة على القطع المتحركة لجيش العدو في ظروف معينة، كما ولدت في نفوسنا الثقة بخطة الرمي دائماً ضد طليعة الفرقة المعادية وقتل أوائل الجنود لكي يمتنع الآخرون عن التقدم وتتجمد بالتالي حركة الفرقة. وقد أخذت هذه الخطة تتبلور شيئاً فشيئاً إلى أن أصبحت خطة منهجية وعلمية أجبرت العدو على الإحجام عن اختراق سييرا مايسترا، وأوقعت الفوضى في صفوفه نتيجة هرب الجنود من الطلائع الأمامية، ولكن تبلور الخطة استلزم معارك عديدة.

استطعنا الآن أن نتحدث مع فيديل عن أعمالنا العظيمة التي اكتسبت عظمتها من عدم التكافؤ القوي بين جنودنا ذوي السلاح الفقير وبين جنود العدو المدججين بأحدث الأسلحة.

ومنذ ذلك الحين بدأت تباشير فصل جديد من حياة الحرب، أجلى فيه الجيش الباتيستي نهائياً عن سييرا مايسترا واكتفى بهجمات وقحة خاطفة يقودها سانشز موسكيرا أشنع قادة باتيستا وأجرمهم وأكثرهم لصوصية.

* * *

ـ ٢٢ ـ

بينو دل أغوا

بعد لقائنا مع فيديل في ٢٩ آب مشينا أياماً عديدة، تارة مجتمعين، وتارة متباعدين، ونيتنا أن نمر بمنشرة بينو دل أغوا. ولقد علمنا أنه لا وجود لجنود العدو هناك في الوقت الحاضر، أو أن هناك حامية صغيرة على أكثر تعديل.

وكانت خطة فيديل كما يلي: إذا كان ثمة حامية صغيرة، فيجب أخذها. وإذا لم يكن هناك أثر للعدو، فإننا نثبت وجودنا، ومن بعد يواصل طريقه مع فرقته في اتجاه قطاع شيفيرتو، بينما نكمن نحن في انتظار الجيش الباتيستي الذي يسرع في مثل هذه الأحوال دون أن يضيع دقيقة واحدة كي يقوم بمظاهر القوة ويبدد من أذهان الفلاحين النتائج الثورية الناجمة عن مرورنا.

وفي أثناء الأيام التي سبقت بينو دل أغوا، هذه الأيام الطويلة من المسير التي قادتنا من دوث برازوس دل غوايابو حتى مكان المعركة، وقعت أحداث متعددة لعب أبطالها الرئيسيون دوراً في تاريخ الثورة اللاحق.

سجلنا فرار اثنين من فلاحي المنطقة، هما مانولو وبوبو بيتون، اللذان التحقا بصفوف الأنصار قبيل معركة أوفيرو. لقد كانا أخوين لنا في المعركة في ذلك اليوم، أما اليوم فها هما يغادران المعسكر.. وقد رجع إلينا هذان الشخصان فيما بعد، وغفر فيديل خيانتهما. بيد أنهما لم يرتفعا قط فوق وضعهما بوصفهما شقيقين نصف رحالين. ولقد

اغتال مانولو، بدافع حزازة شخصية، الرائد كريستينو نارامو بعد انتصار الثورة، ونجح في الإفلات من قلعة لا كابانا حيث سجن، وشكل زمرة صغيرة من الأنصار في نفس المكان حيث قاتل في سييرا مايسترا. وفي ذلك الحين اغتال بانشو تاماير، هذا الرفيق المقدام الذي التحق بالثورة منذ الأيام الأولى. ولقد اعتقل بعض الفلاحين مانولو وأخاه بوبو، وأعيم كلاهما رمياً بالرصاص في سانتياغو.

وهذا حادث أليم آخر: إن رفيقاً يدعى روبرتو رودريغز قد جرد من سلاحه بسبب عصيانه الأوامر. كان عصياً على الانضباط حتى درجة كبيرة فجرده ملازم زمرته من سلاحه، ممارساً بذلك حقاً انضباطياً. لكن روبرتو انتزع مسدس أحد زملائه وانتحر. ولقد قامت بيننا مشادة صغيرة بشأنه: ذلك أني عارضت تشييع جثمانه بطريقة عسكرية، بينما كان المقاتلون يعتبرون انه يضاف إلى قائمة موتاهم. ولقد بينت ان الانتحار في مثل هذه الظروف عمل بغيض كائنة ما كانت صفات روبرتو على أية حال. وهدأ الرجال أخيراً، واكتفينا بالسهر على الجثمان من دون الاحتفالات العسكرية.

وكان قبل يوم أو يومين قد روى لي قصته باختصار. كان من الواضح انه فتى فائق الحساسية يحاول، لقاء جهود جبارة، ان ينسجم مع حياة الأنصار، وبالخاصة مع الانضباط، وكل الأشياء التي تتعارض مع ضعف طبيعته الجسدية وغريزته المتمردة...

وأرسلنا بعد ذلك بيومين فصيلة صغيرة إلى لاس ميناس دي بويسيتو كي تقوم بمظاهرة للقوة، إذ كان يصادف الرابع من أيلول. كانت الفصيلة الصغيرة بأمرة النقيب ثيرو رودوندو، وقد عاد إلينا بأسير يدعى ليوناردو بارو. لعب بارو هذا دوراً هاماً في صفوف الثورة المضادة. ظل أسيرنا مدة طويلة، ثم قص علي ذات يوم قصة مؤثرة عن مرض والدته. وصدقته وسعيت مع ذلك إلى إقناعه بأن يعطي تحريره بعض الانعكاسات السياسية، فاقترحت عليه ان يأخذ سيارة ركوب، وأن يشاهد والدته في هافانا، وأن يطلب بعد ذلك حق اللجوء السياسي في إحدى السفارات، معلناً عن رغبته في عدم النضال ضدنا بعد الآن مطلقاً، وفاضحاً لنظام باتيستا. ولم يقبل، بحجة انه لا يستطيع أن يفضح النظام الذي يقاتل أخوته من أجله. واتفقنا ان يقتصر، حين يطلب حق

اللجوء السياسي، على التصريح بعدم رغبته في القتال بعد الآن مطلقاً.

ارسلناه مع اربعة رفاق، وكانت التعليمات المعطاة لهم هي منعه من مقابلة كائن من كان اثناء الطريق، على الرغم من انه كان يعرف عدداً لا بأس به من الفلاحين الذين كانوا يأتون لرؤيتنا في المعسكر. وفضلاً عن ذلك، فإن الرفاق الاربعة المكلفين بمرافقته يتوجب عليهم أن يقطعوا الطريق كله سيراً على الاقدام حتى جوار بايامو، هناك يمكنهم ان يتركوه كي يرجعوا إلى المعسكر من طريق ثانية.

ولم ينفذ هؤلاء الرجال الاوامر. لقد قابلوا عدداً كبيراً من الناس، بل عقدوا اجتماعاً حضره بارو بوصفه مطلق السراح وبوصفه نصيراً في حسبائنا، ومن ثم ركبوا سيارة جيب قاصدين بايامو. وفي الطريق اوقفتهم القوات الباتيستية، وقد اعدموا جميعاً. ولم نعرف قط ما إذا كان بارو قد غمس يده في هذه الجريمة ام لا. ومهما يكن من أمر، فقد اقام من فوره في لاس ميناس دي بويستيو، ووضع نفسه تحت أمرة المجرم سانشز موسكيرا، وجعل يفتش بين الفلاحين الذين يؤمون المدينة لابتياع حاجاتهم عن أولئك الذين هم على اتصال بنا.

إن الضحايا الذين كانت خطيئتي سبباً في فقدان الشعب الكوبي لهم لا حصر لهم.

وبعد ايام من انتصار الثورة اعتقل بارو ونفذ فيه حكم الإعدام.

ونزلنا بعد ذلك بوقت قصير إلى سان بابلو دي ياو، فاستقبلنا الاهالي بصدر رحب. احتلينا الدسكرة في الحال لبضع ساعات (لم يكن فيها جنود اعداء مطلقاً)، وقمنا ببعض الاتصالات، فارتبطنا باواصر المعرفة مع اشخاص عديدين من المحلة وشحنا جميع البضائع التي استطعنا تكديسها في شاحنات دبرها لنا هؤلاء التجار انفسهم الذين كانوا يبيعوننا الحاجيات (بالدين، لاننا كنا ندفع في ذلك الحين بالقسائم). وتعرفنا في هذه المناسبة إلى ليديا دوتشي التي أُحيي ذكراها في هذه الصفحات.

وكان علينا أن نهتم بنقل البضائع، ولم يكن ذلك بالأمر السهل، إذ أن الطريق الذي يصعد من سان بابلو دي ياو إلى بيكو فردي من منجم لاكريستينا صعب جداً، ولا يمكن تسلكه إلا للشاحنات القوية والخفيفة الحمولة. ولقد تعطلت شاحناتنا في الطريق، وكان لا بدَّ لنا أن نحمل

المؤن على ظهور البغال أو الرجال.

كانت تلك الأيام شاهدة أيضاً على مجموعة من الانفصالات. ذلك أن أحد الرفاق، وهو مقاتل جيد، قد طرد من الانصار لأنه سكر خلال حملة ياو، معرضاً بذلك رفاقه للخطر. كذلك ترك رفيق آخر هو جورج رموتوس مركزه كرئيس زمرة وذهب إلى ميامي برسالة توصية من فيديل. ففي ميامي كان أقل ما يوصف موقفه به هو التردد. وقد التحق بصفوف جيشنا، وصدر العفو عنه، وغفرت له أخطاؤه السابقة.لكنه خان، أيام هوبرت ماتوس،وحكم عليه بالسجن عشرين عاماً، لكنه تمكن من الفرار، بمساعدة سجانه، وقصد ميامي. وكان ينظم التفاصيل الأخيرة لغزوة لصوصية في الأراضي الكوبية حين قضى بصدمة كهربائية في حادث طارىء فيما يبدو.

وكان بين الرفاق الذين غادرونا في ذلك الحين أيضاً ماثيلو فرنانديز منسق الحركة في المدن، وقد عاد إلى السهل بعد إقامة بين ظهرانينا.

وصلنا بينو دل أغوا في العاشر من أيلول. إن بينو دل أغوا دسكرة صغيرة مبنية حول منشرة خشب في غابة سييرا مايسترا، وكان يديرها رجل أسباني في ذلك الحين، وتشتغل فيها حفنة من العمال، ولم يكن فيها جندي واحد. احتلينا الدسكرة، وكشف فيديل عن اتجاه سيره لأهالي القرية، مقدراً أنه لا بد أن يوجد شخص حمل أحاديثه إلى الجيش.

قمنا بمناورة صغيرة للتسلية، وبينما كان رتل فيديل يواصل طريقه نحو سانتياغو تحت سمع جميع الناس وابصارهم، قمنا بحركة التفاف اثناء الليل، وتمركزنا في كمين ننتظر وصول الجيش الباتيستي. ووزعنا الرجال بحيث تكون جميع شاحنات الجيش تحت المراقبة، ونشرنا فرقتنا حتى الطريق الذي يؤدي من ياو إلى بيكو فردي، قبل أميال من بينو دل أغوا، دون أن نهمل الطريق أيضاً، الاكثر استقامة، الصاعد إلى مايسترا، وهو طريق لا تستطيع الشاحنات أن تسلكه. وكان فريق «بيكو فردي» قليلاً جداً، مسلحاً ببنادق الصيد، ومكلفاً بإعطاء الإنذار عند الضرورة، ذلك أن الطريق كان صالحاً للتراجع، وكنا ننوي أن نسلكه بعد المعركة. وكلف ايفغينيو اميخيراس بمراقبة احد الطرق التي يمكن أن ياتي حرس المؤخرة منها، وهو طريق قادم من قطاع «بيكو فردي»

أيضاً، وبقي لالو ساردنياس، مع زمرته، في منطقة «زاباتو» يحرس مجموعة من السبل المفتوحة من أجل استثمار الغابة، وهي سبل تضيع عند حافة بيلاديرو. وكان ذلك احتياطاً زائداً عن اللازم، لأن العدو كان مضطراً من أجل الوصول إلى تلك السبل أن يقوم بمسيرة طويلة جداً في الجبل. وفيما عدا ذلك، فإنه لم يكن من عادته أن يسير بالرتل في الغابة. وكان ثيرو رودوندو مكلفاً، مع كامل زمرته، بالدفاع عن مدخل لاسبيرا.

انتظرنا الجيش على طول الطريق الذي يصعد من غيزا، في غابة عند حافة الجبل، بحيث نستطيع أن نفاجيء الشاحنات وأن نركز طاقة نيراننا. وكان المكان الذي اخترناه يسمح لنا بأن نرى الشاحنات من بعيد جداً. وكانت الخطة بسيطة: نطلق عليهم النار من الجانبين، ونجمد الشاحنة الأولى عند منعطف للطريق، ونفتح النار على جميع الشاحنات الأخرى كي توقفها. وكانت الفئة التي ستخوض المعركة تضم أفضل الأسلحة، وقد جاء يعضدها بعض رجال النقيب راوول كاسترو ميركادير.

بقينا حوالي سبعة أيام في الكمين، صابرين، دون أن نشاهد قادماً واحداً وفي اليوم السابع أخبروني أن العدو يقترب. ولما كانت المرتفعات شديدة، فقد طرق سمعنا، قبل أن نشاهدها، طنين الشاحنات التي تحاول أن تتسلق السفح الرهيب. وتهيأنا للمعركة. احتل الرجال العاملون تحت أمرة النقيب إيغنا سيوبريت أهم الأمكنة، وكان عليهم أن يوقفوا الشاحنة الأولى. وقبل عشرين دقيقة من الصدام هطلت علينا أمطار غزيرة وبللتنا حتى عظامنا. وكان الجنود الأعداء يقتربون في هذه الأثناء، وهم مشغولون بالمطر أكثر من انشغالهم باية معركة ممكنة الوقوع. وكان الرفيق المكلف بفتح النار يملك رشيشاً من نوع طومبسن، وقد فتح النار حقاً، لكنه لم يصب أحداً. وتعمم إطلاق النار، فقفز جنود الشاحنة الأولى، وقد ذعروا ودهشوا لهجومنا أكثر مما جرحوا من جرائه، إلى الطريق واختفوا خلف حافة الجبل بعدما صرعوا مقاتلاً كبيراً، هو شاعر رتلنا الذي كنا نسميه كروتشيتو،واسمه الحقيقي جوزي دولاكروت.

احتمى جندي عدو تحت الشاحنة، عند منعطف الطريق، ولم يسمح لكائن من كان بأن يظهر رأسه. كانت دقيقة أو دقيقتان قد مرتا حين

وصلت إلى مكان المعركة، ذلك اني لاحظت ان عدداً كبيراً من الرجال يتراجعون، تنفيذاً لأمر كاذب، وهو حادث كثيراً ما يقع في ملء المعركة. وكان اركيميدس فونسيني قد جرح في يده وهو يسترد البندقية الرشاشة التي تخلى ملقمها عنها. وكان لا بد من إعطاء التعليمات كي يرجع الجميع إلى المراكز المعينة لهم في المعركة، وكي يتعاون لالو سارديناس وايفيغينيو اميخيراس معنا.

كان في الطريق مقاتل يدعى تاتان؛ حين هبطت إلى الطريق خاطبني قائلاً، وفي صوته معنى التحدي: «إنه هناك، تحت الشاحنة! فلنمض، فلنمض...» جمعت شجاعتي بكلتا يدي، وقد صدمتني عميقاً هذه الصيحات من الجبن. لكننا حين حاولنا أن نقترب من المقاتل العدو، الذي يطلق النار من تحت الشاحنة، لم يكن لنا بدٌ من الاعتراف باننا سندفع غالياً ما نقصده من إظهار بسالتنا.

كانت شاحنات الجيش تعد خمس شاحنات، وكانت تنقل سرية كاملة. وقد نفذت زمرة أنطونيو لوبيز بصورة رائعة التعليمات الصادرة لها بعدم السماح لاي شخص بالمرور بعد بده إطلاق النار. ومع ذلك، فقد كان فريق من الجنود يمنعوننا، بفضل مقاومتهم العنيفة، من أن نتقدم خطوة واحدة. ووصل لالو وايفيغينيو إلى نجدتنا، وهجما مع رجالهما على الشاحنات وصفيّا بؤرة المقاومة. وراح الجنود يولون الإدبار بعضهم صعوداً في الطريق، وبعضهم هائمين، والآخرون في الشاحنتين اللتين انقذوهما، مخلفين وراءهم سائر العتاد والذخيرة.

واستطعنا بفضل جلبرتو كالديرو أن نحصل على معلومات بخصوص بعض نواياهم. كان هذا الرفيق قد وقع في الأسر خلال مهمة استطلاعية في قطاع آخر، وظل في قبضة العدو بعض الوقت، وقد جاء به العدو إلى هناك كي يسمم فيديل، وذلك بان يسكب محتوى قارورة صغيرة في طعام القائد. وحين سمع كالديرو الانفجارات هبط من الشاحنة مثل جميع الجنود، لكنه بدلاً من أن يفر من النار تقدم إلينا في الحال، وانضم من جديد إلى صفوفنا.

وحين فتشنا الشاحنة الاولى عثرنا على قتيلين وجريح واحد، كان يقوم بحركات المقاومة وهو في نزاعه، وقد اجهز عليه احد رجالنا ببرودة. وكان المسؤول عن هذا العمل مقاتل كان الجيش الباتيستي قد

قضى على عائلته بكاملها قضاءً مبرماً. ولقد وجهت إليه لوماً عنيفاً دون ان انتبه إلى ان جندياً جريحاً آخر كان يصغي لاقوالي، وكان هذا الجندي قد احتمى خلف بعض الاغطية وسكن دون حراك على ارض الشاحنة. ولقد بعثت كلماتي بعض الجراة في قلبه، فدلل على وجوده، متوسلاً إلينا كي لا نقتله. كانت ساقه مكسورة وكان يصيح كلما مر احد المقاتلين قريباً منه: «لاتقتلني! لا تقتلني! يقول «تشي» إن الاسرى لا يقتلون»... وحين انتهى القتال، نقلناه إلى المنشرة وقدمنا إليه الإسعافات الأولى.

ولم نتنزل بالعدو في الشاحنات الاخرى إلاّ خسائر طفيفة، لكن مقداراً كبيراً من السلاح بقي بين ايدينا.

كانت النتيجة النهائية للقتال كما يلي: بندقية اوتوماتيكية واحدة، ٥ بنادق غارانت، رشاش مثلث القوائم مع ذخيرته، ورشاش آخر من طراز غارانت استولى عليه فريق ايفغينيو اميخيراس. كان ايفغينيو، الذي ينتسب إلى رتل فيديل، يعتبر أن مشاركته في القتال كانت حاسمة، وبالتالي فإن له حقاً في بعض الاسلحة المستولى عليها. لكن فيديل كان قد ترك هذه الفصيلة بإمرتي كي تعضدنا فقط. وهكذا فقد وزعت الغنائم، رغماً عن كل الاحتجاجات، بين رجال رتلي، باستثناء رشاش غارانت الذي كان قد اصبح بين يدي بطلنا من قبل.

واعطي مسدس براون تينغ إلى انطونيو لوبيز جزاء سلوكه الرائع، كما وزعت بنادق غارانت على الملازم الاول خويل إيغليسياس، وفيريليس (احد افراد حملة كورانتيا الذين انضموا إلينا)، واوناتي وشخصين آخرين لم اعد اذكر اسميهما. ومن بعد اضرمنا النار في الشاحنات الثلاث التي استولينا عليها، لانه لم يكن في مقدورنا استخدامها.

وبينما كنا نتجمع، مرت الطائرات فوقنا بعدما بلغها خبر الهجوم. لكن بعض النيران في اتجاهها كانت كافية لإبعادها. وكان احد الاخوين باردو، منغولو، قد ذهب ليخبر فيديل باقتراب الحرس، لكننا قررنا أن نرسل إليه رسولاً آخر يحمل إليه نتائج المعركة (ومعه كالديرو كي يروي له مغامرته) وارسلنا إلى ثيرو نخبره بالانسحاب من مركزه، وكلف مونغو مارتينيز بحمل الخبر إليه.

ولم تمض لحظات قليلة حتى سمعنا طلقات نارية. إن مجموعة من

رجالنا، مسلحين ببنادق الصيد، قد اكتشفوا جندياً يتقدم متخفياً، فصاحوا به يأمرونه بالوقوف، ولما حاول الرجل أن يقاوم أطلقوا عليه النار، ولى الرجل الأدبار مخلفاً وراءه بندقيته، وسلمونا بندقية من نوع سبرنغفيلد، شهادة على مآثرتهم، وقد وجدنا من المستغرب أن يكون ثمة جنود مشتتون في القطاع بعد، ومهما يكن من أمر، فقد دخلت البندقية في حساب الغنائم. وشاهدنا بعد يومين مرنغو مارتينيز عائداً أدراجه، وقد أخبرنا أن بعض جنود العدو فاجأوه، وأطلقوا عليه النار من بنادق الصيد، وأنه اضطر أن يفر لأنه كان جريحاً. وكان اثر الخردق في محياه بعد، والحقيقة أنه كان مرشوشاً به رشاً بمعنى الكلمة الحرفي.. ذلك هو إذاً مصدر بندقية سبرنغفيلد التي استولى عليها رفاقنا حملة بنادق الصيد من العدو..! وكانت نتيجة ذلك أن رفيقنا الجريح، وقد حسب أن الحرس باتوا قريبين جداً، سلك طريقاً معترضة وضاع في الأحراج، دون أن يبلغ ثيرو رودوندو أبداً أخبار المعركة ودون أن ينقل إليه أمر الانسحاب، وفي الغداة أرسل ثيرو رسولاً من قبله، فجدد الأمر الصادر إليه بالانسحاب.

وبينما كانت طائرات العدو ب ٢٦ تحلق فوق المنشرة على ارتفاع منخفض بحثاً عن الضحايا، كنا نتناول طعام الإفطار بكل هدوء. اتخذنا أماكننا في أجنحة البناء المختلفة، ورحنا نشرب أقداح الشوكولاته التي حملتها لنا سيدة الدار وهي قلقة على أية حال لمشاهدتها الطائرات أخيراً، وكنا على وشك الرحيل، ونحن أهدأ ما نكون، حين شاهدنا أربع شاحنات ملأى بالجنود تظهر من طريق سيبريا (الطريق التي كان ثيرو يحرسها قبل ساعات قليلة). كان ذلك فريقاً آخر من الجنود قادماً من الاتجاه المعاكس للانضمام إلى الفريق الأول، وكان في مقدورنا أن نفاجئه في كمين مشابه... لكن الأوان كان قد فات، وكان عدد كبير من رجالنا قد تراجع إلى أماكن أكثر أماناً، وهكذا أطلقنا عيارين ناريين في الهواء - تلك كانت إشارة التراجع - ورحلنا بكل هدوء.

إن هذه المعركة، الهامة بردود فعلها (ذلك أن خبرها انتشر في طول البلاد وعرضها)، قد أدت إلى ثلاثة قتلى وجريح واحد في صفوف العدو، فضلاً عن أسير ألقت زمرة ايفينيو القبض عليه في الغداة، حين فتشنا المنطقة للمرة الأخيرة. ذلك كان العريف اليخاندرو، الذي بقي معنا حتى

نهاية الحرب بوصفه طاهياً. ودفنا في الموقع نفسه كروشيلتو، في ملء الحزن العميق الذي ران على الفرقة التي فقدت في الوقت نفسه رفيقاً كبيراً وشاعرها الفلاح.

ويمكننا أن نورد في هذه المعركة أسماء ايفغينيو اميخيراس ولالو سارديناس والنقيب فكتور مورا والملازم الاول انطونيو لوبيز وزمرته ودرميديو ايسكالونا وارثيميدس فونسكاس. وقد سلم الرشاش المثلث القوائم لهذا الأخير، وسوف يستخدمه حين تشفى يده. أما من جانبنا، فقد فقدنا قتيلاً واحداً، واصيب احد رجالنا بجرح طفيف، وكان ثمة رضوض، وخدوش، دون أن ننسى حبات الخردق التي أصابت مونغو المسكين.

غادرنا بينو دل اغوا بدروب مختلفة، وكانت نقطة تجمعنا قطاع بيكو فردي حيث كان يجب أن نعيد تنظيم صفوفنا في انتظار وصول الرفيق فيديل.

واظهر تحليل المعركة أنها تحمل بعد، رغماً عن النجاح الذي حققته سياسياً وعسكرياً، آثار عيوبنا الكبيرة. فقد كان الواجب يدعو إلى استغلال عنصر المفاجأة حتى الدرجة القصوى بحيث نقضي قضاءً مبرماً على ركاب الشاحنات الثلاث الاول. وفيما عدا ذلك، فقد صدر أمر خاطيء بالانسحاب بعد نشوب القتال، وكان هذا الأمر سبباً في فقدان السيطرة على الرجال وفي التخفيف من حماستهم للقتال. ولقد تبين لنا أن ثمة نقصاً في الاندفاع من أجل الاستيلاء على الشاحنات التي لم يكن يدافع عنها إلا عدد ضئيل من الجنود. ويجب أن نشير من بعد إلى أننا عرّضنا انفسنا للخطر بكل حماقة إذ بقينا ليلة كاملة في المنشرة. أضف إلى ذلك أن الانسحاب النهائي قد جرى في فوضى كبيرة، وكان هذا كله يبين الضرورة اللازمة من أجل تحسين الاستعداد للقتال والانضباط في صفوفنا، وهي المهمة التي كرسنا انفسنا لها في الأيام التالية.

* * *

ـ ٢٣ ـ

حادث أليم

بعد معركة بينو دل اغوا، عنينا بتحسين تنظيم قوات الانصار التي استقوت في هذه الأثناء بما انضم إلينا من وحدات مختلفة تخص فيديل. كان هدفنا هو أن نجعلها أكثر فائدة وأشد فعالية في القتال.

وعُيِّن الملازم الأول لوبيز، الذي أبلى بلاءً حسناً في بينو دل اغوا، مع مجموعة زمرته (المشكلة من فتيان جديين تماماً)، كي يكون عضواً في لجنة الانضباط. وكان على هذه اللجنة أن تقوم بالمراقبة، وقد كلفت بفرض احترام قواعد اليقظة، والانضباط العام، والنظافة، والاخلاق الثورية. لكنها لم تحظ إلا بحياة عابرة، وقد حلت بعد تشكيلها بأيام قليلة.

حوالي تلك الفترة تم تنفيذ حكم الإعدام في هارب قديم يدعى كويرفو، ذلك الذي هرب قبل شهرين حاملاً بندقيته. وكان ذلك في جوار «بوتيلا» في معسكر صغير كنا نستخدمه عادة كمحطة انتقالية. أما ما حدث للبندقية، فهذا ما لم نعرفه أبداً؛ وبالمقابل، فقد كانت لدينا معلومات جيدة عن نشاطات هذا الشخص: فبحجة النضال من أجل القضية الثورية وإعدام الجواسيس، كان يحصل الفديات بكل بساطة من قطاع كامل من أهالي الجبل، وربما كان ذلك بالاتفاق مع الجيش.

كانت المحاكمة سريعة، وذلك باعتبار كونه هارباً. وكان يجب الانتقال إلى تنفيذ الحكم. لم يكن إعدام الاشخاص ضد الاجتماعيين الذين يستغلون وضع القوة القائم في المنطقة كي يرتكبوا الجرائم بالامر

النادر لسوء الحظ في سييرا مايسترا في تلك الايام.

وعلمنا ان فيديل انتهى من اجتياز منطقة سونادور، بعدما وصل حتى شيفيريكو، وانه قد عاد إلى قطاعنا. وهكذا قررنا ان نسير نحو بيلاديرو كي نحقق الاتصال معه باسرع وقت ممكن. وفي ذلك الحين كان هناك تاجر من المنطقة الساحلية يدعى خوان بالانسا كانت صلاته بالدكتاتورية وكبار الملاكين الإقطاعيين مفضوحة دون ان يكون في الإمكان التاكيد على ان عداءه حيال الانصار هو عداء نشيط فعال. بيْد ان خوان بالانسا كان يملك بغلاً اشتهر جداً في كل المنطقة لصفات المقاومة والاحتمال التي يتحلى بها. ولقد انتزعنا منه هذا البغل بصفة ضريبة حربية... ولقد وصلنا بالبغل إلى الموضع المسمى بيناليتو، قرب بيلاديرو. وحين بلغنا ضفاف هذا النهر المرتفعة كان لزاماً علينا ان نهبط من مرتفعات صخرية حادة. هل نذبح الحيوان ونقطعه وننقل اللحم، ام نتخلى عنه في ارض عدوة، ام نسوقه حتى آخر نقطة يمكنه الوصول إليها؟. وقررنا ان نعمل بهذا الحل الاخير، فضلاً عن ان نقل اللحم سيطرح علينا مشاكل عديدة. ونزل البغل دونما تردد، ثابت القدم، في اماكن كان لا بدّ من الانزلاق فيها، او التعلق بالحبال، او التشبث قدر المستطاع ببوارز التربة، في اماكن كان حيواننا المدلل - وهو جرو صغير - يرفض ان يتقدم عبرها ويضطرنا إلى حمله بين اذرعنا. وفي الحقيقة إن ذلك البغل برهن على إمكانات بهلوانية عجيبة.

كرر مأثره مرة اخرى عند عبور بيلاديرو، في تلك المنطقة الملأى بالحجارة الكبيرة، وذلك بسلسلة من القفزات المدهشة من صخرة إلى صخرة، وكان هذا سبباً في بقائه على قيد الحياة. ومن بعد، كان من نصيبي ان اركبه، فكان اول مركوب مخصص لي، واستمر الامر على هذه الحال حتى اليوم الذي سقط فيه بين ايدي سانشز موسكيرا، في سياق احد لقاءاتنا التي لا حصر لها في سييرا.

وقع ذلك الحادث الأليم الذي ادى إلى إلغاء لجنة الانضباط على ضفاف بيلاديرو بالضبط. كان فريق من الرفاق، المعادين لتطبيق القواعد الانضباطية، لا يكفون عن وضع العصي في عجلات اللجنة ويعوقونها عن إتيان اي عمل كان. وما كان يمكن لمثل هذا الوضع ان يستمر، بل كان لا بدّ من اتخاذ بعض التدابير الحاسمة. وارتكبت إحدى

مجموعات فرقة الحراسة الخلفية دعاية سيئة الذوق بحق جميع أعضاء اللجنة: لقد طلبت من هؤلاء الأعضاء أن يأتوا جميعاً، بأقصى سرعة، تاركين جميع أعمالهم الأخرى، كي يدرسوا قضية بالغة الخطورة. وكان أفراد المجموعة قد وضعوا هناك، بكل حماقة، قذارة يقصدون منها السخرية من الرفاق. واعتقل أفراد مختلفون من تلك المجموعة بعد الحادث، وكان من بينهم هومبريتو رودريغز، السيء السمعة من جراء ميله إلى القيام بدور القاضي حين جوبهنا بالضرورة الأليمة التي تحملنا على إعدام أحد المجرمين، والذي اغتال أحد الأسرى بعد انتصار الثورة، وذلك بالاتفاق مع جندي آخر من العصاة، وقد نجح كلاهما فيما بعد في الفرار من سجن لاكابانا. ولقد «سُجن» رفيقان أو ثلاثة رفاق آخرين مع هومبريتو. لم يكن السجن يعني شيئاً كثيراً في الظروف التي كان يعيشها الأنصار، لكنه حين تكون الجنحة خطيرة، فقد كان الأمر يبلغ بنا حد حرمان المذنب من الطعام لمدة يوم أو يومين، وكانت تلك عقوبة لها مفعولها في واقع الأمر...

بعد الحادث بيومين، والمذنبون الرئيسيون لا يبرحون موقوفين بعد، أعلن أن فيديل بات قريباً منا، في المنطقة المسماة «الزاباتو» (الحذاء). وقصدت المكان كي أستقبله وأتحدث إليه، ولم يمض علينا ست دقائق في الحديث حتى وصل راميرو فالديس يحمل هذا الخبر: إن لالو ساردينياس قد أراد أن يعاقب بعض الحمية الزائدة أحد الرفاق غير الانضباطيين، فتظاهر أنه يريد أن يفرغ رصاص مسدسه في رأسه، فضغط على الزناد دون قصد، الأمر الذي أدى إلى موت ذلك الرفيق في الحال. وساد الفرقة بعض الهياج بنتيجة ذلك، فهي على وشك التمرد. وأسرعت إلى مكان الحادث دون أن أضيع دقيقة واحدة، ووضعت لالو تحت حراسة مشددة. كان العداء يغلي ضده من كل الجهات، وكان المقاتلون يطالبون بمحاكمة مقتضبة والإعدام.

أخذنا نسجل البيانات والتصريحات ونبحث عن الإثباتات. وكانت الآراء منقسمة: كان البعض يعبرون عن قناعتهم التامة بأن العمل لم يكن سوى اغتيال عن سابق عمد وتصميم، بينما كان الآخرون يميلون إلى فكرة الحادث الطارىء. ويجب أن نشير هنا، بصورة مستقلة عن تلك الآراء، إلى أنه كان محظوراً تماماً، ووفقاً لأنظمة الأنصار، إنزال العقوبة

الجسدية بأي رفيق كان، وبالتالي فإن لالو سارديناس قد خرق القوانين في هذه الحال. كان الوضع دقيقاً جداً. فقد كان الرفيق لالو سارديناس من خيرة المقاتلين على الدوام، ومدافعاً قوياً عن الانضباط، ورجلاً موهوباً بروح التضحية إلى درجة عالية، ومن جهة أخرى، فإن أولئك الذين كانوا يطالبون بعقوبة الموت بكل إصرار لم يكونوا في حال من الأحوال أفضل أفراد الفرقة.

استمرت تصريحات الشهود حتى الليل. وكان فيديل يقف قريباً منا، وكان يؤيد عدم تطبيق عقوبة الموت، لكنه لم يكن يرى من المناسب اتخاذ قرار من هذه الطبيعة دون استشارة جميع المقاتلين. وكانت المرحلة التالية من المحاكمة هي المرحلة التي وجب علينا فيها، أنا وفيديل، أن نكون مدافعين عن متهم كان يشاهد، دون أن تبدو عليه إشارات الألم، سير المناقشات، ولا يفضح أدنى أثر للخوف. وبعد سلسلة من الخطابات اللاهبة التي طالب فيها أصحابها بعقوبة الموت، جاء دوري في الكلام كي أطالب الرفاق بألا يعالجوا هذه القضية باستخفاف. ولقد حاولت أن أوضح أن إعدام رفيقنا يجب أن يُعزى إلى ظروف النضال، إلى واقع كوننا في حالة حرب، وأن الدكتاتور باتيستا هو المسؤول في آخر تحليل. وكانت كلماتي - ويا للأسف!- تتردد بصدى قليل الإقناع جداً أمام أولئك المستمعين الحانقين.

كان الليل قد تقدم، وكنا قد اشعلنا بعض شعل الصنوبر وبعض الشموع كي نواصل المناقشة، عندئذٍ تكلم فيديل طوال ساعة كاملة، وعرض جميع الأسباب التي تؤيد إبراء لالو سارديناس. لقد عدد جميع عيوبنا، وانعدام الانضباط، وأخطاء أخرى كنا نرتكبها كل يوم، ومواطن الضعف الناجمة عن ذلك، وأوضح أن هذا العمل الباعث على الاشمئزاز قد ارتُكب في آخر تحليل دفاعاً عن مفهوم الانضباط، وانه يجب علينا أن نحفظ هذه الفكرة في أذهاننا. كانت الشعل تضيء عليه، بقامته المديدة على خلفية الأحراج، وكان صوته يتخذ نبرات عاطفية، وكان الكثيرون من الرجال، إذ يصغون إليه، ينضمون جهاراً إلى الرأي الذي ينادي به قائدنا.

إن قدرته الهائلة على الإقناع قد وُضعت تلك الليلة موضع الاختبار. ومهما يكن من شيء، فإن بلاغته لم تستطع أن تتغلب على

المقاومات جميعاً. وكانت النتيجة أن نطرح على التصويت العقوبتين الممكنتين: عقوبة الموت رمياً بالرصاص فوراً أو تخفيض الرتبة. وكانت الأذهان تتعرض لتأثير حزمة كاملة من القوى في سياق هذا الاقتراع الجاري في الجبل، حيث كانت حياة رجل معلقة المصير. وكان لا بد من تأجيل الجلسة لأن بعض الأفراد كان يقترع مرتين، ولأن الدعاية كانت قائمة على قدم وساق كي تشوه صيغة الحلين. وأوضح من جديد فيما يقوم الاختيار بين الاقتراعين وطُلب من الجميع أن يعلنوا عن إرادتهم دونما لف أو دوران... وكلفت بأن أحسب الأصوات المقترعة على دفتر صغير من الورق. كان الكثيرون بيننا يحبون لالو، وكنا نعترف بخطيئته لكننا كنا نرغب في بقائه حياً، ذلك أنه كان عنصراً ثميناً من أجل الثورة. وأذكر أن أونيريا، وهي صبية التحقت بنا، قد سالت بصوت مخنوق بالعبرات ما إذا كانت تستطيع هي الأخرى أن تقترع بوصفها مقاتلة في الرتل، فأُعطيَت هذا الحق. وما أن اقترع الجميع حتى باشرنا بفرز الأصوات.

سجلت نتائج هذا الاقتراع الغريبة على مربعات صغيرة من الورق، شبيهة بتلك المربعات التي تستخدم في المخابر الطبية. وكان الاقتراع كثيفاً جداً. وانقسم رأي الأنصار المائة والستة والأربعين الذين اقترعوا كما يلي، وذلك بعد لحظات التردد الأخيرة: سبعون أيدوا عقوبة الموت، وستة وسبعون فضلوا نوعاً آخر من العقوبة. إن لالو قد نجا.

لكن الأمور لم تتوقف عند هذا الحد، ففي الغداة، أعلن فريق من الرجال مناهضين لاقتراع الأغلبية عزمهم على مغادرة جيش الأنصار. وكان في عداد هذا الفريق كثيرون من الأشخاص غير المرغوب فيهم، لكنه كان يضم فضلاً عن ذلك عدداً من الشبان الجيدين. والعجيب في الأمر أن أنطونيو لوبيز، الملازم الأول رئيس لجنة الانضباط، وكذلك بعض أفراد زمرته، قد انسحبوا مستائين من الجيش الثائر. وإني لأذكر بعض الأسماء: شخص يدعى كورو، وآخر اسمه باردو (ابن أخ أحد وزراء باتيستا، الأمر الذي لم يمنعه من الاشتراك في النضال). وإني لأجهل إلامَ انتهى مصير هؤلاء الرفاق، لكن ثلاثة أخوة من عائلة كانيثاريس قد انسحبوا معهم في الوقت نفسه، وهؤلاء لم تكن نهايتهم مجيدة. فقد مات أحدهم في بلاياخيرون، وأسر آخر في المعركة نفسها،

حين حاول المرتزقة غزو كوبا. إن هؤلاء الرجال الذين لم يحترموا الاكثرية والذين انفصلوا عن معركتنا التحقوا فيما بعد بخدمة العدو، وقد عادوا بوصفهم خونة يقاتلون فوق ترابنا.

كان وعي المقاتلين والقادة يزداد عمقاً، وكان أفضل الرجال بيننا يحسون بصورة قاهرة ضرورة الإصلاح الزراعي وقلب النظام الاجتماعي، وإلا فإننا لن نتوصل إلى إصلاح البلاد قط. بَيْدَ انهم كانوا يجرون دائماً إلى الخلف منهم ثقل اولئك الاشخاص الذين لم يلتحقوا بالصراع إلا تعطشاً للمغامرة، او ربما املاً في ان يجنوا مكاسب اقتصادية فضلاً عن اكاليل الغار.

وانسحب عدد من المستائين الآخرين، وقد نسيت اليوم أسماءهم، باستثناء اسم روبرتو الذي حاك فيما بعد قصة لا نهاية لها ومليئة بالاكاذيب، وقد ضيَّع كونتي اغوير ماء وجهه حين نشرها في بوهيميا. ولقد نزعت عن لالو سارديناس رُتْبَةُ وحكم عليه بان يثبت الحق في رد الاعتبار إليه بالقتال وحيداً مع دورية صغيرة ضد العدو. وقرر احد ملازمينا، جواكين دي لاروزا، وهو عم لالو، ان يرافقه. واعطاني فيديل، بديلاً عن النقيب سارديناس، واحداً من افضل محاربيه، الا وهو كاميلو تشيانفويغوس الذي أصبح نقيباً لطليعة رتلنا.

وكان يتوجب علينا ان نتحرك دون ان نضيع دقيقة واحدة كي نجمد جماعة من الاشقياء جعلوا من اسم ثورتنا درعاً لهم، وكانوا يرتكبون جرائمهم في المنطقة حيث بدأ نضالنا، وفي قطاع كراكاس ولومون. وكانت المهمة الاولى التي عهد بها إلى كاميلو في رتلنا هي التقدم باقصى سرعة من اجل اسر جميع هؤلاء الاشقياء غير المرغوب فيهم كيما نستطيع محاكمتهم فيما بعد.

***

ـ ٢٤ ـ

«ألتوس دي كونرادو»

كانت الايام التي اعقبت معركة «مار فردي» اياماً من النشاط المحموم بالنسبة إلينا. كنا نعرف جيداً اننا لا نملك بعد تلك القوة القتالية الكافية من اجل تنظيم معارك متصلة او من اجل تطويق العدو بصورة فعالة او من اجل مقاومة جبهات جبهية، ولذا فقد بقينا في وضعية الهجوم مع مضاعفة احتياطاتنا في وادي الاومبريتو. ويقع هذا الوادي على بعد بضعة كيلو مترات عن «مار فردي»، ولا بد من اجل الوصول إليه من سلوك الطريق الذي يصعد إلى «سانتا آنا» ويعبر غوايابو نفسها بالجنوب، عن طريق هضبة «بوتيلا»، واخيراً من الطريق القادمة من لامينا دل فريو.

كان يجب الدفاع بصورة جدية عن جميع هذه النقاط الموصلة إلى الوادي، كما كان يجب القيام بحراسة دائمة حتى لا يقع العدو علينا بصورة مفاجئة فيما إذا تقدم بقواته عبر الغابات بصورة مباشرة.

كنا قد نقلنا القسم الاكبر من عتادنا إلى قطاع «لاميزا» (المائدة)، عند بولو توريس، كما نقلنا إليه الجرحى، وكان خويل إيغليسياس الوحيد الذي لا يستطيع المشي من بينهم، وذلك بسبب الجروح التي اصيب فيها في ساقه .

كانت قوات سانشز موسكيرا مرابطة في « سانتا آنا» بالضبط، بينما كانت قوات اخرى قد سلكت طريق «كاليفورنيا»، وكنا لا نعرف وجهتها. ووردت إشارة الاستعداد للقتال اربعة او خمسة ايام بعد صدام «مار

فردي ». كانت قوات سانشز موسكيرا تتقدم من الطريق الطبيعية جداً، الطريق الذاهبة مباشرة من سانتا أنا إلى الاومبريتو. واخبرنا رجالنا الرابضين في الكمين في الحال، فتحققوا من حالة الالغام. كانت هذه الالغام الاولى التي وضعناها بانفسنا تملك جهاز اشتعال بدائياً مصنوعاً من نابض ومن مسمار إذا ما حرر دفعه النابض فضرب المفجر. ويجب ان نعترف بانها لم تعمل اثناء معركة مار فردي وانها لم تعمل كذلك هذه المرة.

وصلت اصوات الانفجارات بعد لحظات قليلة حتى مركز القيادة وجاؤوا يخبروننا انه نظراً لعدم انفجار الالغام ولقدوم العدو باعداد كبيرة، فقد انسحب مقاتلونا، لكن بعد ان انزلوا بالعدو بعض الخسائر الفادحة على اية حال. ولقد كانت الضحية الاولى عند العدو، حسب الاوصاف التي قدموها، رقيباً باسق القامة ضخم الجثة، مسلحاً بمسدس من عيار ٤٥ وملحقاته، وكان يسير في مقدمة الرتل المحمول. إن الملازم الاول انريكو نودا ومقاتلاً آخر يدعى «المكسيكي»، قد اطلقا عليه النار من مسافة قصيرة من بندقيتهما، وكانت اوصافهما للرجل متفقة. وعلى اية حال، فإن قوات سانشز موسكيرا قد اجبرت دفاعنا على الهرب.

(بعد اسابيع من ذلك الحادث جاءني فلاح يدعى بريتو ليشكرني على اريجيتنا، ذلك ان العدو اجبره على ان يسير في مقدمة الرتل، وقد شاهد جيداً كيف تظاهر الشبان بانهم يصوبون إليه بنادقهم ويطلقون عليه النار! وعلمت كذلك، من هذا الفلاح نفسه، ان العدو لم يفقد احداً من رجاله في ذلك المكان... وبالمقابل، فقد كبدناه خسائر في الارواح في «التوس دي كونرادو»).

كانت النقطة التي نحتلها من اصعب الاماكن من اجل الدفاع عنها بمواردنا الهزيلة، بحيث لم نتكبد مشقة حفر الخنادق الاهل لهذه التسمية؛ كل ما كان لدينا هو المراكز الدفاعية القديمة، المبنية من اجل قطع الطريق من ناحية «ميناس دي بويسيتو». وفضلاً عن ذلك، فقد كان العدو بتقدمه من الطريق يعرض جميع كمائننا للخطر، بحيث اصدرنا إلى هذه الكمائن امراً بالانسحاب وتراجعنا، ولم يبق في ذلك الموقع إلا عدد قليل من الفلاحين الذين عزموا على مقاومة تعديات

الحرس، أو لعلهم كانوا على اتصال بالعدو سراً.

انسحبنا على مهلنا من الطريق المؤدية إلى «التوس دي كونرادو»، وهي مجرد مرتفع صغير يبرز على خط سييرا مايسترا ويعيش على قمته فلاح يدعى كونرادو. وكان هذا الرفيق عضواً في الحزب الاشتراكي الشعبي[1]، وكان قد اتصل بنا منذ البدء وادى لنا خدمات جلى. وكانت عائلة كونرادو قد نزحت عن المكان، كما كان منزله منعزلاً. يا له من مكان رائع من أجل نصب كمين للعدو! لم يكن الوصول إليه ممكناً إلا من ثلاث دروب ضيقة تتلوى عبر احراج الهضاب، وتحميها الأشجار العالية، وكان كل ما عدا ذلك محمياً بصخور حادة وبمنحدرات شديدة من الخطر بمكان عظيم تسلقها.

وكانت الطريق تنفتح عند مكان تقوم فيه باقة صغيرة من الأشجار. ذلك كان المكان الأمثل من أجل الاستعداد لمقاومة هجمات سانشز موسكيرا. واضيف إلى ذلك اننا وضعنا منذ البدء، في فرن ذلك البيت الصغير، قنبلتين مع فتيلتيهما، وكان الفخ من أبسط الأمور: إذا انسحبنا، فمن المؤكد أن العدو سيقيم في المنزل ويستخدم الفرن، وكانت القنبلتان ترتاحان وسط الرماد الذي يغطيهما تماماً، وكنا نعتقد أن حرارة النار أو جذوة تنقل النار إلى الفتيلين سوف تفجرهما، الأمر الذي لا بد أن يؤدي إلى وقوع عدد من الضحايا. لكن هذا التدبير لن ينفع إلا فيما بعد طبعاً، اما قبل ذلك فالواجب يدعو إلى القتال فوق «التوس دي كونرادو».

بقينا هناك، ننتظر صابرين، طوال ثلاثة أيام، مع نوبات حراسة تتصل اربعاً وعشرين ساعة من أصل كل أربع وعشرين ساعة. كانت الليالي شديدة البرودة وشديدة الرطوبة في ذلك الارتفاع وفي تلك الفترة من السنة. وفيما عدا ذلك، فلا بد لنا أن نعترف باننا لم نكن على قدر كافٍ من الخبرة والاستعداد لتحمل متاعب ليلة كاملة قضيناها في وضعية قتال مكشوف.

كنا قد هيأنا على آلتنا الناسخة التي نطبع عليها جريدتنا «الكوبي الحر» ـ وكان العدد الأول من هذه الصحيفة قد صدر قبل أيام ـ منشوراً موجهاً إلى العسكريين. وكنا ننوي ان نلصقه على اشجار الطريق

(١) هو اسم الحزب الشيوعي الكوبي في ذلك الحين.

التي يسلكونها.

وفي الثامن من كانون الأول، في الصباح الباكر سمعنا من قمة صخرتنا الرتل وهو يتهيأ للصعود. كانوا يصعدون الطريق، حتى بلغوا مسافة تبعد مائتي أو ثلاثمائة متر عنا. وأرسلنا واحداً منا يعلق المناشير، وكان لويس أو لاتابال هو الذي تعهّد بتنفيذ هذه المهمة، وسمعنا صيحات مناقشة عنيفة استطعت أن أميز فيها بكل وضوح (ذلك أنني كنت في وضعية الترقب عند حافة الجدار تماماً) زمجرة ضابط فيما يبدو يصدر أمراً هذا نصه: «عليك أن تمر قبلي، وحق...» ولكن الجندي، أو الطرف الثاني في المناقشة على الأقل، أجاب بالنفي وهو غاضب، وانقطعت المناقشة، وتحرك الرتل إلى الأمام.

كان في مقدورنا أن نرى الرتل يتقدم، بمفارز صغيرة، متخفياً بين الأشجار. وبعدما راقبتهم على هذا الغرار لبرهة من الزمن، ساورتني الشكوك فيما إذا كان من المناسب أن ننبههم إلى كميننا بواسطة المناشير التي سنعلقها. وأخيراً فقد أرسلت في طلب لويس وأخبرته أن ينتزع الأوراق من جديد. ولم يكن لديه سوى جزيئات قليلة من الثانية ليفعل ذلك، إذ أن الجنود الأولين كانوا يصلون بخطى سريعة.

كانت ترتيبات المعركة بسيطة جداً: كنا نفترض أنه حين يصل العدو إلينا مكشوفاً، فإننا سنشاهد رجلاً واحداً يبرز أمامنا، بعيداً عن بقية رفاقه، وهذا الرجل على الأقل يجب أن يصرع. وكان كاميلو في انتظاره، مختبئاً خلف شجرة ضخمة. وحين يمر الجندي أمامه، ناظراً بكل انتباه إلى الأمام منه، فإنه سيفرغ رصاص رشيشه في جسده على مسافة أقل من متر واحد.

عندئذٍ يدخل إلى المعركة، على الجناحين، الرماة القليلون الذين اتخذوا لهم مراكز خفية تماماً عن الأنظار في ملء الأحراج. فعلى الملازم الأول إبراهيم ورفيق آخر، وهما متمركزان امام الطريق تماماً، على بعد عشرة أمتار من كاميلو، أن يغطيا انسحابه بإطلاق النار بصورة جبهية، وذلك حتى لا يقترب أحد من جنود الأعداء من مخبئه بعدما يكون قد صرع رجل الطليعة.

وكان مركزي يقع على بعد حوالي عشرين متراً، في وضعية مائلة خلف جذع شجرة تحمي نصف جسدي، وسلاحي مصوب على مدخل

الطريق الذي سيأتي الجنود منه. وكان عدد منا لا يستطيعون أن يروا شيئاً في البرهة الاولى، ذلك أننا كنا في موضع مغطى بالأعشاب حيث نتعرض لإمكانية رؤيتنا من العدو، بحيث كان لا بد لنا أن ننتظر طلقات كاميلو. واسترقت النظر، خارقاً الأمر الذي أصدرته شخصياً، واستطعت أن أعرف تلك اللحظة من التوتر التي تسبق المعركة: شاهدت ظهور الجندي الأول، كان يتطلع حواليه ودلائل الشك على محياه، ويتقدم ببطء. في الحقيقة إن رائحة الكمين كانت تفوح إلى الخياشيم في هذا الموضع الذي يشذ عن المشهد الطبيعي العادي، بتلك الزاوية المشجرة ونبعها الصغير المتدفق في ملء المزروعات الشديدة الكثافة لتلك الغابة التي تحيط بنا. كانت الأشجار التي سقط بعضها على الارض وانتصب بعضها الآخر، وقد تفحمت جميعاً من جراء حريق سابق، تعطي انطباعاً من البؤس والكآبة. واختبأت، منتظراً بداية المعركة وانطلق عيار ناري، فإذا النار تتعمم. وعرفت فيما بعد أن البادىء بإطلاق النار لم يكن كاميلو، بل ابرهيم الذي لم تعد أعصابه تتحمل الانتظار. لقد أطلق النار قبل الموعد المحدد، فتعمم الرمي في الحال، على الرغم من أننا لم نكن بعد نرى أي إنسان من جميع مراكز مراقبتنا. إن طلقاتنا المنعزلة، التي كان يجب أن تزرع الموت جميعاً، ورمي الجند، الذاهب سدى في زخات طويلة، كانت «تضاف إلى بعضها بعضاً دون أن تختلط»؛ وكانت الأصوات تخبرنا أياً من المعسكرين الحاضرين يطلق النار. ولم تمض دقائق قليلة (خمس أو ست دقائق على الاكثر)، حتى سمعنا فوق رؤوسنا أصوات الصفير الاول لقنابل المورتر والبازوكا التي كان محركها طويلاً جداً بحيث كانت تنفجر إلى الوراء منا.

وعلى حين غرة، شعرت بإحساس مزعج، أشبه بحس الحرق أو تنمل الطرف المخدر: لقد أصبت في قدمي اليسرى التي لم يكن جذع الشجرة يقيها. وفي الحال أطلقت النار من بندقيتي (التي كنت انتقيتها ذات منظار مكبر كي أصوب بصورة أفضل)؛ وحينما أصبت، سمعت رجالاً يهجمون علي بضوضاء كبيرة، وهم يبعدون الأغصان، وكانت خطوتهم خطوة الهجوم. ولم يعد لبندقيتي جدوى، ما دمت قد أطلقت تواً، أما المسدس فقد سقط مني حين ارتميت أرضاً. وكان المسدس تحتي، لكنه ما كان يمكنني التفكير في الوقوف، إذ كنت معرضاً لنيران العدو

مباشرة. ولما انقلبت جانباً، بتلك السرعة التي يفرضها الموقف، نجحت في الإمساك بالمسدس؛ وفي هذه اللحظة شاهدت أحد رجالنا يقترب مني، وكنا نسميه «كانتنفلاس». كان «كانتنفلاس» المسكين يقف بين هذه اللحظات من اليأس والألم الناجم عن الجرح، قائلاً لي إنه ينسحب لأن بندقيته تعطلت، فانتزعت البندقية من بين يديه ورحت أفحصها، بينما استقرّ الرجل إلى جانبي. كان السلاح معطلاً بسبب انحراف ضئيل في الزناد، فاصلحت وضع الزناد في الحال، والقيت في وجهه شتيمة جارحة مثل حد الموسى. وتناول كانتنفلاس، وكان اسمه الحقيقي أوفاتي، السلاح مني وانطلق إلى قلب المعركة. لقد غادر ملجأنا خلف جذع شجرة، واندفع ليفرغ مخزن بندقيته التي هي من نوع غارانت، ورغبته أن يقدم البرهان على شجاعته. لكنه لم يبلغ خاتمة المطاف، إذ أن رصاصة اخترقت ذراعه اليسرى لتخرج من لوح الكتف، مجتازة ممراً غريباً جداً. ها نحن الاثنان جريحان الآن، ولا سبيل لنا للانسحاب تحت وطيس النار الحامية... لم يعد امامنا إلا أن ننزلق فوق جذوع الأشجار المقطوعة، ومن بعد نتقدم من تحتها، دون أن نهتم ببقية الفرقة مطلقاً. ولقد توصلنا إلى ذلك في آخر الأمر، لكن كانتنفلاس اغمي عليه. ولما كان في مقدوري، رغماً من الالم، أن انتقل بشيء اكثر من السهولة، فقد وصلت إلى المكان حيث يوجد الآخرون كي أطلب العون منهم.

كنا نعرف أن في صفوف العدو عدداً من القتلى، لكننا لم نكن نعرف رقمهم المضبوط. وبما أن الجرحى (نحن الاثنين) قد التحقنا بالرفاق، فقد ابتعدنا جميعاً في اتجاه منزل بولو توريس. وبعدما تبددت لحظة الانشراح الأولى وانقشع انفعال المعركة، بدأت أحس الالم بمزيد من الشدة، واصبح المشي أمراً لا يطاق بالنسبة إليّ، واخيراً، في منتصف الطريق، امتطيت جواداً ووصلت راكباً إلى مستشفانا العابر، بينما كان كانتنفلاس محمولاً على نقالتنا الحربية، وهي فراش عادي من القماش.

توقف إطلاق النار، وبدا لنا من المؤكد أن العدو احتل «ألتو دي كونترادو». واقمنا حراساً من أجل إيقافه عند حافة جدول صغير في مكان عرفناه باسم «باتا دي لاميزا» (رجل المائدة)؛ ونظمنا في الوقت نفسه انسحاب الفلاحين وعائلاتهم، وارسلت إلى فيديل رسالة طويلة عرضت له

الوقائع فيها.

وأرسلت الرتل بإمرة راميرو فالديس كي يحقق الاتصال بفيديل. الحقيقة انه كانت تهب على فريقنا ريح من الهزيمة والخوف، وكانت نيتي ان ابقى هنالك مع اقل عدد ممكن من المقاتلين كي يتوافر لنا اقصى مقدار ممكن من الحركة في دفاعنا. وبقي كاميلو على رأس المجموعة الصغيرة التي كلفت بالدفاع.

كان يسود في الجوار سكون عظيم، في الظاهر، بحيث ارسلنا غداة معركتنا واحداً من افضل كشافينا، ليتبين قليلاً ما يطبخه العدو. وهكذا علمنا ان العدو انسحب كلياً من القطاع، وقد وصل ليان حتى بيت كونرادو فلم يجد اي اثر للجنود. بل حمل إلينا، إثباتاً لاستكشافه، إحدى القنبلتين اللتين خبأناهما في الفرن.

وحين جاءت لحظة استعراض الأسلحة تبين لنا أن هناك بندقية ناقصة، وهي بندقية الرفيق غيلي باردو. لقد استبدل بندقيته ببندقية أخرى، وعندما انسحب لم يأخذ كبريات الأخطاء التي يمكن ارتكابها. وكانت القاعدة صريحة صارمة: عليه ان يذهب بسلاح قصير ليسترد البندقية من أيدي العدو أو يعود ببندقية أخرى. ومضى غيلي، مطاطىء الرأس، لينفذ الواجب المترتب عليه، لكنه عاد بعد ساعات قليلة فقط والابتسام يعلو شفتيه، وبندقيته الخاصة في يده. وتوضح اللغز لنا أخيراً: إن الجيش لم يتقدم مطلقاً إلى ما بعد المكان الذي تمركز فيه كي يقاوم هجومنا. ولقد انسحب كل من الطرفين من جهته الخاصة، بحيث ان أحداً لم يصل قط إلى المكان الذي كان رفيقنا متمركزاً فيه وقت القتال. ولقد تعرضت البندقية لزخة من المطر، وكان هذا كل شيء...

تلك كانت ابعد نقطة تغلغل إليها الجيش في سييرا طوال فترة طويلة من الزمن، ومهما يكن من أمر، فإنه لم يتقدم أكثر من ذلك البتة في هذه المنطقة بالذات. وكان كل ما بقي من الأومبريتو صفاً من الأكواخ المتكلسة، وهو اثر نموذجي تماماً لمرور سانشز موسكيرا. اما المكان الذي كنا نأوي إليه فقد دمر على أفضل وجه، ولم نصادف في وسط الخرائب المدخنة إلاّ بعض القطط، وخنزيراً لم يفلت من جنود الغازي

التدميري إلا كي يسقط في حلوقنا...

وبعد يوم أو يومين من المعركة، أجرى لي ماشادو، وزير الصحة الحالي، عملية جراحية بموسى للحلاقة واستخرج من قدمي رصاصة بندقية، ومنذ تلك اللحظة أصبح شفائي سريعاً.

حمل سانشز موسكيرا معه كل ما يستطيع حمله، من أكياس البن حتى الأثاث، وقد نقلها جنوده، وكان انطباعنا الأول هو أنه لن يعود في وقت قريب ليدس أنفه في سييرا؛ وكان من واجبنا أن نلتفت إلى التهيئة السياسية للقطاع وأن نعاود تنظيم مركزنا الصناعي الأساسي، وهو لن يقام في الأومبريتو هذه المرة، بل في مكان أبعد، في منطقة «ميزاء نفسها».

* * *

ـ ٢٥ ـ

النضال ضد الشقاوة

كانت شروط سييرا تسمح لنا حالياً بالعيش بحرية في منطقة واسعة. وعلى العموم لم يكن الجيش يحتل هذه المنطقة مطلقاً، وغالباً ما لم يطأها بقدمه البتة. بَيْدَ أن نظامنا الحكومي لم يكن على قدر كاف من التنظيم أو من الحزم كي يتغلب على عصابات اللصوص الذين كانوا يمارسون، تحت ستار الأعمال الثورية، السلب والنهب والشقاوة ويرتكبون ما لا يحصى من الجرائم.

وفيما عدا ذلك، فقد كانت الظروف السياسية في سييرا متقلقلة بعد، وكانت محاولات تسييس سكانها لا تجدي نفعاً، أضف إلى ذلك وجود جيش العدو في الجوار، بكل حاشيته من التهديدات والأخطار، التي كانت تُذهِبُ ادراج الرياح بجميع جهودنا المبذولة لمعالجة هذه الناحية.

كان العدو يشدد من ضغطه علينا مرة أخرى، وتنبئنا دلائل مختلفة عن قرب مسيرة جديدة على سييرا. وكان هذا كافياً ليبعث الهلع في قلوب سكان المنطقة. ولم يأل أقلهم حزماً جهدهم حتى وجدوا سبيلاً للإفلات من الغزو المرهوب الجانب الذي يتهيأ له قَـتَـلَة الدكتاتورية. ولقد اقام سانشز موسكيرا مقره العام في دسكرة لاس ميناس دي بوبييسيتو، الأمر الذي يؤكد الاستعدادات للغزو الجديد.

وعلى الرغم من هذه التهديدات، فقد تابعنا عملنا في وادي الأومبريتو، واضعين الأسس من أجل الأرض الحرة؛ بل لقد أقمنا في هذه السييرا المحرومة الأصول الأولى للنشاط الصناعي، وكانت في ذلك الحين فرناً

للخبز. وكان في ذلك القطاع نفسه من الاومبريتو معسكر يقوم بدور التموين لقوى الانصار، إذ كان الشبان التواقون إلى الانضمام إلينا يأتونه زرافات زرافات، ويضعون انفسهم باديء الامر تحت سلطة الفلاحين من انصارنا، هؤلاء الذين كنا نثق بهم كل الثقة. وكان زعيمهم المدعو اريستيديو واحداً من افراد رتلنا قبل يومين او ثلاثة أيام من موقعة اوفيرو، لكن المعركة وقعت بدون مساهمته لانه كسر احد اضلاعه من جراء سقوطه على الأرض. ومهما يكن من أمر، فإنه لم يُبد اية رغبة بعد هذا الحادث في الاستمرار في القتال.

إن اريستيديو هذا مثال نموذجي عن أولئك الفلاحين الذين دخلوا صفوف الثورة دون أن يملكوا وعياً واضحاً عن مغزاها. إن تحليله الشخصي الصغير قد اقنعه بان من مصلحته ان «يلعب على الحبلين»، ولذا باع مسدسه لقاء مبلغ ضئيل من المال، ثم راح يكرّر في آذان جميع من يريدون الاستماع إليه انه ليس على ذلك القدر من الحمق بحيث يقبع في داره في انتظار اعتقال الحرس له بكل هدوء، حين يغادر الانصار ذلك القطاع، وانه سيتصل بالجيش قريباً... وقد وصلتني هذه التصريحات التي يدلي اريستيديو بها من مصادر مختلفة. كانت الثورة تجتاز ساعات حرجة: وبناء على الحقوق التي يمنحني إياها منصبي كرئيس للقطاع، فقد عمدت إلى القيام بتحقيق في الأمر، مقتضب جداً، وبنتيجته نفذ حكم الإعدام في الفلاح اريستيديو.

إن سؤالاً يُطرح علينا اليوم: اكان حقاً مذنباً حتى درجة استحقاق الموت، وهل كان في مقدورنا أن ننقذ حياة كانت تضع نفسها في خدمة الثورة في مرحلة البناء؟ إن الحرب قاسية وصعبة، وحين يضاعف العدو من روحه العدوانية لا يعود في الإمكان التهاون مطلقاً حتى بمجرد الظن بالخيانة. ولعله كان ينجو براسه قبل اشهر قليلة من ذلك التاريخ ايضاً، إذ كنا قد اصبحنا اشد بأساً بما لا يقاس. بَيْدَ أن حظ اريستيديو السيء شاء له أن يهن بالضبط حين كنا على قدر كاف من القوة كي نقتص دونما رحمة من جريمة مثل جريمته، لكننا لم نكن مع ذلك على ذلك القدر الكافي من القوة كي نعاقبه بطريقة اخرى، ما دمنا لا نملك سجناً، كما لا نملك اية إمكانية للعقاب من اي نوع كانت.

وسلك الرتل برمته، مغادراً المنطقة لبعض الزمن، الطريق نحو «لوس

كوكاس، على ما غدا لدينا، حيث يجب أن نحقق الاتصال بفيديل ونعتقل عصابة تنهب بقيادة «الصيني»، تشانغ منطقة كاراكاس بأسرها. وكان كاميلو، الذي ذهب مع الطليعة، قد اعتقل حتى ذلك الحين عدداً من الأسرى قبل أن نصل إلى ذلك المكان. واستمرت عملية التنظيف حوالي عشرة أيام. وهناك، في مسكن فلاحي، حوكم الصيني الشهير تشانغ، زعيم العصابة، وحكم عليه بالإعدام؛ كانت عصابته، بأمر منه، قد اغتالت عدداً من الفلاحين، وعذبت عدداً آخر منهم، وزرعت الرعب في القطاع كله، منتحلة اسم الثورة وناهبة خيراتها. وحكم بالإعدام على فلاح آخر أيضاً لأنه اغتصب فتاة مراهقة، مستغلاً هو الآخر سلطته بوصفه «رسولاً» للجيش الثائر... وحوكم عدد كبير من رجال العصابة في أثرها، وكانت هذه العصابة تتشكل من فتيان قادمين من المدن، ومن فلاحين اغرتهم آفاق الحياة الطليقة من جميع القيود، هذه الحياة التي كان يلوح الصيني تشانغ لهم بها.

وبرئت ساحة معظمهم. لكننا اتفقنا على اية حال أن نعمد، حيال ثلاثة منهم، إلى تمثيلية رمزية مما لا ريب فيه أنها ستحملهم على التفكير طويلاً.

قُيِّد الفلاح الذي ارتكب جريمة الاغتصاب والصيني تشانغ إلى شجرتين من أشجار الغابة ونفذ فيهما حكم الإعدام. ولقد برهن كلاهما على اطمئنان كبير ومات أولهما وعيناه مفتوحتان تماماً، يواجه البنادق نهماً، وهو يصيح: «عاشت الثورة». أما الصيني فقد جابه الموت بهدوء كبير، لكنه طلب المعونة الدينية من الاب ساردينياس الذي كان في تلك الساعة بعيداً عن المعسكر. ولم يكن في مقدورنا تلبية رغبته؛ وعندما عرف تشانغ ذلك سألنا أن نكون إلى الأبد شهوداً على هذه الصلاة الأخيرة، فكأن هذه الشهادة العلنية سوف تخدمه كظرف مخفف في العالم الآخر.

عندئذ انتقلنا إلى تنفيذ رمزي لحكم الإعدام بثلاثة صبيان من العصابة؛ وفي الحقيقة أنهم انغمسوا جيداً في أعمال الصيني تشانغ الكالحة، لكن فيديل اعتبر من الواجب إعطاءهم فرصة للمستقبل، وعصبت عيونهم، وطبقت عليهم آلام التنفيذ وهي الحكم بالإعدام، وحين وجد الصبيان الثلاثة انفسهم على قيد الحياة بعد، في أعقاب طلقات النار

التي اطلقت في الهواء، اندفع أحدهم صوبي، وطبع على خدي قبلة كبيرة طنانة بدافع بادرة عفوية من الحبور والامتنان، فكأنه كان يقف أمام والده...

كان أندروز سان جورج، عميل الاستخبارات الاميركية، شاهد عيان على هذه الاحداث، وإن الريبورتاج الذي كتبه ونشرته مجلة «لوك»، وهو الريبورتاج الذي اعتبر في الولايات المتحدة أبعد ريبورتاجات تلك السنة اثراً وشيوعاً، قد عاد عليه بمكافأة كبرى.

وحين نعود الآن بالذاكرة إلى الوراء، فإن هذا النظام الذي بوشر به في سييرا قد يبدو همجياً. ذلك انه لم يكن في ذلك الحين أية عقوبة ممكنة تنزلها بهؤلاء الرجال الذين من المؤكد انهم لا يستاهلون الموت تماماً، لكنهم قد ارتكبوا مع ذلك سلسلة من الجرائم الخطيرة، وانتسب «المعدمون» الثلاثة جميعاً إلى الجيش الثائر، وقد وصلتني أصداء السلوك اللامع لاثنين منهم خلال المرحلة الثورية بكاملها. أما الثالث فقد ظل لفترة من الزمن لا بأس بها في رتلي، وكان يقول دائماً، في سياق الاحاديث التي تجري بين الجنود، إذا ما وجد رفيق يلقي الشك على هذه القصة أو تلك من أقاصيصه، كان يقول بكل إصرار إذاً: «أولاً، أنا، إنه لصحيح أني لا أخاف الموت». وإن تشي الشاهد على ذلك. وهو بذلك يشير إلى قصة إعدامه.

بعد شهرين أو ثلاثة أشهر من ذلك التاريخ وقع فريق آخر في قبضتنا، وكان تنفيذ الإعدام بهم اليماً بصورة خاصة. إني أقصد الفلاح المدعو ديونيسيو وصهره، جان لوبريخينو، وهم من أولى الناس الذين ساعدوا قواتنا الانصارية. إن ديونيسيو الذي كان له باع طويل في كشف الخائن يوتيميو غيرا والذي أسرف لنا في المساعدة في برهة من أصعب البرهات التي اجتازتها ثورتنا، قد أساء من بعد استخدام ثقتنا حتى درجة فائقة، مثله مثل صهره في ذلك. ذلك انه كان يستولي لحسابه الخاص على جميع المؤن التي كانت ترسلها إلينا المنظمات العاملة في المدن، كما أنه انشأ عدة معسكرات كانوا يقتلون فيها الماشية دونما تمييز، وحيث أنه انزلق على هذا المنحدر، فقد بلغ به الامر حد ارتكاب جريمة القتل...

وفي تلك الايام، في السييرا، كانت ثروة الرجل تقاس بصورة جوهرية

بعدد النساء اللاتي يملكهن. وان ديونيسيو، الوفي لهذه العادة، والحاسب نفسه قائداً باعتبار السلطات التي منحته الثورة إياها، قد فتح ثلاثة بيوت، وفي كل بيت منها امرأة ومخزون هام من المنتجات الغذائية... وفي سياق المحاكمة، أمام كلمات اللوم الساخطة التي وجهها إليه فيديل على سوء استغلاله للثقة الموضوعة فيه، وخيانته، وسلوكه اللاأخلاقي - ألم يكن يعيل ثلاث نساء بأموال الشعب؟ - أكد ديونيسيو، بقدر لا بأس به من السذاجة الفلاحية، أن النساء لم يكن ثلاثاً، بل اثنتين فقط، ما دامت الثالثة هي زوجته الشرعية (وكان هذا صحيحاً) ! ولقد أعدم مع هذين الشخصين جاسوسان من ماسفرد ضبطا بالجرم المشهود، وصبي يدعى إيخيفاريا كان مكلفاً بمهمات خاصة في الحركة. كانت أسرة إيتشيفاريا قد قدمت مقاتلين إلى الجيش الثائر (كان أحد أخوته من الأفراد الذين نزلوا من غرانما)، لكن هذا الفتى، بعدما شكل جماعة صغيرة في انتظار مجيئنا، جعل ينظم هجمات مسلحة على مناطق الأنصار، مستسلماً لإغراء لا أعرف كنهه. وكانت الدقائق الأخيرة من حياته مؤثرة حقاً. فقد اعترف بأخطائه، لكنه لم يكن يستطيع مع ذلك أن يقبل فكرة الموت رمياً بالرصاص، وراح يتوسل كي نتركه يموت في سياق المعركة القادمة، ويقسم على أنه سيسعى إلى الموت، وأن كل ما يريده هو تجنيب عائلته الذل والعار. ولما حكمت المحكمة عليه بالموت، فإن إيتشيفاريا (الذي لقب «الأحول») قد كتب رسالة طويلة مؤثرة إلى والدته يشرح لها فيها عدالة العقوبة التي انزلت به، ويوصيها فيها بأن تظل وفية للثورة.

وكان آخر المعدومين شخصاً غريب الأطوار يدعى «المعلم»، وقد عرفته جيداً في بعض الساعات العسيرة حيث ضربت على وجهي تائهاً في هذه الجبال، مريضاً وهو رفيقي الوحيد. وكان قد انفصل عنا عاجلاً بحجة مرض ما كيما ينساق بعدئذ في حياة الفسق والدعارة. وكانت إحدى مآثره الأروع انتحاله شخصيتي «الدكتور غيفارا» - واستغلال ذلك في محاولة لاغتصاب صبية فلاحة كانت بحاجة إلى مساعدة الطب لمعالجة داء تشكو منه. ولقد ماتوا جميعاً وهم يهتفون بتعلقهم بالثورة، باستثناء جاسوسي ماسفرر. ولم أحضر المشهد شخصياً، بيد أن الشهود أخبروني أنه حين اقترب الأب سارديناس، وكان موجوداً هذه

المرة، من احد المحكومين كي يقدم إليه معونته الروحية، أجابه هذا المحكوم قائلاً: «اسمع ايها الأب، أنظر إذا كان احد غيري يحتاج إلى معونتك، فانا بكل صراحة لا أؤمن كثيراً بهذه الأمور».

هؤلاء هم البشر الذين كانت الثورة تُصْنَعُ بهم. كانوا بادىء الامر متمردين على كل ظلم، متمردين متوحدين كان الامر ينتهي بهم إلى الاعتياد على الاهتمام بشؤونهم الشخصية الخاصة من دون أن يعنوا بامر قلب النظام الاجتماعي، وما كانت الثورة ترخي إشرافها لحظة واحدة حتى يسقطوا في الأخطاء التي كانت تقودهم إلى الجريمة بسهولة مذهلة. ولم يكن ديونيسيو وخوانيتو لوبريخيو أسوأ من غيرهما من الذين ارتكبوا من حين لآخر بعض الجرائم والذين وفّرتهم الثورة وهم لا يزالون حتى الآن في صفوف جيشنا. بَيْدَ أن تلك البرهة كانت تستلزم قبضة من حديد. كان لا بدّ من إنزال عقوبة مثالية من أجل لجم كل محاولة لعصيان الانضباط وتصفية بؤر الفوضوية التي كانت تنشأ في تلك المناطق المحرومة من حكومة مستقرة. وايتشيفاريا إذاً، كان يمكن أن يصبح احد أبطال الثورة، مناضلاً من خيرة المناضلين مثل أخويه، وهما ضابطان في الجيش الثائر، لكن حظه العاثر شاء له أن يرتكب جرماً في تلك اللحظة بالذات، وكان عليه أن يدفع حياته لقاء ذلك. ولقد ترددنا في تسميته في هذه الصفحات، بَيْدَ أن موقفه كان موقفاً شريفاً جداً وثورياً جداً: ولقد ظل ثابت الجنان تماماً أمام الموت، واعترف بقدر كبير من الوضوح بعدالة العقاب بحيث بدا لنا أن نهايته قد رفعت من قدره، وكانت هذه النهاية قدوة، قدوة فاجعة حقاً، لكنها ثمينة، كيما تتضح في أعين الجميع الضرورة التي تلزمنا بأن نجعل من ثورتنا ثورة سليمة، نظيفة من جميع أعمال الشقاوة، هذه التي هي ميراث دكتاتورية باتيستا.

وفي سياق هذه المحاكمات ظهر للمرة الأولى، بوصفه محامياً، رجل التجأ إلى سييرا في أعقاب مجادلات متعددة مع قادة ٢٦ تموز، في السهل. ولقد أصبح وزيراً للزراعة في حكومة الثورة حتى اليوم الذي وقع فيه قانون الإصلاح الزراعي (الذي وقعه الآخرون، بينما لم يشأ هو أن يجازف بنفسه فيوقع عليه)، ذلك هو سوري ماران.

وبعدما أنجزنا ذلك الواجب القاسي الذي يقتضي أن يسود السلام

والنظام الاخلاقي على مجموع الاراضي التي سيضعها الجيش الثائر تحت إدارته، أخذنا طريق العودة نحو منطقة الاومبريتو، وكان رتلنا منقسماً إلى ثلاث كتائب: الطليعة ويقودها كاميلو شيانفويغوس، يعضده اربعة ملازمين هم أوريتس وبولدو وليبيا ونورا، والكتيبة الثانية بقيادة النقيب راوول كاسترو ميركادير الذي يعضده الملازمون الفونسو زاياس وأورلاندو بوبو وبابلو كاميريرا. وكانت أركان حربنا الصغيرة بقيادة راميرو فالديس ومعه خويل إيغليسياس كملازم. ولم يكن خويل إيغليسياس قد بلغ السابعة عشرة بعد، ومع ذلك كان يقود رفاقاً يبلغون الثلاثين من العمر. وكان يخاطبهم بلهجة الجمع احتراماً حين يصدر الاوامر إليهم، في حين كان الرجال يردون عليه بلهجة المفرد، وهم ينفذون أوامره بكل انضباط. وكان في كتيبة الحراسة الخلفية ثيرو رودوندو، يساعده فيلو اكونا وفيلكس ريبس ووليم رودريغيز وكارلوس ماس.

وعدنا لنستقر في الاومبريتو حوالي نهاية تشرين الاول عام ١٩٥٧. كان يجب علينا ان ننشىء بنية تحتية للدفاع على طول الاراضي التي اصبحت منذ ذلك الحين في عهدتنا: وبدأنا، بمساعدة طالبين - أحدهما مهندس مقبل والآخر بيطري مقبل، وقد وصلا حديثاً من هافانا - نضع خطط مركز صغير للطاقة المائية الكهربائية كنا ننوي ان نبنيه على شلال الاومبريتو الصغير، كذلك انشأنا الجريدة السرية، وكنّا نملك آلة ناسخة عتيقة جئنا بها من السهل وهي التي سمحت لنا بإصدار الاعداد الاولى من «الكوبي الحر» التي كان الطالبان ليوفيل رودريغيز وريكاردينو ميدينا المحررين الرئيسيين فيها.

هكذا، ونحن نستمتع بالحماية الكريمة لوديان الاومبريتو الصغيرة - وبصورة أخص حماية صديقتنا الباسلة، «العجوز» شانا كما كنا نسميها جميعاً - بدأنا تنظيم حياتنا المستقرة، وعمدنا أخيراً إلى بناء الفرن في كوخ قديم مهجور، وذلك كي لا نضع أمام الطيران هدفاً هو بناء حديث، وفيما عدا ذلك، فقد خططنا علماً كبيراً يحمل الوان ٢٦ تموز، كما يحمل هذه العبارة: «عاماً سعيداً ١٩٥٨»!. وغرسنا هذا العلم فوق أعلى هضبة في الاومبريتو، واملنا ان يشاهد من بعيد جداً، حتى لاس ميناس دي بويسيتو، في حين كنا نذرع القطاع جيئة وذهاباً كي نوطد سلطتنا

ونسبغ عليها ملامح محددة. وكنا نتهيأ في الوقت نفسه لمجابهة غزو سانشز موسكيرا المنتظر بين يوم وآخر، وذلك بتشييد التحصينات عند منافذ الطرق التي يمكن أن يسلكها.

* * *

ـ ٢٦ ـ

عام من النضال المسلح

في مطلع عام ١٩٥٨، كنا قد خلفنا وراءنا أكثر من عام كامل من النضال. وتميزت فرقتنا بصورة أساسية، خلال كل الفترة المنصرمة بين النزول على الشاطىء وهزيمة «اليغريبا دي بيو» اللاذعة حتى معركة أوفيرو، بوجود مجموعة وحيدة من الأنصار بقيادة فيديل كاسترو، كما تميزت من جهة ثانية بالحركة المتصلة (ولنسم ذلك المرحلة الرحالة). وجعلت الروابط مع المدينة تنعقد ببطء بين الثاني من كانون الأول والثامن والعشرين من أيار، وكان قادة الحركة في السهل يبرهنون خلال هذه الفترة من الزمن على عدم فهم تام لأهميتنا بوصفنا طليعة للثورة، ولأهمية فيديل كاسترو على رأس هذه الثورة.

ومهما يكن من أمر، فقد كان الشيء الأساسي بالنسبة إلينا، خلال هذه الأشهر الأولى، هو البقاء وتقوية قواتنا الغوارية.

وتعرض موقف الفلاحين حيالنا لتقلبات عديدة وفقاً للأحداث: لقد تضامنوا بكل حرارة معنا في أعقاب كارثة «اليغريبا دي بيو» مباشرة، ومنحونا تأييداً عفوياً لا تحفظ فيه. لكننا بعدما تجمعنا وخضنا معاركنا الأولى، هذه المعارك التي كانت فرصة للدكتاتورية كي تمارس اضطهاداً وقحاً ووحشية، فقد أصبح ردّ فعل الفلاحين حيالنا متصفاً ببعض البرودة. ولنعترف بأن مركزهم كان دقيقاً جداً: كان مفروضاً فيهم أن يشوا بنا إذا وقعت علينا أبصارهم. وبالفعل، فقد كان مقضياً عليهم إذا ما وصل الجيش خبر وجودنا من سبل أخرى. وإذا هم وشوا بنا،

فإنهم يتصرفون ضد وجدانهم إذاً، ويعرضون انفسهم للخطر على اية حال، ذلك انهم يقعون إذاً تحت طائلة العدالة الثورية.

وعلى الرغم من هذا الوسط المعادي، او الحيادي في احسن الاحوال، عند هؤلاء الجبليين الذين يسيطر عليهم الإرهاب، والحيرة، والذين كانوا يفضلون احياناً مغادرة سييرا على ان يضطروا إلى حل هذا اللغز حلاً جازماً، فإن جيشنا قد نجح في مد جذوره، وضمن شيئاً فشيئاً الإشراف على الارض وتوصل إلى فرض سلطانه على قطاع كامل من مايسترا يمتد إلى ما وراء قمة توركينو شرقاً، وحتى حدود القمة المسماة «كاراكاس» غرباً، ويحده البحر جنوباً والدساكر الصغيرة لحصون المايسترا التي يحتلها الجيش شمالاً. وشيئاً فشيئاً، حين اتضح للفلاحين أن قواتنا الغوارية لا تقهر، وفهموا اننا عازمون على القتال كل الوقت الذي يلزمنا من اجل النصر، فقد ارتكسوا بالطريقة الاكثر منطقية، وذلك بالانضمام إلينا كي يقاتلوا إلى جانبنا، ومنذ تلك اللحظة جاؤوا يرفدون صفوفنا ويتجمعون حوالينا. عندئذ ثبّت جيش الانصار اقدامه بصلابة في الارض، ذلك انه من المعروف جيداً انه كان للفلاحين اهل في كل المنطقة، وهذا ما سميناه: انتقال الانصار حذاء.

واستمرت مرحلة تثبيت جيشنا حتى المعركة الثانية في بينو دل أغوا، في السادس عشر من شباط ١٩٥٨. ولم نكن على قدر كافٍ من القوة كي نهاجم المواقع المعادية في نقاط محصنة يسهل نسبياً الدفاع عنها، بينما كان العدو باقياً من جانبه في مواقعه دون ان يتقدم علينا مطلقاً. بَيْدَ ان منطقة عملياتنا اتسعت حتى درجة بعيدة بعد هذا الهجوم الثاني الذي اشتركت فيه جميع قواتنا بقيادة فيديل المباشرة. وفي ذلك الحين شُكل رتلان جديدان ايضاً، الرتل السادس الذي يحمل اسم «فرانك بايس» الذي تسلم راوول قيادته، والرتل الذي كان يعمل تحت قيادة الميدا.

ويجب أن نشير ايضاً، في هذه اللمحة المقتضبة عن نضال البلاد خلال عام كامل، إلى المبادرات التي قامت بها مجموعات أخرى من المقاتلين، وقد كانت مبادرات يائسة على العموم وكان الإخفاق من نصيبها.

ففي ١٣ شباط هاجم اتحاد الطلاب القصر الجمهوري بهدف القضاء

على باتيستا. وقد لاقت حفنة من المقاتلين الشجعان حتفها في هذه المحاولة، وكان في مقدمتهم رئيس «اتحاد الطلاب الجامعيين»، رمز شبيبتنا، «مانزانيا ايتشيفاريا».

وبعد اشهر قليلة من ذاك التاريخ، في ايار، قامت مجموعة اخرى بمحاولة للنزول على الشاطىء. والمرجح أن العملية قد نسفت حتى قبل أن تغادر ميامي، ما دام الخائن بريو هو الذي كان يمولها. ولاقى جميع المشتركين فيها على وجه التقريب حتفهم. كنت اقصد حملة «كورنثيا» التي كان يقودها كاليكستو سانشز، الذي قتل مثل بقية رفاقه تقريباً على يد كوليبي، قاتل المنطقة الشمالية من المقاطعة الشرقية، وهو الذي نُفذ فيه فيما بعد حكم الإعدام بعض اعضاء حركتنا.

وحاولت جماعات مختلفة من المقاتلين ان تثبّت اقدامها في إيسكامبري، وكان بعضها ينتسب إلى «حركة ٢٦ تموز»، والبعض الآخر إلى الإدارة الطلابية، ولقد كان على رأس هؤلاء، بادىء الأمر، واحد من اعضاء الإدارة الطلابية كان مقدراً له أن يخون في وقت لاحق الثورة نفسها، وذلك هو غوتيريث مينويو، المنفي حالياً. وشكل المقاتلون المخلصون للإدارة رتلاً على حدة تزعّمه الرائد شومون، وكان هذا الرتل في أصل الجبهة الشرقية الثانية في إيسكامبري. وتشكلت قوى صغيرة في سييرا دي كريستال، وسييرا دي باراكوا، وكانت تخلط بين نشاط الانصار وبين «اكل لحم البقر»، وقد اضطر راوول أن ينظف المنطقة منها حين وصل إليها على رأس الرتل السادس.

ويجب أن نسجل كذلك انتفاضة القاعدة البحرية في تشيانفويغوس، في ٥ ايلول ١٩٥٧، وقد قادها الملازم الاول سان رومان الذي اغتيل في الحال بعد إخفاق المحاولة. ولم يكن مقدراً لهذه الانتفاضة، المبيتة منذ زمن طويل، أن تظل منعزلة، ففي قلب القوات المسلحة قرر فريق من العسكريين المزعومين اتقياء (يعني الذين لم يشتركوا في جرائم الدكتاتورية، لكنه تبين لنا اليوم انهم كانوا مشربين بالامبريالية اليانكية) أن يدبروا سلسلة من مثل هذه الافعال. ولقد أُجِّل تنفيذ المشروع، لسبب غامض، حتى تاريخ لاحق، لكنّ القاعدة البحرية في تشيانفويغوس، التي لم تنذر في الوقت المناسب كي تصدر امراً مضاداً، قد قررت الانتقال إلى العمل. وسيطر العصاة على الوضع منذ اللحظة الاولى، لكنهم ارتكبوا

الخطيئة الفاجعة فلم يسلكوا طريق سييرا دي إيسكامبري. ومع ذلك فقد كانوا سادة المدينة وكانوا يملكون كل الإمكانيات كي يتنقلوا سريعاً، خلال دقائق معدودة، إلى الجبل ويشكلوا هناك جبهة متينة.

إن قادة وطنيين ومحليين لحركة ٢٦ تموز قد اشتركوا في الانتفاضة اشتراكاً فعلياً، كما أن الشعب انخرط في موجة الحماسة التي أثارتها، بل كان أناس في عداده حملوا السلاح. أترى حسب الزعماء، حين شاهدوا هذه التظاهرات، انهم ملزمون خلقياً بالبقاء في المدينة التي استولوا عليها؟ وعلى أية حال، فإنه لا بدَّ لنا من الاعتراف بأن الأحداث جرت وفق مخطط معهود في مثل هذا النوع من الحركات، والتاريخ يقدم لنا أمثلة عديدة على ذلك. إن الأهمية الضئيلة التي وقفها العسكريون المحترفون دائماً على النضال الأنصاري تلعب دوراً كبيراً هنا، ومثل ذلك انعدام الإيمان عندهم في الغوارة بوصفها تعبيراً عن المقاومة الشعبية. وهكذا فإن المتآمرين، الذين قدّروا انهم قد خسروا الجولة بدون مساعدة رفاقهم في السلاح، قبلوا بأن يحبسوا أنفسهم ضمن حدود مدينة واحدة، والبحر من ورائهم، كي يخوضوا صراعاً يائساً حتى الموت. ولقد سحقوا عملياً من جراء تفوق العدو الذي توافر له كل الوقت اللازم كي يعبىء بصورة مناسبة قواته ويركزها على تشيانفويغوس. وما كان في وسع حركة ٢٦ تموز، التي أسهمت في المعركة بوصفها شريكاً بدون سلاح، أن تغير وجه الأمور، حتى في حال تقدير قادتها بكل وضوح للنتيجة النهائية، وهو ما لم يحدث في هذه الحال. ولقد استخلص من ذلك درس من أجل المستقبل: إن صاحب القوة هو الذي يُملي استراتيجية المعركة.

كانت مذابح المدنيين الكبرى، وإخفاقات الدكتاتورية وجرائم القتل التي ترتكبها، تشير بما فيه الكفاية إلى أنَّ النضال الأنصاري في تربة ملائمة هو التعبير الأكمل عن تكتيك المقاومة الشعبية في وجه حكومة تعسفية لا تبرح قوية؛ وإني لأضيف أنه التعبير الأقل إيلاماً بالنسبة إلى أبناء الشعب. فبينما كانت خسائرنا تعد على أصابع اليد، بعدما تمكن الغوارة من مواقعها (وكانوا رفاقاً مرموقين لشجاعتهم وحميتهم في القتال)، كان الأنصار الحازمون يقضون في المدن أيضاً، لكن يسقط معهم في الوقت نفسه عدد كبير من الرجال الذين هم دونهم جدارة، بل

الغرباء تماماً في بعض الاحيان عن الصراع، وذلك لأن المدينة فريسة أسهل للقمع والاضطهاد.

وفي نهاية هذا العام الاول من النضال كانت الارض الوطنية برمتها في حالة من العصيان. كانت أعمال التخريب تتضاعف، وبعض هذه الاعمال المهيأة جيداً تتم بصورة بارعة، وبعضها الأخر لا تزيد في قيمتها عن كونها أعمالاً إرهابية مبتذلة، فهي من صنع أفراد انجرفوا باندفاع حامي الوطيس، وما أكثر ما كانت تخلف وراءها أثراً فاجعاً من الموتى والتضحيات من دون أن تكون مفيدة بصورة فعلية لقضية الشعب.

وكان وضعنا العسكري يتوطد، كنا مع باتيستا في حالة من السلم المسلح، فما كان ضباطه يصعدون إلى سييرا، وما كانت قواتنا تستطيع أن تهبط مطلقاً. وكان العدو يضيق الحلقة قدر طاقته، لكننا كنا ننجح دائماً في تضليل رقابته. كانت مشاكل المغاوير بسيطة فلا بدٌ من أجل بقاء المغاور شخصياً من بعض الطعام، والثياب، وقليل من الادوية التي لا يستغنى عنها، ولم يكن بُدٌ من أجل بقاء الغوارة باسرها من وجود الاسلحة والذخيرة، كما لم يكن بُدٌ من أجل التطور على الصعيد السياسي من وسائل الدعاية. وان الامر يتطلب منا، من أجل تأمين هذا الحد الاول الحيوي، شبكة من المواصلات والمعلومات.

وفي البدء كانت المجموعة الصغيرة التي لا تعد أكثر من عشرين رجلاً تأكل وجبة هزيلة من خضار سييرا، وحساء الدجاج أيام الولائم، وأحياناً لحم أحد الخنازير الذي كنا ندفع ثمنه للفلاحين دون أدنى نقصان. لكنه حين كبرت الفرقة وكثرت جماعات المرشحين للتدريب، قامت ضرورة تأمين تموين أغزر. وليس لدى فلاحي سييرا ماشية بقرية. ويكادون لا يملكون إلا ما يسد الرمق على العموم؛ ولولا زراعة البن لما استطاع هؤلاء الفلاحون أن يبتاعوا بعض الحاجيات التي لا غنى عنها، مثل الملح الذي لا يتوافر في الجبال. وبدأنا بأن طلبنا من بعض الفلاحين أن نبتاع منهم المحصول بكامله، وتفاهمنا في الوقت نفسه مع تجار مختلفين من الدساكر المجاورة كي يرسلوا إلينا المؤن وبعض التجهيزات المختلفة. وهكذا ظهرت في سييرا قطعان من البغال هي ملكية القوى الانصارية.

اما تدبير الأسلحة فكان أمراً مختلفاً. فإذا تركنا المصاعب الطبيعية للعزلة الجغرافية، كانت هناك حاجات السهل، ونفوره من تسليم الأسلحة لقوات الانصار. ولقد اضطر فيديل إلى الدخول في مناقشات عسيرة كي يتحقق له ما يريد. وكانت الشحنة الوحيدة الجديرة بهذا الاسم، في تلك السنة الأولى من الصراع (إذا تركنا جانباً الأسلحة التي جلبها المقاتلون انفسهم)، بقية من الأسلحة التي استخدمت في الهجوم على القصر، وقد نقلت بالتعاون مع بابون، الملاك الكبير وتاجر الأخشاب الذي سبق لنا ان تحدثنا عنه في هذه الصفحات.

كنا نفتقر إلى الذخيرة، وكنا نحصل عليها بالقطارة، من دون التشكيلة المناسبة. ومع ذلك فقد كان من المحال، في سياق هذه المرحلة الأولى من الصراع، أن نبني المعامل، أو نعيد إملاء القذائف بانفسنا، باستثناء طلقات المسدس ٣٨ الذي كان المسؤول عن التسليح يعبئها بقليل من البارود، والطلقات من قياس ٣٠ ـ ٦٠ التي كنا نحتفظ بها من أجل البنادق ذات المزلاج، ذلك انها كانت تفسد البنادق نصف الآلية وتعيقها عن العمل كما ينبغي.

ويعود خلق المستشفيات إلى ذلك التاريخ، وقد آوت المنطقة التي كنت مكلفاً بها احد هذه المستشفيات؛ كان الموضع الذي اخترناه يوفر للجرحى بعض الامن، إذ كان الوصول إليه عسيراً كما كان محمياً من الرؤية الجوية، لكن جو المكان الرطب، المليء بالغابات، كان وخيماً إلى درجة ما بالنسبة إلى صحة الجرحى والمرضى الذين يقيمون فيه. وان الرفيق سرخيو دل فاليه هو الذي أخذ على عاتقه تنظيم هذا المستشفى. ولقد نظم الأطباء مارتينيز بايت وفاليخو فاخاردو مستشفيات مماثلة في رتل فيديل، وقد بلغت هذه المستشفيات مستوى أعلى في سياق السنة الثانية.

أما حاجات الفرقة من الجعب والمخلايات والاحذية، فقد كان يغطيها معمل صغير أسسناه في قطاعنا. وحملت بنفسي اول خويذة خاصة بالجيش خرجت من هذا المعمل إلى فيديل، واوداجي منتفخة كبرياء، ولكن ماذا كانت مكافاتي! لقد اتهموني باني صنعت خويذة غاغويرو[١]،

---

(١) كان الغاغويرو سائقاً لسيارات الأجرة الكبيرة، وتدعى السيارة في كوبا غاغوا، وهي كلمة لم يكن غيفارا الارجنتيني الأصل يعرفها.

وهي كلمة لم أفهم معناها جيداً في ذلك الحين، وكان الشخص الوحيد الذي أظهر نحوي بعض العطف هو أحد أعضاء بلدية مانزانيللو، وكان قد قدم لزيارتنا بغرض القيام بالرسميات الضرورية من أجل الانتقال إلى جانبنا، وأخذ الخويذة معه كذكرى من زيارته...

كان أهم عمل صناعي قمنا به هو كير للحدادة ومعمل سلاح كنا نصلح فيه الأسلحة الفاسدة ونصنع فيه القنابل والألغام وزجاجات م١٦ الشهيرة[1]. وفي البدء كنا نصنع الألغام من التنك ونملأها بمحتوى القنابل المعادية التي لم تنفجر. ولم تكن هذه الألغام البائسة تنفع شيئاً، وفيما عدا ذلك فقد كانت مزودة بضارب يعمل بالضغط على مفجر ما أكثر ما كان يخطىء. وفيما بعد خطرت لأحد الرفاق فكرة استخدام القنبلة بكاملها من أجل الهجمات الواسعة إلى درجة ما، وذلك بانتزاع مفجرها والاستعاضة عنه ببندقية ورصاصة. وكنا نسحب من بعيد بواسطة قطعة حبل، زناد البندقية فيحدث الانفجار. ولقد أتقنا هذه المسألة في وقت لاحق، فصنعنا خليطة خاصة ووضعنا مفجرات كهربائية، فكانت النتائج أفضل بصورة واضحة. وإذا كان صحيحاً أننا كنا البادئين بهذه الصناعة، فإنه من العدل أن نقول إن فيديل هو الذي أعطاها زخماً جديداً، وفي وقت لاحق راوول في مركز عملياته الجديد.

كان لدينا «معمل» للسجائر الغليظة، الأمر الذي كان يغتبط له المدخنون في فرقتنا. وكانت هذه السجائر مقيتة جداً، لكنها كانت تبدو لنا فائقة اللذة، وذلك لافتقارنا إلى ما عداها.

كانت ملحمة جيشنا تمون بالماشية المصادرة من الجواسيس والملاكين العقاريين. وكنا نقتسم هذه الغنائم بيننا وبين الفلاحين المقيمين بصورة عادلة تماماً.

أما فيما يتعلق بنشر أفكارنا، فقد بدأنا بإصدار صحيفة صغيرة، إل كابانو ليبري (الكوبي الحر)، وقد صدر منها ثلاثة أو أربعة أعداد تحت إشرافنا، ومن بعد عُهد بها إلى لويس أورلاندو رودريغز، وأخيراً إلى شارل فرانكي الذي أعطاها زخماً جديداً.

---

(1) إن م ١٦: زجاجة بترول كانت تثبت إلى قاعدة طويلة تنتهي بخرطوشة يمكن أن تنزلق في ماسورة البندقية من عيار ١٦، وبذلك يمكن رميها حتى مسافة بعيدة.

وفي نهاية هذه السنة الأولى من الحرب كان لدينا محطة إرسال صغيرة، ولقد بثت الإرسالات الأولى الرسمية في شباط ١٩٥٨، وكان المستمعان إلينا بيلينكو، وهو فلاح يقوم كوخه على الهضبة المقابلة للمحطة، وفيديل الذي جاء يزورنا في معسكرنا كي يحضر هجوم «بينو دل أغوا»، والذي أصغى إلى الإرسال على جهازنا اللاقط. ولقد حسّنا النوعية التقنية للبث شيئاً فشيئاً مع مرور الأيام.

في تلك الفترة، لم نكن نتلقى المساعدة من السكان الريفيين فحسب، بل من بورجوازية المدن أيضاً. كانت خطوط مواصلاتنا تصل حتى دساكر كونترا مايسترا وبالما وبويسيتو ولاس ميناس دي بويسيتو واسترادا بالما وبيارا وباياموا ومانزانيللو وغيزا، وكانت هذه النقاط تخدم كمحطات لنا؛ ومن بعد كانت البضائع تنقل على ظهور البغال، عبر دروب خفية في سييرا، حتى مواقعنا. وأحياناً كان الرجال الذين يجتازون دورة تدريبية ولم تتوافر لهم الأسلحة بعد ينزلون، مع حامية من بعض مقاتلينا المسلحين، حتى أقرب الدساكر إلينا (ياو أو لاس ميناس)، وكانوا يحملون على ظهورهم، من المتاجر المجهزة جيداً في المنطقة، المؤن التي تصل على هذا النحو إلى ملاجئنا. وكانت السلعة الوحيدة التي لم نفتقر إليها قط في سييرا هي البن. وافتقرنا أحياناً إلى الملح، وهو المادة البالغة الأهمية من أجل البقاء على قيد الحياة.

وحين أخذ جهاز إرسالنا أخيراً انطلاقاً في الأجواء وعرّف البلاد بأسرها على وجودنا وتصميمنا على القتال، اتسعت الشبكات وتعقدت، فوصلت غرباً حتى كاماغوي وهافانا، ووصلت شرقاً حتى سانتياغو. وكان جهاز الإعلام يعمل على أكمل وجه. فقد كان فلاحو المنطقة لا يتأخرون قط عن إعلامنا بوجود أية قوة معادية، بل بوجود أي شخص غريب في القطاع، بحيث كان من السهل علينا اعتقال الدخيل كي نستجوبه بخصوص نشاطاته. وهكذا قضينا على بعض عملاء الجيش وبعض الجواسيس الذين كانوا يتسللون إلى المنطقة كي يتحققوا من وجودنا ومن مأثرنا.

***

أما النضال السياسي، فقد كان معقداً ومتناقضاً في وقت واحد. كانت دكتاتورية باتيستا تعتمد على كونغرس منتخب بالتزوير والخداع والتضليل بحيث تستطيع الحكومة أن تركن إلى وجود غالبية مخلصة لها. وحين لم تكن الرقابة تجثم على البلاد، فقد كان يمكن التعبير عن آراء مخالفة، لكن الناطقين الرسميين أو شبه الرسميين بلسان النظام كانوا يدعون إلى الوحدة الوطنية بأصواتهم القوية، المنقولة من سلسلة إلى أخرى في مصلحة الجزيرة بأسرها. كان الصوت الهستيري لأوتو ميروبيلو يتناوب مع الأقوال التي تضرب على وتيرة وحيدة، والصادرة عن مهرجين من طراز باردو لادا وكونتي أغويرو؛ وكان هذا الأخير، الذي يجتر في كتاباته موضوعات الراديوبدعو «الأخ فيديل» إلى التعايش مع النظام الباتيستي. وكانت المعارضة منقسمة إلى مجموعة كبيرة من الفئات الصغرى التي لم يكن يجمع بينها إلاّ الرغبة في الاستيلاء على الحكم (يعني أموال الشعب). ومن هنا كانت تلك الخصومات والصراعات النتنة التي كان غرضها الوحيد ضمان الظفر. وكانت هذه الجماعات تعجُّ بالعملاء الباتيستيين الذين كانوا يخنقون في المهد، حين تحين الساعة، كل محاولة على قدر ما من الاتساع والمدى. وعلى الرغم من طابع هذه الجماعات الانتهازي والوصولي والمغامر، فقد كان لها شهداؤها أيضاً، ومن بينهم أبطال وطنيون حقيقيون. والحقيقة أن الفوضى كانت تجثم على المجتمع الكوبي بشدة بحيث لم يكن من النادر أن نرى رجالاً شرفاء وشجعاناً يضحون بحياتهم من أجل شخصيات تافهة مثل بريوسو كاراس.

وكانت الإدارة الطلابية تتخذ طريق النضال المسلح حقاً، لكن من دون أن تقترب مع ذلك من الحركة. ولقد انضم الحزب الاشتراكي الشعبي إلينا في بعض الحالات الحسية، بَيْدَ أن الشك كان باقياً من الطرفين، وكان يلجم العمل المشترك. إنَّ حزب الشغيلة لم يدرك بما يكفي من الوضوح، في الأساس، لا دور الغوارة ولا دور فيديل الشخصي في نضالنا الثوري. ولقد قلت لأحد قادة الحزب الاشتراكي الشعبي في مناقشة أخوية فكرة رددها على مسامع الآخرين على اعتبارها دامغة بالنسبة إلى تلك المرحلة: «إنكم قمينون بأن تخلقوا ملاكات مستعدة لتحمل العذاب في ظلمة الزنزانات دون أن تندّ عنها صيحة

واحدة، لكنكم غير قادرين على تكوين ملاكات تستولي عنوة على عشرة رشاشات».

سبق أن قلت إن اتجاهين كانا يرتسمان بكل وضوح في قلب حركتنا الخاصة، وقد سميناهما سييرا والسهل. كانت سييرا قد توصلت إلى اليقين بقدرتها على مواصلة نضال الأنصار وتوسيعه، وإيصاله إلى أماكن أخرى، حتى تنتهي إلى إخضاع مدن الطغيان بحيث تثير، بواسطة نضال قائم على تضييق الخناق والإرهاق، انفجار كل الجهاز الدكتاتوري. وكان السهل قد اتخذ خطاً أكثر ثورية في ظاهر الأمر، ألا وهو النضال المسلح في جميع المدن، هذا النضال الذي سيتوج بإضراب عام يطيح بباتيستا ويكون مهيئاً لاستلام السلطة في وقت قصير. ولم يكن هذا الموقف المتزمت يستند إلى أية قاعدة جدية، ذلك أن الأفكار السياسية لرفاق السهل كانت فقيرة جداً بعد في ذلك الحين، وكان مفهومهم عن الإضراب العام ضيقاً حتى درجة بعيدة. إن الطموح إلى الدعوة للإضراب العام بصورة مفاجئة، دون أي تحضير سياسي، دون أدنى ظل للعمل الجماهيري، إنما يعني التوجه بصورة مستقيمة نحو هزيمة التاسع من نيسان في العام التالي.

كان هذان الاتجاهان ممثلين في القيادة الوطنية للحركة، وهي القيادة التي تعدلت في سياق النضال. فقد كانت القيادة تتألف خلال مرحلة التحضير، حتى رحيل فيديل إلى المكسيك، من فيديل نفسه، وراوول، وفوستينو بيريز، وبدرو ميري، ونيكو لوبيز، وأرماندو هارت، وبيبه سوياريز، وبدرو أغيليرا، وليوس بونيتو، وخيزوس مونتانيه، وميليا هيرنانديز، وهايدي سانتا ماريا، هذا إذا كانت معلوماتي صحيحة، ذلك أن مشاركتي الشخصية لم يكن لها وجود في ذلك الحين، كما أن الوثائق نادرة. وفيما بعد، غادر بيبه سوياريز ولويس بونيتو وبدرو أغيليرا القيادة بسبب تنافرهم مع بقية أعضائها، وانضم إليها من جهة أخرى ماريو هيدالغو وآلدو سانتا ماريا وكارلوس فرانكي وغوستافو آركوس وفرانك بايس، وكان ذلك أيام وجودنا في المكسيك. وكان فيديل وراوول الوحيدين، من بين جميع هؤلاء الرفاق الذين سميناهم، اللذين استطاعا خلال تلك السنة الأولى الوصول إلى سييرا والإقامة فيها. وكان فوستينو

بيريز، من أفراد حملة غرانما، قد أخذ على عاتقه أمر النضال في المدن، بينما اعتقل بدرو ميريه قبل ساعات قليلة من مغادرة المكسيك وظل فيها حتى السنة التالية، حين رجع إلى كوبا مع شحنة من الأسلحة. ولقد استشهد نيكو لوبيز بعد أيام قليلة من النزول على الشاطىء، أما أرماندو هارت فقد وقع في الأسر في آخر السنة، بينما اعتقل خيزوس مونتاني بعد النزول من غرانما. أما ماريو هيدالغو وميليا هرنانديز وهايدي سانتا ماريا فقد كرسوا أنفسهم للنضال في المدن. وانضم آلدو سانتا ماريا وكارلوس فرانكي إلى صفوف المناضلين في سييرا في العام التالي، لكنهما لم يكونا ضمن هذه الصفوف عام ١٩٥٧. وبقي غوستاوف آركوس في المكسيك، مكلفاً بالاتصالات السياسية وبالتموين، في حين استشهد فرانك بايس المكلف بالنضال في سانتياغو، في تموز عام ١٩٥٧.

كان الملتحقون الجدد في سييرا هم ثيليا سانتشيز التي بقيت معنا طوال عام ١٩٥٨، وفيلما ايسبين الذي كان يشتغل في سانتياغو وقد أنهى الحرب في صفوف رتل راوول كاسترو، ومارسيلو فيرنانديز منسق الحركة الذي أخذ مكان فوستينو بعد إضراب ٩ نيسان ولم يبق بين ظهرانينا إلا أسابيع قليلة باعتبار أن عمله كان مركزاً على التجمعات المدنية، ورونه لاموس لاتور المكلف بتنظيم ميليشيا السهل الذي استعيد إلى سييرا بعد فشل ٩ نيسان وقضى ببطولة برتبة رائد في معارك السنة الثانية من الحرب، ودافيد سلفادور المسؤول عن الحركة العمالية التي دمغها بطابع عمله الانتهازي والانقسامي والذي سيخون الثورة في وقت لاحق (وهو في السجن في الوقت الحاضر).

وهكذا نرى أن رفاق السهل كانوا يشكلون الأكثرية في هذه المرحلة؛ ولما كانوا قليلي التقبل، من جراء أصلهم السياسي، لعملية النضوج الثوري، فقد استمروا ميالين إلى العمل «المدني»، ومحتفظين ببعدهم عن فيديل وعن تلك الشيعة «العسكرية»، التي كنا نشكل، نحن جماعة سييرا، زينتها وبراعمها...

وانه يهمنا أن نشير إلى أن ذلك الفريق من المقاتلين، من بين جماعة السهل، الذي أذاق الدكتاتورية الأمرّين لم يُعْرِض قط، رغماً عن الآراء التكتيكية التي كانت تختلف كثيراً عن آرائنا في بعض الأحيان، عن

النضال المسلح، لقد ظل أميناً أبداً لروحه الثورية حتى اليوم الذي شكلنا فيه سوية، بعد النصر، وحدة انصارية قوية يقودها فيديل، الزعيم غير المنازع؛ وقد اتحدت هذه النواة فيما بعد مع فريقي الإدارة الطلابية والحزب الاشتراكي الشعبي لتشكل الحزب الموحد للثورة الاشتراكية الكوبية[1]. ولقد شكلنا على الدوام جبهة مشتركة في وجه الضغوط الخارجية ومناورات الانقسام والتغلغل إلى حركتنا، وأن أولئك الرفاق الذين لم تكن لهم عن الثورة نظرتنا الفسيحة نفسها قد عرفوا هم أيضاً كيف يقاومون الانتهازية.

• • •

حين اعترف فيليبي باتوس، مستغلاً اسم ٢٦ تموز، لنفسه ولمصالح أكثر الفئات الأوليغارشية فساداً في كوبا المراكز المعروضة من قبل «معاهدة ميامي»، بما فيها رئاسة الجمهورية المؤقتة، فقد اتحدت الحركة بكاملها بكل صلابة ضد مثل هذا الموقف وضمنت الرسالة التي بعث بها فيديل إلى مختلف منظمات النضال ضد باتيستا. وإني لأورد هذه الوثيقة بنصها الكامل، فهي وثيقة تاريخية. وإن الوثيقة المؤرخة في ١٤ كانون الأول ١٩٥٧، وقد نسختها ثيليا سانتشز، إذ لم يكن طبعها أمراً وارداً في ذلك الحين.

«كوبا، ١٤ كانون الأول ١٩٥٧،

السادة قادة الحزب الثوري

حزب الشعب الكوبي

المنظمة الحقيقية

اتحاد الطلاب الجامعيين

الإدارة الثورية

الإدارة العمالية الثورية.

«إن واجباً أخلاقياً ووطنياً، بل تاريخياً، يحملني على توجيه هذه الرسالة إليكم؛ إن الاحداث والظروف التي ضايقتنا بشدة في هذه الأوقات، والتي كانت فضلاً عن ذلك اقسى وأزعج ما صادفناه، منذ

(١) تحول هذا الحزب، في تشرين الأول ١٩٦٢، إلى الحزب الشيوعي الكوبي.

وصولنا إلى كوبا، قد جعلت تحريرها أمراً لا غنى عنه... وبالفعل، ففي يوم الاربعاء العشرين من تشرين الثاني بالضبط، وهو اليوم الذي خاضت قواتنا فيه ثلاث معارك طوال ست ساعات متواصلة، الامر الذي يعطي فكرة عن التضحيات والجهود التي رضي بها رجالنا من دون أن يحصلوا على أدنى مساعدة من المنظمات الاخرى، في هذا اليوم بالذات تلقينا، في منطقة عملياتنا، الخبر المذهل والوثيقة المتضمنة الاسس الصريحة والسرية لمعاهدة وحدة مزعومة يبدو أن حركة السادس والعشرين من تموز وهذه المنظمات التي أخاطبها الآن، قد وافقت عليها في ميامي. إن وصول هذه الأوراق - أيجب أن نرى في ذلك سخرية من جانب القدر، نحن الذين كنا نحتاج إلى الأسلحة إذاً... - قد ترافق مع الهجوم الاشد خطورة الذي شنه الطغيان ضدنا».

«إن الاتصالات عسيرة في ظروف النضال التي نمر بها. وعلى الرغم من ذلك، فإنه لم يكن بدّ من أن نجتمع، في ملء المعركة، زعماء منظمتنا كي نناقش هذه القضية التي لا تعرض للخطر سمعة السادس والعشرين من تموز فحسب، بل مبرراته التاريخية أيضاً».

«أما بالنسبة إلى أولئك الذين يناضلون ضد عدو يتفوق عليهم في العدد والعدة بصورة لا تضاهى، والذين لم يحصلوا، طوال سنة كاملة، على أي دعم سوى الكرامة التي ينبغي للمرء أن يقاتل بها دفاعاً عن قضية عزيزة على قلبه بكل إخلاص، وسوى اليقين بأنه جدير أن يموت من أجل هذه القضية، بالنسبة إلى هؤلاء الرجال المعزولين بصورة مريرة في ملء نسيان مواطنيهم الذين أنكروا عليهم كل مساعدة حتى حين كانوا يملكون الوسائط من أجل تقديم هذه المساعدة، وقد أنكروها عليهم بصورة منهجية كي لا نقول بصورة إجرامية، بالنسبة إلى هؤلاء الرفاق الذين شاهدوا عن كثب التضحية اليومية في شكلها الأنقى والأنزه، وكثيراً ما جرهم الألم لمشاهدة أفضل أخوتهم يسقطون شهداء، في حين يتساءل المرء، بكل مرارة من سيكون الضحية التالية في الذبيحة القادمة والحتمية، في هذه الساعة القاتمة حيث يغيب عن النظر حتى يوم الظفر الذي يقاتل المرء من أجله بكل ذلك التصميم والعزم، من دون أي أمل أو عزاء سوى التضحية بالذات بصورة لا جدوى منها، كيف لا يُدرك أن خبر هذه المعاهدة، المنشورة عن سابق عزم وتصميم تحت

أضواء الدعاية الصاخبة، وهي تُلزم الحركة في سلوكها المقبل، وذلك دون أن يكون لدى الموقعين عليها مجرد اللطف، حتى لا نقول الادب، الذي يحملهم على استشارة قادة تلك الحركة ومناضليها، لا يمكن إلا أن يجرحنا في صميمنا ويثير استياءنا».

«إن السلوك الخاطىء يؤدي دائماً إلى أوخم العواقب. وإنهم ليفعلون حسناً إذا لم ينسوا هذه الحقيقة أولئك الذين يحسبون أنفسهم قمينين بالإطاحة بالطغيان، وبالتوصل إلى إعادة تنظيم البلاد بعد العاصفة الثورية، وهي مهمة أصعب بما لا يقاس».

«إن حركة السادس والعشرين من تموز لم تسمِّ الوفد قط، كما لم تمنح سلطاتها لكائن من كان كي يناقش المفاوضات المطروحة على بساط البحث، وعلى أية حال، فإنها ما كانت تعارض في تسميتهم لو أنها استُشيرت في أمر هذه المبادرة، ولقد كانت تعنى بأن تعطي تعليمات حسبية لممثليها في قضية على هذا القدر من الخطورة من أجل نشاطات منظمتنا الحالية والآتية».

«إن الامر على النقيض من ذلك، إذ أن معلوماتنا المتعلقة بالعلاقات مع هذه القطاعات المختلفة تقتصر على تقرير للسيد ليستر رودريغز[1] الذي أوفدناه إليهم ومهمته الوحيدة تسوية بعض القضايا التي من المرتبة العسكرية، وكانت هذه المهمة تنص على ما يلي: «فيما يتعلق ببريو والإدارة أخبرك بأني استطعت أن أعقد معهم سلسلة من الاحاديث بغرض تنسيق الخطط ذات الطابع العسكري من دون أي موضوع آخر، وذلك حتى تشكيل حكومة مؤقتة، تؤيدها وتحترمها القطاعات الثلاثة. ومن المفروغ منه أني لفت الانتباه إلى انه يجب أولاً القبول بمبدأ رسالة سييرا. حيث تم التأكيد على أن هذه الحكومة يجب أن تُشكَّل بموافقة قوى البلاد المدنية. وكانت هذه عقبة أولى، ولقد عقدنا أثناء الإضراب

---

(١) احد ابطال مونكادا. وان عدداً من الرفاق الذين سترد أسماؤهم في هذه الصفحات هم كذلك من أبطال ذلك اليوم من الثورة الكوبية: كاليكستو غارثيا وخيزوس مونتاني، وخوان الميدا، وبونسه، والبنتوسا، وراميرو فالديس، وبنيتث، وخوليتو دياث، وهايدي سانتا ماريا، وميليا هيرنانديز، وغبرييل غيل، وثيرو ريدوندو، وبدرو ميريه، وميلكو لوبيز، وبيبيه سوباريز، وغوستافو اركوس، وفيديل وراوول طبعاً.

العام اجتماعاً طارئاً، وقد اقترحت وقتذاك أن نستخدم، نظراً للظروف، كل القوى التي في متناول اليد كي نحاول أن نحل بصورة جازمة القضية الكوبية. وأجاب بريو بانه لا يملك القوى الكافية من أجل الإقدام على هذا الأمر مع الثقة بالنصر، وأنه يكون من الجنون القبول باقتراحي، وعندئذٍ رددت عليه بأن يتفضل فيبلغني عندما يرى أن كل شيء أصبح جاهزاً تماماً من أجل رفع المرساة... ولعلنا نستطيع إذاً أن نتحدث عن معاهدات ممكنة. وفي انتظار ذلك، فليكن لطيفاً بما فيه الكفاية ويترك لي حرية العمل – أنا، وبالتالي ما أمثله داخل حركة السادس والعشرين من تموز – باستقلال تام. إن رأيي النهائي هو أنه لا سبيل إلى التفاهم مع هؤلاء السادة، وأنه يكون من الأفضل الامتناع عن محاولة ذلك في المستقبل، لأنه حين كانت كوبا في أمس الحاجة إلى العتاد زعموا أنهم لا يملكون هذا العتاد الذي لم يكفوا لحظة واحدة عن تكديسه والذي يفيضون به بكل معنى الكلمة».

«إن هذا التقرير في غنى عن التعليق، وقد أكد لنا شكوكنا، أننا لا نستطيع، نحن الثائرين، أن ننتظر أية مساعدة من الخارج».

«ولنفترض أن المنظمات التي تمثلونها قد وجدت من المستحسن مناقشة أسس الوحدة مع بعض الأعضاء من حركتنا؛ إنه لم يكن يخطر في الفكر مطلقاً نشر هذه الأسس على الملا بوصفها اتفاقات منتهية، وذلك دون أن تنذر قيادة الحركة الوطنية بذلك، ودون أن توافق عليه، وخاصةً أن تلك الأسس تعدل على وجه الدقة قواعد المؤسسات التي ضمناها في بيان سييرا أن السلوك بصورة مغايرة يعني عقد المعاهدات بغرض الدعاية وانتحال اسم منظمتنا باطلاً».

«إن الوضع محير حقاً؛ فحين كانت القيادة الوطنية، التي يقوم مقرها السري في مكان ما داخل الجزيرة، تتهيأ كي ترفض الأسس العامة والخاصة التي تتجه النية لجعلها أسساً للمعاهدة، وذلك حالما تتلقاها، بلغها عن طريق بعض الأوراق السرية والصحافة الجنبية أن هذه الأسس أعلنت على رؤوس الأشهاد باعتبارها اتفاقاً مبيتاً. وهكذا وجدت نفسها أمام الأمر الواقع، المعروف من الرأي العام، كما وجدت نفسها ملزمة بأحد امرين: إما أن تكذّبه، بكل ما يجره ذلك من بلبلة ونفور في الأذهان، وإما أن ترضى به حتى دون أن تعرض وجهات نظرها. وحين

وصلتنا نسخة من الوثيقة إلى سييرا، كانت هذه الوثيقة قد نشرت منذ أيام عديدة كما هو متوقع بالطبع».

«وحيال هذا اللغز عمدت القيادة الوطنية، قبل أن تكذب بصورة علنية الاتفاقات ذات العلاقة، إلى تنبيهكم إلى الضرورة المترتبة على التحالف بشأن التذكير بمبادئ بيان سييرا مايسترا في سلسلة من البيانات الصادرة عنه، بينما دعت في الأراضي الثائرة إلى اجتماع عُرضت فيه فكرة كل واحد من أعضائها وحللت، واتخذ فيه بنتيجة ذلك قرار إجماعي تستلهم هذه الوثيقة مضمونه».

«وإنه لأمر بديهي أن كل اتفاق على الوحدة يجب أن يستقبل جيداً من قبل الرأي العام الوطني والدولي. وإن من بين الأسباب الداعية إلى ذلك أنهم يجهلون في الخارج الوضع الحقيقي للقوى السياسية والثورية التي تناهض باتيستا، وأن هذا الشعار الخاص بالوحدة قد توج في كوبا نفسها بنفوذ عظيم في أيام كانت نسبة القوى خلالها، بكل تأكيد، مختلفة كل الاختلاف عما هي عليه اليوم، وأخيراً إن توحيد جميع الجهود، من أشدها حماسة حتى أشدها فتوراً، هو جانب إيجابي على الدوام».

«ومهما يكن من أمر، فإن الشيء الهام بالنسبة إلى الثورة ليس هو الوحدة بحد ذاتها، بل أساس هذه الوحدة، والشكل الذي ترتديه، والنوايا الوطنية التي تحركها».

«إن تقرير هذه الوحدة على أسس لم نعمد حتى إلى مناقشتها، وتصديق هذه الأسس من قبل أناس لا يملكون الكفاءة لمثل هذا العمل، والمناداة بها في الداخل والخارج من دون أي شكل آخر من المعاملات، وذلك من المأوى المريح لمدينة أجنبية، وبهذه الطريقة إلزام الحركة بضرورة مواجهة الرأي العام المضلل بمعاهدة مغشوشة، ذلك خداع من أسوأ الأنواع، وهو على أية حال لا يمكن أن يخدع منظمة ثورية حقاً وفعلاً؛ إنه خداع بحق البلاد، وخداع بحق العالم».

«وإليكم الأمور التي جعلت هذه العملية ممكنة: بينما كان قادة المنظمات المختلفة التي وافقت على هذه المعاهدة يلتقون في الخارج ويصنعون ثورة وهمية، كان قادة حركة السادس والعشرين من تموز موجودين في كوبا، وهم يخوضون من جانبهم ثورة فعلية حقاً».

«اتكون هذه الاسطر عنيفة؟ فليكن. ما كنت أخطها لولا تلك المرارة وذلك الإذلال اللذان نحسهما أمام العملية التي أريد منها ضم الحركة إلى تلك المعاهدة، باعتبار أن الخلافات الشكلية يجب ألا تتغلب على الأمور الجوهرية. ولقد كنا نقبل بها رغماً عن كل شيء، من أجل الطابع الإيجابي الذي تملكه الوحدة دائماً، ومن أجل المنفعة المترتبة عن بعض المشاريع التي وضعها التحالف، ومن أجل المساعدة التي يعرضونها علينا والتي نحن في أمس الحاجة إليها حقاً، لولا اننا كنا على خلاف خالص وبسيط مع بعض مبادئها الأساسية».

«وليكن وضعنا ميئوساً منه حتى الدرجة القصوى، ولتجند الدكتاتورية ضدنا، في المجهود الذي تبذله من أجل القضاء علينا، ما شاءت من آلاف العساكر، فإننا لن نقبل قط أن نضحي ببعض المبادىء الأساسية للثورة الكوبية وبمفهومنا عن هذه الثورة».

«إن هذه المبادىء مبينة بكل وضوح في بيان سييرا».

«أما أن يحذف، في بيان الوحدة، مبدأ المعارضة لكل تدخل أجنبي في شؤون كوبا الداخلية، فذلك من نتائج وطنية فاترة جداً وجبين يفقأ العينين».

«إن المناداة باننا نعارض هذا التدخل لا يعني مجرد الإصرار على عدم وقوع هذا التدخل في مصلحة الثورة، ذلك أن هذا التدخل يسيء إلى سيادتنا إذاً، ولنعترف أنه يسيء إلى مبدأ عزيز على جميع شعوب أميركا اللاتينية. إنه الإصرار أيضاً على عدم وقوع هذا التدخل في مصلحة الدكتاتورية، ذلك على شكل إرساليات من الطائرات والقنابل والدبابات والأسلحة الحديثة، التي تحافظ السلطة على وجودها بواسطتها، والتي لم يتعرض أي إنسان مثلنا، والاكثر من ذلك مثل أهالي سييرا، للمعاناة منها في دمه ولحمه. وأخيراً، فإن فرض احترام مبدأ عدم التدخل يعني بصورة مسبقة الإطاحة بالطغيان؛ هل سنكون على ذلك القدر من الجبن بحيث لا نجرؤ على المطالبة بسحب التدخل الأجنبي في مصلحة باتيستا أو على تلك الدرجة من الكذب بحيث نتوسل من أجل هذا التدخل في الخفاء كيما يحققوا لنا اغراضنا؟ أو على تلك الدرجة من التفاهة بحيث لا نغامر على التفوه بكلمة في هذا الشأن؟ كيف نجد الجراة، في هذه الظروف، على وصف

أنفسنا بالثورية وعلى تصديق بيان عن الوحدة يزعم لنفسه أهمية الحدث التاريخي؟

«ولقد حذف من بيان الوحدة أيضاً التعهد الجازم برفض أي نوع من التحالف العسكري الذي يطمح إلى حكم الجمهورية حكماً مؤقتاً».

«إن أسوأ ما يمكن أن يقع للأمة في هذه البرهة، بقدر ما تنجرف مع الوهم الذي يزعم بأن القضية الكوبية حلت بمجرد القضاء على الدكتاتورية، هو استبدال باتيستا بتحالف عسكري. وإن بعض المدنيين الذين من الطينة الأسوأ، الذين بلغ بهم الأمر حد أن يكونوا شركاء في العاشر من آذار[1] في ذلك الحين ثم انفصلوا عنه فيما بعد، ربما من جراء طموحهم الأكال وحبهم غير المحدود للمقرعة، ينظرون في حل من هذا الطراز، هذا الحل الذي لا يمكن أن يرضى عنه إلا أعداء تقدم شعبنا».

«وإذا كانت التجربة قد برهنت في اميركا على أن جميع التحالفات العسكرية تنزلق نحو الحكم المطلق؛ وإذا كانت أسوأ الادواء التي عذبت هذه القارة هي تجذر الشيع العسكرية في بلدان حروبها أقل من حروب سويسرا وجنرالاتها أكثر من جنرالات بروسيا؛ وإذا كان أحد المطامح الأكثر شرعية لشعبنا في هذه الساعة الحرجة حيث يتقرر لسنوات عديدة مصيره الديمقراطي والجمهوري إيجاباً أو سلباً، هو أن يحافظ، على اعتبار ذلك الإرث الأثمن لمحرريه، على التقليد المدني الذي ولد مع نضالات التحرر وديس بالاقدام حين تزعمت الجمهورية عصبة ترتدي اللباس العسكري (وهو ما لم يجرب أن يفعله حتى أعظم جنرالات استقلالنا مجداً لا في زمن الحرب ولا في زمن السلم)، فلِمَ نصل في طريق التنازل إذا جعلنا نحذف مثل هذا البيان المبدئي الهام، وذلك خوفاً من أن نجرح أحاسيس العسكريين الشرفاء الذين يمكن أن يعضدونا (هذه الاحاسيس التي هي وهمية أكثر منها حقيقية)؟ أو اننا لا نفهم إذاً أن تعريفاً مناسباً يمكن أن يجهض في الوقت المناسب خطر قيام عصبة عسكرية كل ما تصلح له هو مواصلة الحرب الاهلية؟ حسناً: إننا لا نتردد في المناداة بأنه إذا حلت عصبة عسكرية مكان

(1) ١٠ آذار ١٩٥٢، تاريخ انقلاب باتيستا.

باتيستا، فإن حركة السادس والعشرين من تموز ستواصل بحزم نضالها التحرري. إننا نفضل أن نناضل أكثر في الوقت الحاضر بالأحرى من ان نقع غداً في ماويات جديدة لا يمكن اجتيازها. لا عصبة عسكرية، ولا حكومة كرتونية تكون ألعوبة في يد العسكريين. «الحكم للمدنيين، في كرامة وشرف»؛ أما الجنود ففي ثكناتهم. ولكل حسب واجبه!».

«اللهم إلا إذا كنا ننتظر جنرالات العاشر من آذار الذين سيمحي باتيستا أمامهم عن طيبة خاطر حالما يشعر أن الخطر المحدق به قد أصبح قوياً، واجداً في هذا الاتفاق أفضل حل من أجل تحقيق نقل السلطات بحد أدنى من الأضرار لمصالحه الخاصة ومصالح بطانته؛ إلى أي عمى يمكن لعدم التقدير وانعدام المثل الأعلى وغياب العزم على النضال أن تقود السياسيين الكوبيين!».

«إذا كنا لا نؤمن بالشعب، إذا كنا لا نعتمد على ما لديه من احتياطي عظيم من الطاقة والقدرة على القتال، فإننا لا نملك الحق في أن نضع يدنا على مصيره كي نحوله ونحرفه، وذلك في الساعات الأكثر بطولة والأغنى بالوعود من حياته الجمهورية. ألا فليبتعد المتلاعبون بالسياسة عن التدخل في عملية التطور الثوري، بأفعالهم الخرقاء، ومطامحهم الخطرة ورغباتهم المحمومة في الاكتناز، وتقسيمهم المسبق للغنيمة، ذلك أن الرجال في كوبا يستشهدون من أجل ما هو أفضل. فليجعل المتلاعبون بالسياسة من أنفسهم محررين إذا كانت تلك هي رغبتهم! لكن فليمتنعوا عن تحويل الثورة إلى سياسة مضمحلة، ذلك أن شعبنا يهرق اليوم كثيراً من الدم ويقدم تضحيات هائلة بحيث لا يستأهل في الغداة هذا الخداع الجاحد جداً...».

«وفيما عدا هذين المبدأين الأساسيين المنسيين في وثيقة الوحدة، فإن خلافنا يشمل نقاطاً أخرى أيضاً».

«ولنفترض أننا رضينا بالبند (ب) من الفقرة السرية الثانية، المتعلقة بسلطات تحالف التحرير، وهو البند الذي ينص على ما يلي: «تسمية رئيس للجمهورية يمارس السلطات في الحكومة المؤقتة»، فإننا لا نستطيع أن نقبل بالبند (ج) من هذه الفقرة نفسها، وهو البند الذي يضم إلى هذه السلطات «الموافقة أو الرفض للوزارة التي يسميها رئيس الجمهورية بمجموعها، وكذلك التغييرات التي يمكن أن تطرأ عليها في

حالة الأزمة الكاملة أو الجزئية».

«كيف يمكننا أن نتصور أن حق الرئيس في تعيين معاونيه أو استبعادهم يظل خاضعاً لموافقة جهاز غريب عن سلطات الدولة؟ أليس من الواضح أنه لما كان التحالف مشكلاً من ممثلين عن الأحزاب والقطاعات المختلفة، وبالتالي من مصالح مختلفة، فإن تعيين أعضاء الوزارة لن يكون سوى مسألة مقدار، وهي الوسيلة الوحيدة من أجل الوصول إلى اتفاق في المسائل المختلفة؟ أيمكن القبول ببند ينص على قيام سلطتين تنفيذيتين داخل البلاد؟ إن الضمانة الوحيدة التي ينبغي لجميع قطاعات البلاد أن تطلبها من الحكومة المؤقتة هي إقامة مهمتها على أساس برنامج أدنى محدد والقيام بدورها كمعدل بكل نزاهة في سياق مرحلة الانتقال التي يجب أن تؤدي إلى الحياة الدستورية الطبيعية التامة».

«إن الطموح إلى التدخل في تعيين كل وزير على حدة، يعني السعي إلى الإشراف على الإدارة العامة بغرض وضعها في خدمة المصالح السياسية. ولا يمكن تفسير هذه العملية إلاّ بالنسبة إلى أحزاب أو منظمات لا تأمل، من جراء افتقارها إلى تأييد الجماهير، في الاستمرار في الوجود إلا ضمن نواميس السياسة التقليدية، لكنها عملية تتنافر مع الأهداف الثورية السياسية التي تسعى إليها حركة السادس والعشرين من تموز من أجل الجمهورية».

«إن مجرد وجود اتفاقات سرية لا علاقة لها بمسائل تنظيم المقاومة أو خطط العمل، بل هي تتصل بقضايا يجب أن تكون للأمة كلمتها فيها، مثلاً قضية بنية الحكومة المقبلة، وهي بالتالي قضايا يجب أن تُذاع على الملا لهذا السبب بالضبط، هو بحد ذاته شيء غير مقبول. ولقد قال مارتي ذلك:

«في الثورة تكون الطرائق سرية، لكن الأهداف يجب أن تكون علنية دائماً».

«وهناك نقطة أخرى يتبين أن حركة السادس والعشرين من تموز لا تستطيع القبول بها، ألا وهي البند السري رقم ٨ الذي ينص بالحرف الواحد على ما يلي: «تنضم القوى الثورية إلى المؤسسات العسكرية النظامية للجمهورية بأسلحتها الكاملة».

«أولاً، ما هو المقصود بالقوى الثورية؟ أمعنى ذلك أن كل من يتقدم في الساعة الأخيرة، وفي يده سلاح ما، سيعطى شهادة بانه شرطي أو بحار أو عسكري؟ أمعنى ذلك أن البزات العسكرية ستوزع على أولئك الذين يخفون اليوم أسلحتهم بكل حرص، لكنهم لن يترددوا في إشراعها يوم النصر، وهم يقعدون مكتوفي الأيدي حالياً في حين تقاتل حفنة من المواطنين ضد قوى الطغيان المجتمعة؟ هل سنضع على هذا النحو، في وثيقة ثورية، جرثومة التفسخ والفوضى اللذين كانا عاراً على الجمهورية في ماض لما يزل طرياً؟».

«إن التجربة قد علمتنا، في الاراضي التي نحتلها، أن الحفاظ على النظام العام قضية بالغة الأهمية بالنسبة إلى البلاد. ولقد بينت لنا الوقائع أن مجموعة من العوائق تنحل حالما يقضى على النظام القائم، وتجد الجريمة مرتعاً خصباً إذا لم تلجم في الوقت المناسب. ولقد وضعنا حداً لاولى تظاهرات الشقاوة بأن طبقنا بصورة مناسبة تدابير صارمة، وقد أيدنا الاهالي في ذلك تاييداً كلياً وكاملاً. ولقد كان الفلاحون، الذين اعتادوا فيما مضى على اعتبار ممثل السلطة عدواً للشعب يستضيفون الرجل المطارد أو الذي هو على استعداد لمعاداة العدالة لاتفه الاسباب، وذلك كي ينقذوه من أولئك الذين يتعقبونه. أما اليوم فإنهم يرون في جنودنا حماة مصالحهم، والنظام يسود بصلابة، وأفضل المحافظين عليه هم المواطنون أنفسهم».

«إن الفوضوية هي العدو الألد للتطور الثوري، ومحاربتها منذ الآن ضرورة أساسية. وإن ذلك الذي لا يريد أن يفهم هذه الحقيقة لا يهتم إذاً بمصير الثورة؛ وإنه لأمر طبيعي أن أولئك الذين لم يضحوا من أجل هذه الثورة لا يابهون لاستمرارها في الوجود...».

«يجب أن تعرف البلاد أن العدالة ستسود وأن الجريمة ستعاقب، كائناً ما كان مصدرها».

«إن حركة السادس والعشرين من تموز تطالب لنفسها بمهمة الحفاظ على النظام العام وإعادة تنظيم المؤسسات المسلحة العائدة للجمهورية!».

١ ـ لأنها المنظمة الوحيدة التي تملك ميليشيا نظامية في جميع أنحاء البلاد وجيشاً يخوض القتال ويعد أكثر من مائة انتصار على العدو.

٢ ـ لأن مقاتليها قد أثبتوا ألف مرة أريحيتهم وانعدام الحقد عندهم

ضد العسكريين، وذلك باحترامهم دائماً حياة الأسرى، وعنايتهم بالجرحى في المعركة، وبعدم تعذيبهم قط خصمهم حتى إذا عرفوا أنه يملك معلومات هامة. وأن هذا السلوك الحربي قد حافظوا عليه بكبر يفرض الإعجاب.

٣ - لأنه من الضروري أن ننفخ في المؤسسات العسكرية هذه الروح من النبل والعدل التي زرعتها حركة السادس والعشرين من تموز عند جنودها الخاصين.

٤ - لأن ضبط النفس الذي برهنا عليه في سياق هذه الحرب هو أفضل ضمانة على أن العسكريين الشرفاء ليس لديهم ما يخشونه من الثورة مطلقاً، ولن يلزموا بالتكفير عن أخطاء أولئك الذين دنسوا البزة العسكرية من جراء ما ارتكبوه من جرائم ودناءات».

«إن بعض المظاهر الأخرى من بيان الوحدة تظل صعبة الفهم. كيف يمكن التوصل إلى اتفاق من دون تحديد استراتيجية للنضال؟ أترى يؤمن الحقيقيون[1] بعد بإمكانية «الانقلاب» في العاصمة؟ أتراهم سيستمرون في تكديس السلاح فوق السلاح، هذا السلاح الذي سيقع ذات يوم في يد البوليس على أية حال، بالأحرى من تسليمه للمقاتلين؟ أتراهم قبلوا أخيراً موضوعة الإضراب العام الذي تؤيده حركة السادس والعشرين من تموز؟».

«وفضلاً عن ذلك، فإنه ينتابنا الشعور بأن أهمية الصراع الذي تخوضه المقاطعة الشرقية من وجهة النظر العسكرية قد استصغر شأنه بصورة تدعو إلى الأسى. لم تعد الحرب الدائرة في سييرا مايسترا، في هذه الساعة، حرباً للأنصار، بل هي حرب كتائب عسكرية. وإن قواتنا، المتخلفة عدداً وعدة، تستفيد قدر إمكانها من ميزات الأرض، ومن مراقبة العدو باستمرار، ومن قدرتها الأعظم على الحركة السريعة. ولا داعي لأن نشدد هنا على الأهمية الخاصة تماماً للعامل الأخلاقي في هذا النضال. لقد كانت النتائج مذهلة وسوف تعرف التفاصيل المتعلقة بذلك في يوم من الأيام».

---

(١) يقصد أعضاء الحزب الحقيقي في كوبا.

«إن السكان قد نهضوا جميعاً. ولو كان هؤلاء السكان مسلحين لما اضطرت فصائلنا لأن تأخذ على عاتقها أمر أصغر زاوية في البلاد؛ كان الفلاحون إذاً لا يسمحون لجندي معاد واحد بالمرور. وكان يمكن لهزائم الطغيان، هذا الطغيان الذي يواصل إرسال النجدات بكل عناد، أن تتحول إذاً إلى كوارث. وأن كل ما يمكنني أن أرويه لكم عن كيفية استيقاظ البسالة عند هذا الشعب سيظل قاصراً جداً عن الحقيقة. إن الدكتاتورية تمارس قمعاً وحشياً، واغتيالات الفلاحين بالجملة تضاهي المذابح التي اقترفها النازيون في أوروبا. وأن كل هزيمة يعنون بها يحملون الشعب الذي لا حول له على التكفير عنها. إن بلاغات القيادة العامة التي تعلن عن خسائر الثوار يسبقها دائماً مذبحة ما. ولقد أثارت مثل هذه التصرفات عند الشعب روحاً من التمرد العنيف، وأن النفس لتدمى والفكر ليباس عند التفكير بأن أحداً لم يرسل إلى هذا الشعب بندقية واحدة، عند التفكير بأنه بينما يشاهد الفلاحون هنا، وهم لا حول لهم ولا قوة، بيوتهم تحترق وأسرهم تُغتال، ويطالبون بالسلاح بكل عنفوان اليأس، توجد في كوبا أسلحة مخبأة لا تُستخدم حتى من أجل القضاء على دركي لعين واحد، أسلحة تنتظر أن يجمعها البوليس أو أن ينهار الطغيان أو أن يُفنى الثوار عن بكرة أبيهم».

«إن سلوك الكثيرين من المواطنين لا يمكن أن يكون أكثر دناءة وخسة. ولا تزال الفرصة سانحة اليوم من أجل التبدل وتقديم المعونة إلى أولئك الذين يناضلون. وبالنسبة إلينا، من وجهة النظر الشخصية، فليس لذلك أهمية البتة. فلا يراود خاطركم أن المصلحة أو الكبرياء هما اللذان يمليان علينا هذه الكلمات. إن مصيرنا قد دمغ، وليس هناك أي شك يمكن أن يعذبنا. فإما أن نقضي هنا، حتى الثائر الأخير، ويفنى في المدن جيل شاب كامل، وإما أن ننتصر على العقبات الأبعد عن التصديق. وليس بالنسبة إلينا هزيمة ممكنة، إن تلك السنة من التضحيات والأعمال البطولية التي عاشها رجالنا لا يمكن أن يمحوها أي شيء أو أي إنسان على الإطلاق. وإن انتصاراتنا لقائمة، وإنه لمن العسير جداً شطبها هي الأخرى. وإن رجالنا، الأصلب من أي وقت مضى، سيعرفون كيف يقاتلون حتى آخر قطرة من دمائهم».

«أما الهزيمة، فسوف يُمنى بها أولئك الذين رفضوا مساعدتنا. إن

الهزيمة من نصيب أولئك الذين كانوا في البدء إلى جانبنا، ومن بعد تركونا وحدنا، من نصيب أولئك الذين أعوزهم الإيمان بالكرامة والمثل الأعلى، فبددوا وقتهم وسمعتهم في اتفاقات مخزية مع الطغيان التروجلي[1]، من نصيب أولئك الذين كانوا يملكون الأسلحة فأخفوها بكل جبن في ساعة المعركة. وليس نحن المخدوعين بل هم بالأحرى».

«ثمة شيء يمكننا أن نؤكده عالياً وبكل وضوح: لو أننا شاهدنا كوبيين آخرين يقاتلون من أجل الحرية، مطاردين وعلى وشك التعرض للفناء؛ لو أننا شاهدناهم يوماً بعد يوم يقاومون دون أن يستسلموا أو يلينوا في عزمهم، فما كنا نتردد لحظة واحدة في الإسراع إلى نجدتهم والموت معهم إذا اقتضى الأمر ذلك. إننا كوبيون، والكوبيون لا يعرفون أن يقفوا مكتوفي الأيدي بينما الصراع دائر من أجل الحرية، حتى في أي بلد آخر من أميركا اللاتينية. هل يتّحد الدومنيكيون في لجة واحدة من أجل تحرير شعبهم؟ إن عشرة كوبيين يأتونهم إذاً مقابل كل دومنيكي... هل يجتاح أنصار سومورا كوستاريكا؟ إن الكوبيين يأتونهم إذاً مقابل كل دومنيكي.. هل يجتاح أنصار سومورا كوستاريكا؟ إن الكوبيين يسرعون إذاً كي يقاتلوا. ومع ذلك نجد اليوم، بينما الوطن فريسة معركة قاسية جداً من أجل الحرية، كوبيين في المنفى، مبعدين عن وطنهم من قبل الطغيان، ويرفضون مساعدتهم عن أخوتهم الذين يقاتلون.!

«إلا إذا كانوا يطالبوننا، لقاء مساعدتهم لنا، بشروط الأسد الغضنفر؟ لعله يجب علينا، كي نحصل على مساعدتهم، أن نقدم إليهم الجمهورية على طبق وقد تحولت إلى غنيمة عملاقة؟ أو لعله يجب علينا أن ننكر مثلنا الأعلى ونجعل من هذه الحرب فناً جديداً من أجل قتل أشباهنا، ونغمس البلاد في حمام من الدم لا جدوى منه ولا يحقق للوطن ذلك الوعد بالمكافأة الذي ترتجاه من مثل هذه التضحية».

«إن قيادة النضال ضد الطغيان موجودة، وسوف تظل موجودة، في كوبا نفسها وفي أيدي المقاتلين الثوريين. وإن أولئك الذين يرغبون، في

---

(1) كان تروجيلليو الدكتاتور الدموي لسان دومينيك، ولم يكن أقصر باعاً من باتيستا في الجريمة.

الحاضر وفي المستقبل، في أن يعتبروا دعماً للثورة يجب أن يكونوا داخل البلاد ويجابهوا بصورة مباشرة المسؤوليات والاخطار والتضحيات التي تتطلبها الساعة الراهنة في كوبا.

«وإنّ للمنفيين دورهم، يقومون به في هذا النضال، لكنه من السخف الرعن بأن تُعيّن لنا من الخارج القمة التي ينبغي لنا الاستيلاء عليها، ومزرعة القصب التي يسمح لنا بإحراقها، وعمل التخريب الذي سيكون له اثر طيب عندهم، أو متى وفي أي ظرف وتحت أي شكل يمكننا أن نثير الإضراب العام. إنّ هذا أمر سخيف، والاكثر من ذلك أنه يبعث على الضحك. ساعدونا من الخارج بأن تجمعوا الاعتمادات من بين المنفيين والنازحين الكوبيين، وبأن تشنوا الحملات دفاعاً عن القضية الكوبية، في الصحف وفي الرأي العام؛ أفضحوا من هناك الجرائم التي ترتكب ضدنا هنا، لكن إياكم أن تطمحوا من ميامي إلى قيادة الثورة التي تتجسد، في جميع مدن الجزيرة وأريافها، في ملء النضال، والتحريض والتخريب، والإضراب، والأشكال الألف الأخرى للعمل الثوري، هذه الأشكال التي صاغها نضال السادس والعشرين من تموز».

«إن القيادة الوطنية مستعدة، وقد أعلنت ذلك أكثر من مرة، للدخول في محاورة، في كوبا، مع قادة أية منظمة معارضة، كائنة ما كانت، بغرض تنسيق خطط مخصوصة وتنفيذ أعمال حسية يُقدَّر أنها تفيد في الإطاحة بالطغيان».

«ولسوف يتحقق الإضراب العام بواسطة التنسيق الفعلي لجهود حركة المقاومة المدنية، والجبهة الوطنية العمالية، وكل قطاع آخر يدين الروح الانقسامية، وبالاتصال الوثيق مع حركة السادس والعشرين من تموز التي هي حتى الآن المنظمة المعارضة الوحيدة التي تقاتل في البلاد جميعاً».

«وإن الفرع العمالي من حركة ٢٦ تموز ينظم في الوقت الحاضر لجاناً للإضراب في كل مركز للعمل وفي كل قطاع صناعي، مع العناصر المعارضة التي تفصح عن استعدادها للتوقف عن العمل والتي يبدو أنها لن تتهرب في اللحظة الحرجة. وإن لجان الإضراب هذه ستضم الجبهة الوطنية العمالية التي ستكون الممثل الوحيد للبروليتاريا الذي تعترف حركة السادس والعشرين من تموز على اعتباره ممثلاً شرعياً».

«إن الإطاحة بالدكتاتورية يتضمن بالضرورة حل الكونغرس الخسيس، وقيادة اتحاد الشغيلة الكوبيين، وجميع رؤساء البلديات والمحافظين وغيرهم من الموظفين الذين اعتمدوا بصورة مباشرة أو غير مباشرة، كيما يرتقوا إلى مراكزهم، على «انتخابات» الأول من تشرين الثاني ١٩٥٤ أو على الانقلاب العسكري للعاشر من آذار ١٩٥٢، وانها لتتضمن كذلك إطلاق سراح المعتقلين السياسيين، العسكريين منهم والمدنيين، في الحال، كما تتضمن تقديم جميع الشركاء في الجرم والعسف، جميع شركاء الطغيان، إلى المحاكمة».

«ولسوف تعتمد الحكومة الجديدة على دستور عام ١٩٤٠، وتضمن جميع الحقوق التي يعترف هذا الدستور بها، وتبتعد عن كل انقسامية سياسية، ولسوف تأخذ السلطة التنفيذية على عاتقها الوظائف التشريعية التي يخص الدستور كونغرس الجمهورية بها وتكون مهمتها الرئيسية قيادة البلاد إلى الانتخابات العامة وفقاً لقانون الانتخابات لعام ١٩٤٣ ودستور عام ١٩٤٠، وتطبيق البرنامج الادنى، ذي النقاط العشر، الوارد في بيان سييرا».

«وإن المحكمة العليا الحالية ستُحل لانها كانت عاجزة عن حل الوضع غير الشرعي الذي خلقه الانقلاب؛ ولا يعني هذا أننا نعرض، في المستقبل، عن إعادة تسمية بعض أفرادها الحاليين الذين دافعوا دائماً عن المبادىء الدستورية أو اتخذوا موقفاً صلباً حيال الجريمة والتعسف ومساوىء هذه السنوات من الطغيان».

«ولسوف يقرر رئيس الجمهورية كيفية تشكيل المحكمة العليا الجديدة. وسوف تكلف هذه المحكمة بدورها بإعادة تنظيم جميع المحاكم والمؤسسات ذات الاستقلال الذاتي، مُسرحّة جميع أولئك المتهمين بالإسهام في جرائم الطغيان، مع إمكانية إحالتهم إلى المحاكم. وسوف تتم تسمية الموظفين الجدد وفقاً للقانون. أما الاحزاب السياسية، في ظل الحكومة المؤقتة، فلن يكون لها سوى حق واحد، الا وهو الدفاع عن برامجها أمام الشعب، وتجنيد المواطنين وتنظيمهم في إطار دستورنا، والتقدم إلى الانتخابات العامة».

«ولقد سلط الضوء من قبل في بيان سييرا مايسترا على ضرورة تعيين المدعو إلى إشغال منصب رئاسة الجمهورية، وقد بينت حركتنا أن هذا الشخص يجب أن يختار في اعتقادها من قبل جميع المؤسسات المدنية. ومهما يكن من شيء، فعلى الرغم من انقضاء خمسة اشهر على

صدور ذلك البيان، فإن هذه المسألة لم تُحل بعد، وقد أصبح من الضروري جداً إعطاء البلاد الجواب عن سؤال من سيخلف الدكتاتور، ولم يعد في الإمكان الانتظار يوماً آخر أمام إشارة الاستفهام الضخمة هذه. وإن حركة السادس والعشرين من تموز ترد على هذا السؤال، وهي تقدم اقتراحها إلى الشعب باعتباره الصيغة الممكنة الوحيدة من أجل ضمان شرعية وتطور الأسس السابقة للوحدة والحكومة المؤقتة. إن هذا الشخص يجب أن يكون القاضي الفاضل في محكمة المقاطعة الشرقية، الدكتور مانويل أوروتياللبو. ولسنا نحن الذين نعينه، بل سلوكه الخاص بالأحرى، ونحن نأمل ألا يرفض تقديم هذه الخدمة إلى الجمهورية».

وهذه هي الأسباب التي ترشحه ليتبوّأ هذا المنصب.

١ ـ لقد كان الموظف العدلي الذي رفع اسم الدستور، إلى أعلى مكانة، حين أعلن، في جلسات المحاكم، أثناء محاكمات رجال حملة غرانما، أن تنظيم قوة مسلحة ضد النظام لا يشكل جريمة، بل هو قانوني تماماً، ويتفق مع نص الدستور والقانون وروحهما، وهو بيان لم يسبق له مثيل على فم أي قاض في تاريخ نضالاتنا من أجل الحرية.

٢ ـ إن حياته المكرسة لإدارة العدالة باستقامة تضمن لنا أنه مهيأ بما فيه الكفاية، مهنياً وشخصياً، من أجل الإمساك بالميزان متعادلاً بين جميع المصالح الشرعية، وذلك حين يطيح الشعب بالطغيان.

٣ ـ ليس هناك شخص منزه عن الروح الحزبية كما الدكتور مانويل أوروتيا، وبالفعل فهو لا ينتسب، باعتبار شرطه كقاض، إلى أية جماعة سياسية. ولا يوجد أي مواطن آخر له مثل سمعته، خارجاً عن أي تظاهر بالروح النضالية، قد توحد مع القضية الثورية بقدر ما فعل هو ذلك.

«وإذا رفضت شروطنا، هذه الشروط المنزهة لمنظمة قد قدمت أعظم التضحيات، منظمة لم تشاور قبل أن يورد اسمها في بيان للوحدة لم تصدق عليه، فإننا سنواصل النضال وحدنا، كما فعلنا ذلك دائماً، من دون أية أسلحة سوى ما نستولي عليه من العدو في كل معركة، ومن دون أية مساعدة سوى ما يقدمه إلينا الشعب الذي يقاسي بمرارة، ومن دون أي سند سوى مثلنا الأعلى».

«ذلك أن حركة السادس والعشرين من تموز، وهذه الحركة وحدها، هي التي ناضلت بفعالية في طول البلاد وعرضها، ولا تبرح تناضل حتى

الآن. إن مناضلي السادس والعشرين من تموز، من دون سواهم، هم الذين حملوا العصيان من جبال المقاطعة الشرقية الوعرة حتى المقاطعات الغربية في البلاد. وإن هؤلاء المناضلين وحدهم هم الذين يقومون بأعمال التخريب، ويحرقون مزارع القصب وينفذون حكم الإعدام بالجواسيس. إن حركة السادس والعشرين من تموز وحدها قد استطاعت أن تنظم ثورياً العمال في جميع أرجاء البلاد، وهي وحدها التي ساعدت في تنظيم حركة المقاومة المدنية حيث تتراص في الوقت الحاضر جميع القطاعات المدنية لجميع أرجاء كوبا على وجه التقريب».

«ولسوف يتهمنا الكثيرون بأن الغرور هو الذي يملي علينا هذه الكلمات... لكن يجب أن نضيف كذلك أن حركة السادس والعشرين من تموز وحدها قد أعلنت أنها لا ترغب في الاشتراك في الحكومة المؤقتة، وهي تضع كل قوتها المعنوية والمادية تحت تصرف المواطن المدعو إلى رئاسة مرحلة الانتقال الضرورية».

«اعلموا جيداً أننا أعرضنا عن الأوضاع البيروقراطية أو عن الاشتراك في الحكومة؛ لكن افهموا جيداً، وبصورة حاسمة، أن مناضلي السادس والعشرين من تموز لا يعرضون، ولن يعرضوا قط، عن توجيه الشعب وقيادته، في السر، من سييرا مايسترا أو من القبور حيث يلقي العدو بموتانا. ونحن لا نعرض لأننا لسنا نحن، بل جيل كامل، وقد وعد شعب كوبا بأن يحل قضاياه الكبرى بصورة حسية».

«سوف نعرف كيف ننتصر أو نموت، لوحدنا. ولن يكون الصراع قط أقسى منه حين لم نكن سوى اثني عشر رجلاً، وحين لم نكن نملك تأييد هذا الشعب الذي صلب عوده وتنظم في سييرا بأسرها، وحين لم نكن نملك، كما هي الحال اليوم، منظمة قوية وانضباطية في جميع أرجاء البلاد، وحين لم نكن نعتمد على التأييد الجبار للجماهير، هذا التأييد الذي بان للعيان يوم مات رفيقنا الذي لا يُنسى، فرانك بايس».

«إن المرء لا يحتاج للرفقة كي يستشهد بكرامة».

فيديل كاسترو روث

سييرا مايسترا، ١٤ كانون الأول ١٩٥٧.

* * *

ـ ٢٧ ـ

الإضراب العام (٩ نيسان ١٩٥٨)

«الهجوم الأخير»

معركة سانتا كلارا

كانت الحركة في السهل تُهيء كلها، بصورة محمومة، تنفيذ الإضراب العام الثوري. ولقد تشكلت هيئة لهذا الغرض، الجبهة الوطنية العمالية، تقودها وتأمرها حركة السادس والعشرين من تموز، وقد وقعت ضحية مرض الانقسامية في أول عهدها. وأظهر العمال بعض الفتور حيال هذه المنظمة الوليدة، المصبوغة كلياً بالوان ٢٦ تموز، وذات الأغراض الجذرية كثيراً بالنسبة إلى الظروف القائمة في ذلك الحين. وكان فيديل كاسترو، قبل أيام قليلة من ٩ نيسان، قد أصدر بياناً أخيراً أورد فيه بعض التهديدات ضد جميع أولئك الذين لم يسلكوا طريق الثورة. ولم يتأخر عن إصدار بيان آخر موجه إلى العمال، يدعوهم فيه إلى الوحدة في قلب الجبهة الوطنية أو خارجها، ذلك انه أدرك جيداً أن الجبهة وحدها ستظل إلى الأبد عاجزة عن إثارة الإضراب وحدها...

وارتمت قواتنا في المعركة، فنزل كاميلو تشينافويغوس، قائد الرتل الرابع آنذاك، إلى سهول المقاطعة الشرقية، من ناحية بايون، حيث لم يتأخر عن زرع الاضطراب والموت في صفوف العدو. ومع ذلك، فقد جاء التاسع من نيسان، وكان نضالنا كله عبثاً... إن القيادة الوطنية

للحركة، إذ ارتكبت خطيئة تامة بشأن مبادىء النضال الجماهيري، قد جربت أن تثير الإضراب من دون أن تعلن عنه مسبقاً، بصورة مباغتة، بالعبارات الثارية. وكما هو منتظر، فقد رفض العمال الاشتراك في الإضراب، ومات عدد من الرفاق الكبار لقاء لا شيء في أنحاء مختلفة من البلاد. لقد كان التاسع من نيسان فشلاً محرقاً لم يزعزع لثانية واحدة استقرار النظام. بل الأكثر من ذلك أن الحكومة استطاعت، بعد هذا التاريخ الفاجع، أن تسحب بعض القوات وتضعها شيئاً فشيئاً في المقاطعة الشرقية كيما تحمل الدمار حتى سييرا. وكان لا بد لنا أن نقوي باستمرار من دفاعنا ونتغلغل أكثر فأكثر في الغابات.

وزادت الحكومة، من طرفها، عدد الفرق المتمركزة حيال مواقعنا حتى أصبح لها ١٠٠٠٠ جندي في ذلك المكان. عندئذٍ بدأ هجوم الخامس والعشرين من أيار، في قرية لاس مرسيدس التي كانت تشكل موقعنا المتقدم.

كان النقص في مواردنا صارخاً: ٢٠٠ بندقية في حالة جيدة من أجل النضال ضد ١٠٠٠٠ سلاح من كل نوع، يا له من نقص فادح! ومن جهة أخرى، فقد أمكننا بهذه المناسبة أن نقيس مبلغ الفتور الذي يبديه الجيش الباتيستي في القتال. وقاتل فتياننا مثل الأسود طوال يومين، بمعدل رجل واحد ضد عشرة أو خمسة عشر رجلاً. واضطر العدو أن يلقي بكل ثقله ـ دبابات ومدافع مورتر وطيران ـ كي يجبرهم على التخلي عن القرية. وكان فريقنا الصغير يقاتل النقيب انجيل فيرديتشيا الذي استشهد بعد شهر من ذلك التاريخ شاكي السلاح.

وفي تلك الفترة تلقى فيديل رسالة من الخائن أولوخيو كاميللو الذي كتب، مخلصاً لأساليبه في الأحابيل السياسية الدنيئة، معلناً للزعيم الثائر، باعتباره قائد العمليات المعادية، أن الهجوم سيستمر مهما كلف الأمر، لكنهم سيستبقون «الرجل» (فيديل) بانتظار النتيجة النهائية. وبالفعل فقد تابع الهجوم مجراه؛ وبعد شهرين ونصف الشهر من الاشتباكات المتصلة، كان العدو قد فقد ألف رجل بين قتيل وجريح وأسير وفار، وترك بين أيدينا ٦٠٠ قطعة من السلاح من بينها دبابة واحدة، و١٢ مدفع مورتر، و١٢ رشاشاً مثلث القوائم، وعشرات من البنادق الرشاشة، ومقداراً كبيراً من الأسلحة الأوتوماتيكية، دون أن نقول شيئاً عن

الكميات التي لا تصدق من التجهيزات والذخائر من مختلف الانواع، فضلاً عن ٤٥٠ أسيراً سلّمناهم للصليب الاحمر في ختام الحملة.

إن هذا الهجوم الاخير الشهير على سييرا مايسترا قد حطم ظهر الجيش الباتيستي، لكنه لم يكن قد قال كلمته الاخيرة بعد. واستؤنف النضال. وهكذا صغنا استراتيجيتنا النهائية، فتقرر أن نهاجم من ثلاث نقاط: سانتياغو دي كوبا، الخاضعة لحصار مرن، ولاس فيلاس التي يجب أن اقصدها، وبينار دل ريو، في الطرف الآخر من الجزيرة، التي يجب أن يتوجه إليها كاميلو تشيانفويغوس على رأس الرتل الثاني المدعو «انطونيو ماتشيو». ولم يتمكن كاميلو أن يحقق القسم الثاني من برنامجه، إذ أن مستلزمات الحرب اضطرته إلى البقاء في لاس فيلاس.

وبعدما صفينا الكتائب التي شنت الهجوم على سييرا مايسترا، وارجعنا الجبهة إلى حدودها الطبيعية، ورفعنا من معنويات رجالنا ووسعنا قواتنا عدداً وعدة، قررنا أن نبدأ المسير على لاس فيلاس، المقاطعة الوسطى. وكانت مهمتي الرئيسية، من وجهة النظر الاستراتيجية، أن اقطع بصورة منهجية سائر طرق المواصلات بين طرفي الجزيرة. وقد تلقيت الامر فضلاً عن ذلك بإقامة الاتصالات مع جميع الجماعات السياسية التي يمكن أن توجد في السلاسل الجبلية في تلك المنطقة. واخيراً فقد خولت سلطات واسعة كي احكم عسكرياً القطاع الذي كنت مسؤولاً عنه. وعلى هذا الاساس، وإذ كنا نحسب اننا نستطيع أن نقطع المسافة في اربعة ايام، كنا على وشك المسير بالسيارات، في ٣٠ آب ١٩٥٨، حين جاء حادث طارئ يعكر خططنا. ففي تلك الليلة وصلتنا ناقلة تحمل البزات العسكرية والمحروقات التي ستحتاج إليها الشاحنات المهيأة للرحيل. بَيْدَ أن طائرة حاملة شحنة من الاسلحة قد هبطت في الوقت نفسه في مطار قريب من الطريق، واكتشفت الطائرة في لحظة هبوطها. رغماً عن الليل المظلم، فتعرض المطار لقصف شديد من المدفعية، من الساعة العاشرة مساء حتى الخامسة صباحاً. وفي تلك الساعة أشعلنا الطائرة كي نتفادى وقوعها في يد العدو، او استمرار القصف في النهار، وهو ما يمكن أن يؤدي إلى نتائج أوخم عاقبة بالنسبة إلينا. وتقدمت القوات المعادية إلى المطار، وفي طريقها صادرت الشاحنة وحمولتها من المحروقات. وهكذا وجدنا

انفسنا من جديد على أقدامنا.

بدأت المسيرة على هذا القرار، في ٣١ آب، من دون شاحنات او جياد. وكُنّا نأمل مع ذلك ان نعثر من جديد على العربات بعد أن نجتاز الطريق من مانثا نيللو حتى بايامو. وبالفعل عثرنا عليها، بَيْدَ أن إعصاراً رهيباً اجتاح المنطقة في الأول من أيلول، وعطل جميع طرق المواصلات باستثناء كاريتاريا سنترال، وهي الطريق المزفتة الوحيدة في تلك المنطقة من كوبا. هيَّا، لا بدّ لنا أن نصرف النظر عن الانتقال بالشاحنات... فمنذ تلك اللحظة لم يعد في إمكاننا التقدم إلاّ راجلين أو على صهوات الجياد. وسرنا، وعلى أكتافنا حمولة ثقيلة من الذخيرة. ومدفع بازوكا مع ٤٠ قنبلة، وكل ما هو ضروري من أجل طريق طويلة ومن أجل إنشاء معسكر كامل.

وجاءت في اعقاب ذلك ايام عسيرة، على الرغم من أننا كنا فوق أرض صديقة هي ارض المقاطعة الشرقية، واجتزنا انهراً غمرتها مياه الفياضانات، واقنية وجداول تحولت إلى انهر، وناضلنا دون هوادة كي نمنع البلل عن الذخيرة والأسلحة والقنابل، وبحثنا عن جياد جديدة نستعيض بها عن الجياد المتعبة، وهربنا من المناطق المأهولة بقدر ما كنا نبتعد عن المقاطعة الشرقية. كنا نمشي بصعوبة في اراض غمرها الفيضان، تهاجمنا جحافل البعوض التي كانت تجعل ساعات الراحة وقتاً لا يطاق. وكنا نتناول طعاماً رديئاً وقليلاً، ونشرب مياه الجداول التي تتلوى في المستنقعات، او نشرب مياه المستنقعات بكل بساطة. وجررنا انفسنا بصورة تدعو إلى الأسى طوال ايام رهيبة. وبعد أسبوع واحد من رحيلنا، حين كنا نجتاز خوبابو، عند الحدود بين كاماغوي والمقاطعة الشرقية، كنا قد تعبنا كثيراً. وفضلاً عن ذلك فقد كانت فرقتنا تشكو من نقص في الأحذية، وكان رفاق كثيرون يمشون حفاة في اوحال جنوبي كاماغوي.

وأثناء ليل التاسع من أيلول، حين دخلنا المكان المسمى لافيدرال، وقعت طليعتنا في كمين معادٍ، فاستشهد رفيقان باسلان من رفاقنا. لكن الأسوأ من ذلك أن قوات العدو قد اكتشفت مكاننا، فراحت منذ تلك اللحظة تلاحقنا دون أن تترك لنا برهة من الراحة. وبعد معركة قصيرة تغلبنا على الحامية الصغيرة التي كانت هناك، لقاء اربعة أسرى من

جانبنا. وكان من واجبنا أن نضاعف من حرصنا، وبخاصة أن الطيران أصبح الآن يعرف خط مسيرنا في تفاصيله الكبرى.

بعد يوم أو يومين وصلت إلى المكان المسمى «لاغراند لاغان»، مع كاميلو ورتله ـ في وقت واحد ـ وكانت حالهم أفضل منا. وإن المكان لجدير بالذكرى: فقد كان يعج بالبعوض بحيث لم يكن يمكن للمرء أن يرتاح لحظة واحدة بدون كلة، وهي شيء لم يكن الجميع حائزين عليه.

وتبعت ذلك أيام من المسير الشاق المضني عبر أراض بائسة لا يوجد فيها إلا الماء والطين، وكنّا جياعاً، عطاشاً، ولا نتقدم إلاّ بكل صعوبة، وكانت أرجلنا متصلبة ثقيلة مثل الرصاص، وكانت أذرعنا متعبة بصورة رهيبة. وعاودنا المسير بجياد أفضل تركها لنا كاميلو كي يركب الشاحنات، ولكننا اضطررنا إلى التخلي عنها في جوار المركز السكري ماكارينو. وبما أن الأدلاء الذين كان يجب أن يلتحقوا بنا لم يصلوا، فقد اضطررنا إلى متابعة المسير كيفما اتفق. ووقعت طليعتنا على مركز معاد، في المكان المسمى الرفاق الأربعة، وكان ذلك إيذاناً بالمعركة المنهكة. وأشرق النهار فاستطعنا بعد عناء كبير أن نجمع القسم الأكبر من الفرقة في الغابة الأشد كثافة في المنطقة، لكن العدو تقدم علينا بصورة جانبية، ولم يكن لنا بدٌ من القتال طويلاً كي نسمح للمتأخرين منا أن يعبروا عن طريق حديدية في اتجاه الغابات. وعندئذٍ حدد الطيران مكاننا، فراحت طائرات بـ٢٦ وت٤٧، وطائرات الاستطلاع الكبيرة ت٣، والطائرات الصغرى، وكل ما عداها، يقذف الحمم علينا ضمن مستطيل لا يزيد طول ضلعه عن ٢٠٠ متر، بل هو أقل من ذلك أيضاً. وانسحبنا بعد هذا الطوفان بعدما فقدنا رجلاً واحداً تحت القنابل. وكنا نحمل معنا عدداً من الجرحى من بينهم الرائد سيلفا الذي أنهى بقية الحملة بأسرها بكتف مكسورة.

وفي الغداة، كانت الأوضاع أقل سوءاً، إذ شاهدنا بعض رفاقنا المتخلفين واستطعنا أن نعيد تجميع الفرقة بكاملها، باستثناء عشرة رجال التحقوا برتل كاميلو ووصلوا معه إلى الجبهة الشمالية من مقاطعة لاس فيلاس في ياغاخوي.

ولم يعوزنا التأييد الفلاحي قط في ملء مصاعبنا. كنا نجد على الدوام فلاحاً يقوم بدور الدليل لنا أو يوفر عنّا مشقة الموت جوعاً. ومن

المؤكد أننا لم نصادف ذلك التأييد الإجماعي الذي كنا نصادفه في المقاطعة الشرقية، لكننا وجدنا على اية حال، باستمرار، اناساً يقدمون المعونة إلينا. وقد خانونا مرة، ونحن نجتاز أرض إحدى المزارع، لكن ذلك لم يكن من تدبير مبيت ضدنا من قبل الفلاحين، بل يجب أن نفهم فقدان كسرة خبزهم اليومي، فيخبرون سيدهم بمرورنا في المنطقة، هذا السيد الذي يسرع إذاً ليخبرالسلطات العسكرية بالأمر بكل طيبة خاطر.

وذات يوم، بعد الظهر، سمعنا من الراديو الصغير الذي نحمله تقريراً قدمه الجنرال فرانسيسكو تابرنيلا دولث، هذا الذي كان لا حدود لتعجرفه في ذلك الحين. كان يعلن خبر القضاء على العصابات التي يقودها «تشي» غيفارا، ويتلو قائمة بالموتى والجرحى والمحاربين السالمين... ولقد حصل على هذه المعلومات جميعاً من الأوراق المصادرة من حقائبنا بعد صدامنا الأليم مع العدو قبل ذلك ببضعة ايام، وقد خلط الجنرال معها بعض المعلومات الكاذبة التي جمعتها قيادة الجيش. وقد إثار خبر موتنا في فرقتنا ارتكاساً من الغبطة. بيد أن التشاؤم جعل يستولي على رجالنا شيئاً فشيئاً: الجوع والظمأ، والإعياء، والشعور بالعجز أمام قوات معادية تشدد من حصارها حولنا أكثر فأكثر، وبخاصة مرض الأقدام، المعروف عند الفلاحين باسم «حساء دقيق الذرة»، هذا المرض الذي كان يجعل من كل خطوة إلى الأمام عذاباً مبرّحاً، هذه الأشياء جميعاً قد حولت فرقتنا إلى جيش من الأخيلة. كانت الحالة الحكمية لفريقنا تتفاقم يوماً بعد يوم، ولم تكن وجبات الطعام - ثمة وجبة هذا اليوم، وليس ثمة وجبة في يوم آخر، وربما نتناول وجبة في يوم ثالث - لتُحسن شيئاً من حالتنا. وقضينا أشد أيامنا صعوبة مطوقين في ضواحي المركز السكري باراغوا، في مستنقعات نتنة ومن دون قطرة واحدة من الماء الشريب، يلاحقنا الطيران، ومن دون جواد واحد كان يمكن أن يساعد الضعفاء من بيننا على اجتياز هذه الأوحال المعادية وقد اهترأت أحذيتنا تماماً بفعل هذا الماء الأجاج الموحل، المليء بالأعشاب التي تجرح الإقدام العارية. وحين فككنا حصار باراغوا كي نصل إلى الطريق الشهيرة التي تصل بين خوكارو ومورون - وهو مكان تاريخي جرت فيه اشتباكات دامية بين الوطنيين والاسبانيين في حرب الاستقلال. كنا في وضعية ميؤوس منها حقاً. ولم نجد حتى

الوقت كي ننال قسطاً من الراحة، ذلك أن خراطيم من المياه (قسوة من الطقس بالإضافة إلى هجمات العدو) كانت تضطرنا إلى استئناف المسير. وكانت الفرقة تزداد إعياءً وانهياراً. ومع ذلك، في اللحظة الأشد حراجة، حين لم يعد في الإمكان حمل الرجال المتعبين على السير قُدماً إلا باستخدام الإهانة، والتوسل، والشتائم، كانت رؤيا بدت لأبصارهم في المدى البعيد كافية لتنفخ فيهم الشجاعة من جديد وتبعث في المغاوير روحاً جديدة: بقعة زرقاء نحو الغرب، هي البقعة الزرقاء لسلسلة لاس فيلاس الجبلية، وقد شاهدها رجالنا للمرة الأولى. وابتداءً من تلك اللحظة، أصبحت الحرمانات نفسها أقل وطأة، وأصبحت الأشياء جميعاً أسهل وأبسط فيما يبدو. وأفلتنا من الحلقة الأخيرة باجتياز خوكارو سباحة، وهو يفصل بين مقاطعتي كاماغوي ولاس فيلاس، وكان انطباعنا أننا تخلصنا من الظلمات.

وبعد يومين فقط كنا في قلب المكان المسمى ترينيداد سانكتي سبيريتوس، في الجمي، متهيئين للدخول في المرحلة الجديدة من الحرب. واسترحنا بعد يومين، لأنه كان علينا أن نواصل طريقنا في الحال وأن نعمد إلى منع الانتخابات التي كانت ستجري في الثالث من تشرين الثاني. كنا قد بلغنا منطقة لاس فيلاس الجبلية في ١٦ تشرين الأول، وكانت لدينا فسحة ضئيلة من الوقت من أجل مهمة ضخمة حقاً.

كان علينا، فور وصولنا إلى سييرا الايسكامبري، أن نضايق جهاز الدكتاتورية العسكري، وبصورة أخص مواصلاته، وكان غرضنا المباشر هو منع إجراء الانتخابات، وهو عمل صعب بنتيجة الوقت القليل الذي نملكه من جهة، والخلافات القائمة داخل الحركة الثورية من جهة ثانية، والصراعات الداخلية التي انتهت بأن كلفت غالياً جداً: بما في ذلك حيوات بشرية.

كان علينا أن نهاجم القرى المجاورة كي نمنع عقد الاجتماعات، فوضعنا خطة مؤداها أن نهاجم في وقت واحد كابايغوان وفومنتو وسانكتي سبيريتوس، في السهول الغنية لوسط الجزيرة، بينما تستسلم الحامية الصغيرة لغينيا دي ميراندا ـ في الجبال ـ ونهاجم من بعد حامية باناو دون نتائج كبيرة. وبذلنا نشاطاً هائلاً خلال الأيام التي سبقت يوم الثالث من تشرين الثاني: فقد اتجهت أرتالنا في جميع

الاتجاهات، جاعلة الإقبال على صناديق الاقتراع معدوماً كلياً في جميع المناطق المجاورة. أما قوات كاميلو تشيانفويغوس، في شمالي المقاطعة، فقد شلت التمثيلية الانتخابية كلياً. إن الأشياء جميعاً قد أوقفت، منذ نقل جنود باتيستا حتى الحركة التجارية.

وفي المقاطعة الشرقية لم يجر الاقتراع البتة. وكانت نسبة الاقتراع المئوية أعلى قليلاً في كاماغوي، أما في المنطقة الغربية فقد كان الامتناع عن التصويت كبيراً رغماً عن كل شيء. تمت المقاطعة بصورة عفوية في لاس فيلاس، ذلك أننا لم نجد الوقت الكافي كي ننظم في وقت واحد مقاومة الجماهير السلبية ونشاط المغاورين.

وكانت الهجمات المتكاثرة على طرق المواصلات تجعل الوضع في لاس فيلاس حرجاً جداً. وحين وصلنا إلى هناك غيَّرنا تماماً أسلوبنا في الصراع في المدن، إذ كنا ننقل في كل مسيرة أفضل المناضلين المدنيين إلى معسكرات التدريب كي يتعلموا تكتيكاً في التخريب أعطى ثماره في المناطق القليلة السكان.

وأغلقت الطرق شيئاً فشيئاً خلال شهري تشرين الثاني وكانون الأول ١٩٥٨. ولقد أغلق النقيب سيلفا تماماً الطريق المؤدية من ترينيداد إلى سبيريتوس، كما أن الطريق المركزية تضررت بصورة بالغة حين قطع الجسر فوق توينوتشو، دون أن يتم تدميره على أية حال. كذلك قطع الخط الحديدي المركزي في أماكن متعددة: فالقسم الجنوبي قطعته الجبهة الثانية كما أن القسم الشمالي قطعته قوات كاميلو تشيانفويغوس. هكذا قسمت الجزيرة إلى قسمين، وكانت المنطقة الأشد اضطراباً، ألا وهي المقاطعة الشرقية، تتلقى وحدها المعونة الحكومية جواً وبحراً، وهي معونة كانت تتضاءل يوماً بعد يوم على أية حال. كانت أعراض التفسخ في صفوف العدو تتكاثر.

وابتداءً من ١٦ كانون الأول، أصبحت الدكتاتورية في أوضاع لا تحسد عليها من جراء الانقطاع المنهجي للجسور وطرق المواصلات الأخرى. كيف يمكنها في هذه الشروط أن تدافع عن مراكزها المتقدمة أو حتى عن مواقع الطريق المركزية؟ وفي فجر السادس عشر نسف الجسر فوق فالكون، على الطريق المركزية، وبذلك انقطعت عملياً المواصلات بين هافانا والمدن الواقعة شرقي سانتا كلارا، كذلك حوصرت مجموعة

من القرى - وفي عدادها فومنتو الأبعد إلى الجنوب - وهوجمت من قبل قواتنا. ولقد دافع قائد الموقع عن نفسه بصورة تزيد أو تنقص بضعة أيام، لكن قوات الدكتاتورية، وقد انهارت معنوياتها، لم تكن تتقدم مطلقاً على الأرض كي تمد يد المعونة إلى رفاقها، وذلك رغماً عن هجمات الطيران المتواصلة على جيشنا الثائر. وحين تأكدت من عدم جدوى المقاومة استسلمت، وانتقل أكثر من مائة بندقية إلى جانب الحرية.

وقررنا أن نشل في الحال الطريق المركزية، دون أن نترك للعدو فرصة تمالك أنفاسه، وهكذا هاجمنا في وقت واحد، في ٢١ كانون الأول، كاباييغوان وغوايوس. واستسلمت غوايوس بعد عدة ساعات، وتلتها كابا يغوان بعد يومين بجنودها التسعين، ولقد شاهدنا جيداً في كابا يغوان عجز الدكتاتورية التي لم تمد المحاصرين في أية لحظة كانت بنجدات من المشاة.

وكان كاميلو تشاينفويغوس يهاجم مجموعة من القرى إلى الشمال من لاس فيلاس، بينما هو يحقق حصار ياغواخي، القلعة الأخيرة لقوات الدكتاتورية، وكانت بإمرة نقيب من أصل صيني قاوم أحد عشر يوماً، مجمداً القوات الثورية في القطاع، بينما كانت قواتنا تتجه في ذلك الحين نحو الطريق المركزية، في اتجاه سانتا كلارا، عاصمة الإقليم.

وبعد سقوط كاباغوان رحنا نهاجم بلاشيتاس التي استسلمت خلال يوم واحد. وقد قدمت إلينا الإدارة الثورية مساعدة جدية. وبعد الاستيلاء على بلاشيتاس أمكننا أن نحرر سريعاً ريميديوس وكايباريان (وهو مرفأ هام) على الساحل الشمالي. كان الوضع يشتد ظلمة بالنسبة إلى الدكتاتورية، فقد كنا ننتصر دون انقطاع في المقاطعة الشرقية، كما أن جبهة ايسكامبري كانت تلحق الهزيمة بالحاميات الصغرى، وكان كاميلو تشاينفويغوس يسيطر على الشمال.

وحين انسحب العدو من كاماخواني، من دون أن يبدي أدنى مقاومة، أصبحنا على استعداد من أجل الهجوم النهائي على عاصمة لاس فيلاس. (إن سانتا كلارا هي محور السهل الأوسط للجزيرة، وهي مدينة يعد سكانها ١٥٠٠٠٠ نسمة، ومركز للخطوط الحديدية، وعقدة هامة للمواصلات، تحيط بها هضاب صغيرة مشجرة كانت قوات الدكتاتورية قد احتلتها مسبقاً).

كنا قد ضاعفنا كثيراً، وقت الهجوم، مخزوننا من البنادق، بل كنا قد استولينا على أسلحة ثقيلة... لكن دون ذخيرة. كان لدينا بازوكا من دون قنابل، وكان علينا أن نقاتل ضد عشر دبابات، لكننا كنا نعرف أن الطريقة الفضلى من أجل محاربتها هي التغلغل في الأحياء الكثيفة السكان حيث تنقص فعالية هذه الأسلحة حتى درجة بعيدة.

وبينما كانت قوات الإدارة تأخذ على عاتقها مهمة الاستيلاء على الثكنة رقم ١٣ التابعة للحرس الوطني، عمدنا من جانبنا إلى فرض الحصار على جميع النقاط القوية لسانتا كلارا. وكنا نركز جهودنا على حماة القطار المدرع المتمركز عند مدخل طريق كاماخواني، وهو موقع أقام الجيش عنده دفاعاً متيناً.

وبدأت المعركة في ٢٩ كانون الأول. وكانت الجامعة قد عملت في المراحل الأولى كقاعدة للعمليات، لكننا أقمنا قيادتنا فيمابعد في مكان أقرب إلى مركز المدينة. وكان رجالنا يقاتلون ضد القوات التي تدعمها وحدات مدرعة، فيرغمونها على الفرار، لكن الكثيرين منهم دفعوا حياتهم لقاء هذه البسالة. وجعل الموتى والجرحى يملاون المقابر والمستشفيات المرتجلة.

واذكر حادثة تميز جيداً حالة قواتنا الذهنية في سياق ذلك الهجوم الأخير. كنت قد وبخت جندياً كان ينام في ملء المعركة، فاجابني بانه مجرد من سلاحه لأن طلقة أفلتت منه دون قصد. قلت له بقسوتي العادية: «جد لك بندقية أخرى بالذهاب صفر اليدين إلى الخط الأول... إن كنت قميناً بذلك». وفي سانتا كلارا، إذ جئت أواسي الجرحى في المستشفى العسكري، لمس أحد المحتضرين يدي وقال: «أتذكر يا سيدي الرائد؟ لقد أرسلتني بحثاً عن السلاح في ريميديوس... ولقد كسبته هنا...». ذلك كان المقاتل صاحب الطلق الناري الذي ذهب في الهواء، وقد مات بعد دقائق قليلة، وكان يبدو لي سعيداً لأنه قدم الإثبات على شجاعته. ذلك هو جيشنا الثائر.

استمرت هضاب شابيرو في المقاومة، واستمرت المعركة طوال يوم الثلاثين من كانون الأول. وكنا في الوقت نفسه نستولي على نقاط متعددة من المدينة. وكانت المواصلات قد انقطعت بين مركز سانتا كلارا والقطار المدرع. وحين شاهد أصحاب هذا القطار انهم حوصروا فوق

هضاب شابيرو حاولوا الهرب عن طريق الخط الحديدي، لكنهم وقعوا بكل حمولتهم الجهنمية على التفرع الذي لم ننس أن ننسفه من قبل فخرجت القاطرة وعدة مركبات أخرى عن الخط. جرت عندئذٍ معركة باعثة على الاهتمام: إن رجال القطار المدرع قد أخرجوا من أماكنهم بضربات كوكتيل مولوتوف، فهم لم يكونوا مستعدين، رغماً عن موقعهم الرائع، للقتال إلا عن بعد، من مراكز مناسبة وضد عدو هو عملياً بدون سلاح، وذلك بالاسلوب الخالص الذي اتبعه المستعمرون مع هنود الغرب الاميركيين. لكن القطار الذي كان رجالنا يهاجمونه من مواقع مجاورة ومن مركبات قريبة جداً، ويلقون عليه زجاجات من المحروقات المشتعلة، قد تحول بفضل الواحه المدرعة إلى فرن حقيقي بالنسبة إلى الجنود. وهكذا استسلم طاقمه بكامله خلال بضع ساعات، بمركباته الاثنتين والعشرين، ومدافعه المضادة للطيران، ورشاشاته المضادة للطيران ايضاً، ومقاديره الاسطورية من الذخيرة (وهي اسطورية بالنسبة إلينا وحدنا بكل تاكيد).

ونجحنا في الاستيلاء على المحطة الكهربائية والقسم الشمالي الغربي من المدينة بكامله. وأعلنا عن طريق الاثير أن سانتا كلارا أصبحت بكاملها على وجه التقريب بين أيدي الثورة. وفي سياق هذا البيان، الذي تلوته بوصفي القائد الأعلى للقوات المسلحة في لاس فيلاس، أخبرت الشعب الكوبي والالم يحز في نفسي عن مقتل النقيب روبرتو رودريغز «راعي البقر الصغير»، الصغير قامة وسناً، قائد «الزمرة الانتحارية»، الذي خاطر بحياته ألف مرة ومرة في النضال من أجل الحرية. لقد كانت «الزمرة الانتحارية» نموذجاً عن الزخم الثوري، وكانت تتألف من متطوعين مجربين فقط. ومع ذلك، فكلما مات احد افرادها - وهذا ما كان يقع في كل معركة - وعند تعيين المرشح الجديد، لم يكن أولئك الذين نستبعدهم يتمالكون دموعهم أو يخفون حزنهم. ما أغرب أن نرى هؤلاء المحاربين النبلاء الذين لوحتهم الشمس يطلقون العنان لشبابهم في الحديث بأن يسكبوا دموع اليأس لانه لم يكن لهم الشرف الرفيع فينتخبون للمكان الأول في القتال والموت.

وسقط مركز الشرطة بعدئذٍ، مسلماً إيانا الدبابات التي كانت تحميه. ومن ثم كان الاستسلام العاجل للثكنة رقم ٣١ التي احتلها الرائد

كوبيلا، بينما استسلم السجن وقصر العدل وقصر حكومة الإقليم لنا، كما استسلم «الفندق الكبير» حيث واصل المحاصَرون إطلاق النار من طابقه الثاني حتى انتهاء القتال في وجه التقريب.

عندئذ لم يبق في أيدي الدكتاتورية سوى ثكنة «ليونشيو فيدال»، وحدها، وهي أكبر حصن في وسط الجزيرة. لكن دلائل الاختناق قد اتضحت عند المدافعين عنها منذ الاول من كانون الثاني ١٩٥٩. وفي صباح الاول من كانون الثاني أرسلنا النقيب نونت خيميث وورودريغز دي لافيا يفاوضان أمر استسلام الثكنة. كانت الاخبار عجيبة ومتناقضة:لقد هرب باتيستا، الأمر الذي أدى إلى انهيار قيادة القوات المسلحة، واتصل مندوبانا مع كانتللو بالجهاز وأبلغاه عرض الاستسلام، لكنه اعتبر أنه من المحال قبول هذا العرض، ذلك انه يشكل إنذاراً بينما هو استلم قيادة الجيش منفذاً تعليمات فيدل كاسترو بصورة حرفية. واتصلنا بفيدل في الحال، واطلعناه على حقيقة الأمر، وأعطيناه رأينا في موقف كانتللو المشكوك فيه. وكان فيدل قد حزم أمره بصورة مسبقة، وكانت قناعته التامة هو الآخر أن كانتللو خائن (إن كانتللو قد سمح في هذه الساعات الحاسمة بالهرب لجميع المسؤولين الكبار في الحكومة الباتيستية، وإن موقفه ليدعو إلى الأسى خاصة إذا عرفنا انه ضابط اتصل بنا، وقد وثقنا به ونحن نعتقد، بكل سذاجة، أن للعسكري كلمة واحدة فقط، وهو يتمسك بها)...

أما الاحداث التالية فيعرفها جميع الناس: رفض فيدل كاسترو ان يأخذ برايه، وأمره بالمسير على هافانا، واستلام الجنرال باركان قيادة الجيش بعد خروجه من سجن جزيرة الصنوبر، واستيلاء كاميلو تشيانفويغوس على مدينة كولومبيا العسكرية، واستيلاء رتلنا الثامن على قلعة كابانا، واخيراً تنصيب فيدل كاسترو، بعد ايام قليلة، رئيساً لوزراء الحكومة المؤقتة. وهذا كله يشكل جزءاً من التاريخ السياسي الحالي لبلادنا.

* * *

المحتويات